مسؤولية المثقف

محمد حامد الأحمري



منتدى العلاقات العربية والدولية

مسؤولية المثقف

محمد حامد الأحمري

﴿إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولًا﴾

سورة الإسراء، 36

الطبعة الأولى
منتدى العلاقات العربية والدولية
الدوحة - قطر 2018 م
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 187 /2018م

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي منتدى العلاقات العربية والدولية»

الفهرس

تمهيد

عندما أتممت هذا النص فكرت حقًّا في عدم نشره، كما فعلت مع نص سابق له من طراز قريب تركته ليموت نهائيًّا؛ وسبب ذلك أنني أستحي من نفسي قبل الناس حينما أطالب بمواقف وأفكار وأحث عليها، ثم أجدني أعاني مما أعيبه على غيري، فما أصعب أن تطلب من الناس ما لا تفعل، أو تطالبهم بأكثر مما تقدر عليه.

وبما أن هذا التفكير تسلل إليّ على مراحل أثناء الكتابة، فقد حاولت طرد هذا الهاجس من خاطري وقلت: لعل في أفكار غيرك مما نقلته ما يبرر تصرفك، فكن ناقل خير وإن لم تكن فاعلًا له، أو لعل فيما تسوقه ما يفيد وينبّه.

إن واجب الإرشاد إلى الحق والنهي عن الباطل لا يستوجب أن يكون المطالِب بالحق والخير دائمًا منسجمًا مع الحق ملتزمًا فعليًّا به، ولا أن تكون مثالًا للحق وللخير، بل عليك قوله ونشره ومحاولة فعله في الوقت ذاته، وإلا فإن ترك قول الحق انتظارًا للحظة استقامة فردية قد لا تجيء هو شر من قول بلا فعل. إنها قصة نقاش في علم السلوك قديمة عند المسلمين وعند غيرهم أيضًا، مؤداها أن عليك ألا تنتظر أن تأمر غيرك بالخير حتى تفعله، ولا تترك لوم الباطل حتى تتركه أنت أولًا؛ فالأمر بالخير خير دائمًا مهما كان حالُك، والنهي عن الشر واجب دائمًا وإن تلبستَ به، فهي قيمة قد تنفصل عن الذات، وإنما تنال قوتها وصدقها ومكانتها من شهادة واقع المرء لها، وهي فائدة ذاتية متعدية.

وكان الحسن البصري يحذر من فكرة ترك الأمر بالمعروف حتى نفعله وترك النهي عن المنكر حتى نتركه. ولما سأله من رغب ألا يأمر بالخير حتى يفعله ولا ينهى عن المنكر حتى يتركه، أجابه عن هذا قائلًا: «ودّ إبليس لو ظفر منا بهذه»[1]. وكان هرقليطس يقول: «من الحكمة ألا تصغوا إليّ، بل إلى كلمتي»[2].

وأنت تجد اليوم الطبيب يدخّن وينهى عن التدخين، ورجال التشريع يحاصرون بعض المفاسد ويفعلونها، فليس فعلهم حجة بل قولهم الحجة. وأحيانًا يخبرنا المحامون عن القانون ويخالفونه. وفي الأصول: إن قول النبي مقدم على فعله[3]؛ لأن قوله موجه إلى الناس وفعله غالبًا يخصه، أي إن الخطاب الصادر عن الإنسان إلى الناس أهم من ممارسته الخاصة. فالقول والكتابة مشاركة وتأثير عام يقتضي موقفًا مع أو ضد، بعكس ما يكون خاصًّا بالإنسان في دائرة فردية غالبًا لا تتعداه، رغم صعوبة تطبيق ذلك فيما يخص الشخصيات العامة.

﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾

سورة ق، 19

مقدمة

محاور هذا الكتاب الأساسية هي تعريف المثقف والثقافة، لندخل من هذا إلى موضوعه وهو مسؤوليته. ومسؤوليته تبدأ من قصة بنائه ذاتًا واعية عارفة بالنفس وبالمحيط، وتتعامل مع الآخر وهو الإنسان المختلف زمانًا ومكانًا وثقافة. فمتى استطاع بناء ذات يعرفها أو يخمنها أو تكونت بلا وعي منه، فإنه سيواجه درجات أخرى من المسؤولية أو الدور الفاعل. وأول هذه الأدوار تخليه عن السلّم الذي أوصله إلى مرحلة ليبني سلّمًا نحو مرحلة أخرى من المستقبل متخيلًا أو مقارنًا بغيره، وفي طريقه ذاك يرى عقبات وعليه هدمها أو سلوك معابر ليتجاوزها.

وبما أنه ليس مجرد فرد وليس دوره فرديًّا فحسب؛ فإن عمله يقتضي صنع الوعي، وإثارة التفكير، والتوجيه إلى التغيير، نحو ما هو خير للمجتمع، ونقد المؤسسات والأفكار التي تضر المجتمع أو هدمها. ومن هنا كان لا بد له -عرَف أم لم يعرف- أن ينتقد أو يهدم هذه المؤسسات التي قد تكون أعرافًا أو مؤسسات دينية أو سياسية أو عسكرية، ونقده يجب أن يكون أو يفهم أنه بناء أو يتجه نحو البناء. إنه يقوم بدور الخلية الحية الناشطة في كل كائن حي، يساعد الحياة ويقصي الخلية الميتة الضارة، ويبني مكانها خلية جديدة أنشط منها وأكثر فائدة وفاعلية. وبما أنه كذلك وهذه مسؤوليته، فلا بد له من الوسائل الحية الجديدة دائمًا والأكثر فاعلية، وعليه أن ينسجم جدًّا مع الكيان الحيوي المحيط، وإلا فإنه سيبقى غريبًا وبعيدًا، ويوم يفسد يصبح كَلًّا على مجتمعه، مضرًّا به كأي خلية ميتة تحتاج إلى من يبعدها.

مجمل معارف المثقف يجب أن تكون دليلًا له لا حِملًا عليه. لا يستكين لمعارفه بل يتجاوزها، فكل من اهتم بالمستقبل تخفّف من التخصص[4]. ومن وصل مقصده بمعلوماته تخلى عن بعض أثقاله منها، أو تخلى عن أدلة الدروب الأولى التي جاوزها. وكل معرفةٍ مرحلة، وغايتها دليل للفرد والمجموع، ومن أتم مرحلة فهو يحتاج إلى دليل جديد لبقية الطريق أو لمرحلة جديدة، فالمثقف يعرف ليعمل ويدل ويمارس. إنه أستاذ عموم المجتمع، نصَّب نفسه بنفسه، وعليه دائمًا إثبات جدواه وإفادة مجتمعه باستمرار، ولا تبقى هذه الإفادة دون جهد المتابعة. إن أمانته مطلوبة، والرقابة منه وعليه ضرورية، والسكوت عن أخطائه كبيرة، وهو معرض للتهمة وللتوثيق، يُطلب منه أن يهدي ولا يهيم، وأن يحرك ويتحرك ولا يركد.

المثقف ليس سياسيًّا؛ فهمّه صناعة الوفاق لا الخلاف، وإن كان أكثر المثقفين للأسف من عُرّاض بضائع الأحزاب ومتحولي المواقف، ولكننا نطلب منه -رغم ضعفه وتبعيته أحيانًا- أن يستيقظ ضميره، وأن يغادر ربقة التبعية لمصلحة فردية وصغيرة، ليرتقي إلى مصلحة الأمة التي ترجو أن يكون دليلَها. ومجتمعه قد يتجاوز له ألّا يلحّ على تقواه ولكنه لا يغفر خلاعته، فبعض التقوى إعاقة، والخلاعة خدعة أو بهرجة لحظة تخرج من الحياة -من القيم والقيمة- وتسوق إلى العدمية.

يُطلب من المثقف إنتاج ثقافة أو دراستها ونشرها، ويُطلب منه أن تكون لمعرفته وثقافته رسالة ومسؤولية. تلك بعض مطالب أو فحوى ما يهرف المنظّرون به عن مسؤولية المثقف، كلّ يجرّه إلى حماية «مسكنه الثقافي» والدعاية لموقفه، فهو لسان القوم ودليلهم، وقد يغوي ويطمع ويضل.

والمثقف في زماننا «كائن حديث» بحسب بعض التعريفات[5]، فليس هو العالم في الشريعة ولا في التقنية، وليس الفيلسوف ولا الأديب، وليس الشاعر ولا الروائي ولا القاصّ ولا الناقد ولا الصحافي ولا الفنان، ولكنه قد يأتي من أي مهاد معرفي. وقد يحافظ على مهنة متخصصة يعيش منها، ولكنه لا يعدّ مثقفًا بمجرد كونه متخصصًا؛ لأن المثقف هو من يهتم اهتمامًا خاصًّا بالأفكار ويعيش عالمها ويمارس بها دورًا عامًّا. إنه ليس الناشط السياسي ولا الفيلسوف السياسي، وليس مجرد صحافي سريع التفاعل والتعليق على الأحداث الكونية؛ ذلك أن الصحافي آنذاك كان يكتب مقالة ثم يقرؤها على الناس. إنه ليس الكُتبي وإن كان كل مثقف كُتبيًّا، ولكن ليس كل عشاق الكتب والمعارف مثقفين[6].

ولأنه واضح الملامح عند قوم وغامض عند آخرين، جليّ الدور كما يتوهم دارسون وغريب على ساحة المعرفة والنقاش، جاءت هذه المحاولة لمعرفته ومعرفة دوره ورسالته ونماذج من أصناف المثقفين. هي محاولة إذن لمعرفة من هو، والبحث عنه وعن دوره، وماذا نريد منه.

وإذا كانت نماذج المثقفين قد اختير أغلبها من بعيد[7]، أو من المحتجين على السياق العام، أو ضد الاستغلال الإمبراطوري، فإنما مرد ذلك إلى أسباب منها: أن المؤلف يُعْلِي من دور النقاد لأنهم يحملون شعورًا إنسانيًّا عامًّا ولا يعيشون طفيليات يروجون للقوى النافذة، وهم أهل ضمائر رأيناهم يساندون المضطهدين والمقهورين في العالم، ولأن الإمبراطورية تجد خدمًا لا يحصرهم عدد ولا يقف تيار حشدهم وانتفاعهم، وكثير منهم مخادعون وظالمون وبلا ضمير، والقدوة غالبًا قلة.

إن المثقفين الناقدين هم ضمير الإنسان المعاصر، والمذكّرون بإنسانيته وإنسانية الآخرين من حوله، ويبقى النموذج مثقلًا بأخطائه وأنانيته وضعفه. وقد أعجبني أن رأيت في سيرة ميخائيل نعيمة سخطه على نفسه ونقده ما فعل حين ألجأته الحاجة والحرب إلى أن يعمل في مصنع للسلاح (في زمن الحرب العالمية الأولى) بمدينة بيت لحم في ولاية بنسلفانيا، ويحارب حربًا ليست له[8].

وعليّ أن أقتنص الإلماعة الذكية لا أن أبحث في العيوب، ويبقى الإنسان ضعيفًا لحاجاته ورغباته. فبعد أن قضيت سنين معجبًا بأحد المفكرين (تشومسكي)، قرأت نصًّا في تجميع بعض مواقفه المناقضة لما يقوله أو بعض أخطائه، إذ كان يعيب القوة الإمبراطورية ويحشد الأدلة على مظالم العسكرة وشركات صناعة السلاح، ولكن تبين أنه يتلقى معونات وهبات بحثية من جيش أعتى القوى التي يهاجمها ليل نهار[9].

وكارل ماركس -عدو الرأسمالية الأكبر- كان كثيرًا ما يعيش وينتج بفضل معونة صديقه فريدريك إنجلز، الرأسمالي العريق وصاحب المصانع في مانشستر. وعلى بعد زمانيٍّ ومكانيٍّ وفكريٍّ كافٍ، ليس من العقل ولا من اللياقة التنكر لما حققته تلك الأفكار من إنصاف للعمال وللفقراء، وما سببته في المجتمع الرأسمالي من تخفيف شرور التطرف الاستغلالي الرأسمالي؛ فهل نسخر من الصديقين أم نقول: ماذا تركت تلك الصداقة الغريبة من أثر؟

وكذا جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، فالأول حمل مشعل الثورة ضد الاحتلال ليوقدها في كل أرض، والآخر تبعه في حياته، ثم مال بعد وفاته إلى العمل على تربية أقلام المعرفة لتكون أساس النهضة، وليس العمل على الثورة مباشرة كما كان يرى أستاذه. وكانا ينتقدان المستبدين

والمقربين من المستعمرين، ثم يلجأ أحدهما إلى متنفذ مقرب من المستعمرين يطلب منه تمويلًا لمجلتهما **العروة الوثقى**[10].

هناك عدد من المثقفين يحب أن تمر المسؤولية بجانبه ولا تقع عليه، أو يجب أن يحمّلها الآخرين ممن تقدموا أمامه أو تأخروا بعده أو الذين يقومون بمهمات عملية أقل شأنًا من مهمته؛ فهناك دائمًا مثقفون آخرون مسؤولون عما حدث أو عما سيحدث، أما هو فبعيد دائما وبريء، والمواقف غالبًا أكبر منه أو أقل منه شأنًا.

كل هذه المحاولات للتنصل مجرد تسلية للنفس بالتحقير من الدور وقلة الشأن أو الأثر، أو تعظيم الذات والمبالغة في نرجسيتها وعلوها فوق مواقف المسؤولية وجعلها أقل شأنًا منها، ثم يكتفي بتمجيد ما قام به، فإن كان دورًا تافهًا عظمه، وإن لم يفعل شيئًا فلأن غيره لم يساهم أو أن الظروف تمنع، وله دائمًا عذر في عدم المشاركة أو في التنصل من القيام بدوره. فالمرء -وأعني المثقف خاصة- عندما لا يفعل ما يجب ولا يقوم بما يستطيع وقت الحاجة والضرورة أو وقت خلل الانحراف؛ فإنه يصنع ثقافة الهروب من المسؤولية أو ثقافة السلبية والتبعية. وبعض مواقف هؤلاء السلبية أو المغالية في نصرة الشر والفساد تكون في محصلتها الخطيرة والنهائية أقرب إلى أن توصم بدور «الخيانة»، فهو ينافق بلا حد، ويرتزق بلا ضمير، ويساهم قصدًا أو دون قصد في صناعة التخلف والجهل والتبعية. بل يُصبح أحيانًا -وهو المؤمل منه الإنقاذ وصناعة الأمل والرقي- منبعًا لشرور لا تنقضي، فهو مرةً رسولُ مستعمرٍ ولسانه يستتبع له الناس، وأخرى لسان مستبد وخادمه وحامل سوطه، وثالثةً مندوبُ صورة يقتطعها من الماضي السحيق أو التاريخ ليسخّر لها الحاضر، أو مولع بكل غريب يُوطّنه قسرًا ليدكّ به كل ما في أرضه وثقافته وتاريخه.

ولم تخلُ -ولن تخلوَ- المجتمعاتُ الحية من ضمير راشد لها، من مثقف يعيش الحاضر ويطل على الماضي ويستشرف المستقبل بقدر طاقته، يشارك مجتمعه طموحه، بل قد تكون لديه رؤية للمستقبل هي نتاج موهبته وجهده المخلص في البحث والبذل من الوقت والعلم في مشاركة المخلصين للإفادة مما توصلوا إليه، جادًّا في التخلص من أخطاء الحاضر ومن مخاطر مغامرات المستقبل.

إن المستقبل هو ما يعمل ذوو الرُّؤى والتطلع إليه اليومَ، وسيتحقق غدًا عندما يجتهد أفراد لتحقيقه. وقد دلت خبرة الإنسان وتاريخه وتجاربه على خطورة الفكرة التي يعمل لها هؤلاء جادّين؛ لأنها تتشكل بحسب فهمهم أو قريبًا منه، وكثيرًا ما يقْسرون الفكرة المرنة القابلة للنمو والنضج إلى فكرة قديمة أو حديثة تم تصليبها وتحجيرها مسبقًا، حتى إذا ما أرادت التحقق -بحسب مرادهم بها- وجدت من ضيق أفق بعضهم عائقًا للجديد متصلبًا فاقدًا للمبادرة والمرونة.

فالمثقف من تلك القلة التي تحملت همًّا ومسؤوليةً وأفكارًا تعتقدها منقذة، تصبر على عرضها، وتدافع عن نقاط الحق فيها، وتملك من الجرأة ما يجعلها ترمي بعض متاعها يوم لا يكون جديرًا بالحمل من الماضي إلى المستقبل، ويوم يكون عديم القدرة على الحياة، وتفرق بين العاطفة والعقل فيما يواجهها، ولا تخلط بين الشخصي والعام في مزاجها ومستقبل أمتها المختلفة عن ذاتها. فهي نخبة تصوَّب لها سهام المحافظين على كل شيء، ويتهمونها بأن تجديدها تبديد، وتواجه سهام المنخلعين من كل شيء، فهي لا تردد المعتاد، ولا تتبنى الآخر لأنه للآخرين، ولا لأنه فقط جديد أو مختلف، فلا تعادي الضحية ولا تنافق المعتدي. قد يتهمونها بأنها تركّب رؤيتها من الإسلامية والقومية العربية والتغريب أو التحديث. وقد يتهمونها بأنها تترك كثيرًا من عرف الأسلاف

وقيمهم، أو أنها تنخلع مما فهمه قوم دينًا أو ما فهمه آخرون تغريبًا. طموحات النخبة المصلِحة ليست مجرد الرغبة في الاستقلال عن التبعية، ولكن جعل العلاقات بالعالم ذات أثر إيجابي، سواء بانت لها في يومها منافعها أو كانت واعدة في غدها، أي امتحان صدق ما نملك ومنفعة ما نستورد.

ومن مسؤولية المثقف تخليص نفسه ومجتمعه مما هو فيه من أوهام المعرفة، وحشو الثقافة، وأثقال التقاليد، فهي أحمال تعوق ولا تنفع. غير أن هذا العنصر كان وسيكون دائمًا أشق ما يعرض للناس في رحلتهم ما بين وفاء لفكرة تراثيةٍ موهومة الفائدة وفكرة نافعة غريبة، ولكننا نرى نفعها للمجتمعات الأخرى، وهذا الصراع بين العقل والعاطفة مما يجب على المثقف حسم أمره معه.

يدين الإنسان المعاصر في العالم أجمع للدور الذي قام به المثقفون الغربيون في العصور الحديثة، فللمثقف الغربي دَين كبير في أعناق البشرية، كما أن له جرائم لا تعد ولا تحصى. ولسنا هنا في سياق السلبيات، بل بصدد المواقف الإيجابية التي قدمها لنفسه فاستفاد بها العالم من ورائه. فثقافة التنوير والخروج من الاستبداد السياسي والعلمي والفكري -الذي كانت تفرضه الكنيسة- كانت من المنافع التي كسبتها البشرية على أيدي رجال ضحوا تضحيات عظمى في سبيل تحصيله، فحققوا الكثير من الحرية والعدل والوعي، وهدموا الكثير من الثقافة الطاغوتية، وإن كان الناس بطبيعتهم يهدمون شرًّا وقد يقيمون أحيانًا آخر مكانه.

وثقافتنا مليئة بوجوه مشرقة ممن قاموا بأدوار هائلة في الفكر والسلوك، لولا أنه كان من الصعب -في مراحل كثيرة- أن نسميهم التسمية الحديثة لفوارق الدور، وفوارق المكونات والآلة والمنبر، وإلا فالشافعي قام بدور المثقف في أعلى مجالاته، وهو ما جعل القدماءَ يكثرون من وصفه بما يزيد عن وصف عالم، كمن وصفه بأنه فيلسوف، أو رباني، أو عامل، أو ثائر. وقد قام بدور بارع علميًّا في تأسيسه علم «أصول الفقه»، وبأدوار أخرى خارج المسائل العلمية، كالثورة على العباسيين واعتراض السلطة ونقاشها والاغتراب والنجاح والفشل. وهذا أمر طريف من سيرة الشافعي، فإنه حاول الثورة على العباسيين أولًا قبل العلم، ثم فشل فاتجه إلى المعرفة والفقه، بعكس ذلك عند آخرين، فمن فشل منهم في أن يكون مفكرًا اتجه إلى السياسة، مثل بينيتو موسوليني.

التراكم الفكري لا يقل أثرًا عن التراكم المعرفي العلمي الذي أفاد البشرية كثيرًا في صناعة المنجزات العلمية والحقوقية القانونية الرائعة، التي خدمت الإنسان بأهم ما عرفناه في تاريخه. وإن جنى بعض المثقفين جنايات بشعةً فالمكاسب العظمى لا تقارن بالخسائر الأقل منها. وهذه المكاسب الفكرية الثقافية قامت على أساس متين من جهد مستمر وتضحية عجيبة من المثقفين الغربيين في شتى النواحي، من السياسة والقانون والاقتصاد إلى الأدب والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والنفس. وقد عانى هؤلاء معاناة كبيرة لا تكاد تُتَصور عند البعيدين عن تتبع تاريخ هذا التغيير الكبير في العقول والأوضاع.

وكانت أشد معاناة المثقفين -خصوصًا الفرنسيين- من جهل المجتمع، ومن المواجهات العظيمة مع فساد الحكم واستبداد الكنيسة؛ فكان المثقفون يختفون ويقاومون وينشرون أعمالهم بأسماء رمزية، مثل فولتير وهو الاسم الكتابي لفرانسوا ماري أرديه، وكذا لينين الاسم الكتابي لفلاديمير إليتيش أوليانوف، وجورج أورويل وهو الاسم الكتابي لآرثر بلير، وهكذا فعل كثير من المؤثرين.

فالمثقفون في العصر الحديث أصبحوا من المحركين الكبار للمجتمع، فهم من المغضوب عليهم والمقربين والمنافقين والمساجين والمبعدين والمشاغبين والمصلحين وكتاب السلطان ونقاد الاستبداد، ومنهم الجواسيس والمتآمرون. وقد حقق لهم التطور التقني في الطباعة قفزة في التأثير

العالمي لم يكونوا يتخيلونها، فكانت المطبعة هي السلاح الرهيب الذي وقع في أيديهم. ولعل الأقرب إلى الحق أن الوسيلة هي من صنعت الشخص؛ فالصحافة هي من صنعت المثقف الحديث أو على الأقل ميزته عن غيره، ثم بقية الوسائل اللاحقة، فلما جاءت الصحافة طربوا بها وتخيلوها نعمة الدهر وخير ما وصل إليه الإنسان، كما أشار جورج هيجل ومن بعده أحمد شوقي:

لكل زمان مضى آيةٌ وآية هذا الزمان الصُّحُفْ

وقد تحرّك المثقف في العصور الأخيرة ليكون البديل عن الساحر أو الكاهن أو الشاعر، بل تجاوزت مكانته مكانة الشاعر المتبختر في عصور العرب الأولى.

«لا تبالوا بصولة الملوك في الإفصاح بالحق بين أيديهم،
فليسوا يملكون منكم غير البدن، وأما النفس فلا يد لهم عليها».

إنجيل متى، 10/28

تعريفات

في أحد التعليقات التي ناقشها ألفرد نورث وايتهد[11] وهو يقارن بين الأمريكان والإنجليز، ذكر أن من أبرز ما يميزهم ويفرق بينهم توهمَهم أنهم يتكلمون لغة واحدة؛ ذلك أن اللغة قد تكون في أصلها واحدة، ولكن عندما يستعملها قوم بعيدًا عن غيرهم ممن يتكلمها فإن طريقة الاستخدام تتباعد مع مرور الزمن، ومع تصرف أهل اللغة فيها وكثرة الدخيل تتباعد، حتى لا يكادوا يتفاهمون بها، أو قد لا يعنون المعنى نفسه في اللفظ المشترك، وهذا في زمن قريب جدًّا ولغة مشتركة حديثة، فكيف بالأسبقين.

نجد مثلًا معنى كلمة «عربي» في المشرق العربي وفي المغرب تختلف تمامًا في ذاكرة تلك البلدان وفي الاستعمال الدارج. وكذا كلمة «شيخ»، فهي تخضع للمجتمع الذي يستخدمها، فقطعًا لا يمكن لسكان المغرب والسودان ومصر أن يفهموا منها فهم سكان لبنان الذين يسمّون صاحب المكانة الاجتماعية -ولو كان مسيحيًّا- «شيخًا»، فهو في مناطق أخرى وصف إسلامي ديني، ويحدث التحول التدريجي للمعنى من مكان إلى آخر، وأحيانًا يختلف في المدينة الواحدة وبين جيلين في مكان واحد.

ثقافة

يبدو أن هذه الكلمة بدأت تتحول معانيها من وقت إلى آخر في مجتمعنا العربي، وتصبح ذات أحوال وتاريخ مختلف، فكانت تعني في بداية استخدامها الحديث المعرفة والذكاء، إذ المثقف هو العارف الذكي. ثم مع تزايد الصلة بالثقافة الأنجلوسكسونية وتحديثاتها على المعاني أصبحنا نقترب من طريقتهم في استخدام كلمة «كلتشر» (Culture) التي ترجمناها إلى «ثقافة». وتوسع المعنى ليشمل العادات والأعراف والتقاليد، وما يرشح في الذهن والسلوك من بقايا هذه المعارف وآثارها؛ فأصبحت ثقافة مجتمع ما تعني مجموع الرموز التي يتعامل بها وتؤثر في تكوينه ونظرته إلى ما حوله، وأول هذه الرموز المؤثرة هي اللغة والدِّين، ونُظُم المجتمع من زواج واقتصاد وفن، وطرق التعبير عن هذه الجوانب والتأثر بها[12].

كاتب

تعني في الثقافة العربية كُتّاب الأدب كالرواية[13]، وأحيانًا كُتاب الأعمدة الصحافية والرأي. وبحكم سيولة الألفاظ عندنا فإننا قد نُدخل الصحافي تحت مسمى «كاتب»، بينما نجدها غالبًا تعني في الإنكليزية الكاتب المبدع، وكثيرًا ما ينصب وصفها على الروائي ومبدع الآداب. ويرى إدوارد سعيد اشتباك وصف «كاتب» (رايتر) مع «مثقف» (إنتلكتشول) في الثقافة الأمريكية.

مثقف

تعني صاحب المعلومات المساهم في الرأي في القضايا العامة. وهو معنى موجود في غير العربية للمرادف (Intellectual)، وفي تعريف مصلحة أو وكالة الاستخبارات (Intelligence

service)، وكلمة (intelligent) (= ذكي) تشير إلى عمليات الذكاء أو صنف من الناس هم الأذكياء. وأعمال الأذكياء هذه -أو من يسمّون «إنتلكتشول» أي من يقومون بجهود فكرية- أحيانًا تكون بعيدة عن الدين والسياسة، أو على الأقل لا تلتزم بسياقاتها المعتادة، وقد تأخذ سياقًا ينمُّ عن السلبية، كما في لفظة «إنتلكتشوالزم» (intellectualism) أو «الثقافوية». والمثقف يختلف عن المهني والمتخصص أو العالم، فلكل من هؤلاء تعريفه الخاص به، غير أن المثقف يدخل على هذه العلوم أو بعضها، وقد يكون في الوقت نفسه عالمًا أو متخصصًا، ولكنه يعمل في المحيط العام منتجًا أو مروّجًا للأيديولوجيا والثقافة[14]، أو يسخّر تخصصه وعلمه لقضايا عامة. ويزعم رسل جاكوبي أنه هو من سكّ مصطلح «المثقف العام»، أو أنه هو أول من أدخله حيز الاستعمال ونشره[15].

مفكر

وهو ذو العمق المعرفي والرؤية المستبصرة في مبادرات فكرية رائدة لمواقف شمولية، مشفوعة بأسباب مقنعة تقدّم الأدلة على صحتها، بحيث تتضح أصالة رأي صاحبها فيما ذهب إليه، وقد يأتي من أي حقول المعرفة الإنسانية أو العملية.

فيلسوف

الكلمة قديمة في العربية قدم الاتصال بالثقافة اليونانية، ومنها أخذت التسمية ثم انتشرت في اللغة العربية، ومرات نجدهم يسمونه المعلم والحكيم. والفلسفة في أصلها تأمل بشري منبعه بحث الإنسان حيث كان عن إجابة عن أسئلته الكبرى، وهي منتشرة بهذا المعنى عالميًّا، ولكننا هنا بصدد ما أصبح يُعرف بعلم أو فن الفلسفة والتفلسف؛ لأن الفلسفة لم تكن يومًا من الأيام علمًا دقيقًا منضبطًا، وبقيت في عصرنا الحاضر تعاني ذلك، علمًا أنها ساعدت عبر تطورها في تمييز العلوم الأخرى وانفصالها عنها[16]. ولكن بقيت صعوبة تحديدها تلاحق حامليها، أي من هو الفيلسوف وما الذي يميزه عن غيره؟ غالبًا ما يكون الفيلسوف ذلك الذي استطاع صياغة أفكار ومفاهيم تفسر وتوجه سياقات كبرى مؤثرة في حياة الإنسان. ويكون المفكر جزئيًّا بالنسبة إليه، فالمفكر هو من عالج قضية أو قضايا كبرى، وأنتج أو صاغ لها فهمًا أو توجيهًا، وإن لم تكن لديه رؤية أو نظام معرفي متكامل.

ويرى عبد الوهاب المسيري أن «صاحب الفكر هو إنسان قد طوّر منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بقدر من الترابط والاتساق الداخلي؛ فهي تعبير عن [قلقه وآماله]، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد: رؤية واحدة للكون»[17].

ولأن صفة الفيلسوف أيضًا تخضع للأشخاص والظروف والأزمنة؛ فقد اقتنع بعضهم بوجود فلسفات في البلدان لا تتأثر فقط بمطالب الناس المختلفة، ولكن يؤثر فيها أيضًا المناخ والأعراق والتجارب وبقية ظروف الحياة[18]. ولذلك فإن حَمَلة وصف فيلسوف يصعب تحديدهم وتعريفهم. فمثلًا وُصف الإمام الشافعي مبكرًا بأنه كان فيلسوفًا في العربية والفقه والتفسير، واستقر وصفه بالإمام لأنهم يرون أن وصفه بفيلسوف يضع من قدره. ثم انتشرت التسمية وكان العرب مقدرين

مكانة اللقب، فما كانوا يمنحونه إلا لكبار الفلاسفة منهم وهم ندرة. ثم كانت الفلسفة كما يرونها ملجأ لمن ضعف دينه أو وقف محادًّا للدين. وكذا كانت في الغرب، ففي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي تصاعد الكلام والترويج للفلسفة في أوروبا، ولم يختلف الموقف منها عن مواقف المسلمين. ويعبّر أحدهم عن ذلك بقوله: «الفلسفة كما يسرّ الكفرَ في الفترة الأخيرة أن يسمي نفسه»[19]. وكثيرًا ما يصاب قراء الفلسفة في بداياتهم -أو عند كونهم ضعافًا في قدراتهم- بالاضطراب، فيقول العرب: «شبر من الفلسفة كفر»، وفي الغرب يسمون صاحب الموقف المذعن له أو الملتزم به «يتخذ موقفًا فلسفيًّا من...».

ما هي الثقافة؟

الثقف والثقافة في اللغة العربية قد تأتي بمعنى الرؤية. قال تعالى: «فإما تثقفنهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم» (الأنفال، 57). ومنه قول عمرو الهذلي:

فإما تثقفوني فاقتلوني وإن أثقف فسوف ترون بالي

أو بمعنى الحذق في التعامل مع الشيء، أو الرؤية عن بعد بسبب حدة النظر. ويُمدح الرجل بأنه «ثقِف»، فقد مُدح عبد الله بن أبي بكر الصديق -الذي كان يزود الرسول صلى الله عليه وسلم وأباه في الغار عند بدء رحلة هجرتهما- بأنه كان «شابًّا ثَقِفًا لقِنًا»[20]. ومَدح ابنُ العربي أبا موسى الأشعري بقوله: «كان تقيًّا ثِقِفًا»[21]. وجاءت بمعنى التهذيب والتشذيب، فتثقيف الرماح تسويتها وتقويم اعوجاجها، وفي قصيدة عدي بن الرقاع يبين كيف يثقف قصيدته كما يثقف رمحه أو يقوّمه:

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها

نظر المُثقّف في كعوب قناته حتى يقيم ثِقافُه مُنآدها

وعلمت حتى ما أسائل واحدًا عن علم واحدة لكي أزدادها[1]

[22]ويقال: رمح مُثقَّف أي مقوَّم ومستقيم على خير إتقان وصنعة، ومنه الرمح المثقَّف الذي قُوِّم أحسن تقويم، كما في قول أبي العطاء السندي:

ذكرتكِ والخَطيُّ يخطِر بيننا وقد نهِلت منا المثقَّفةُ السُّمْرُ[2]

[23]ومنه قول عبيد بن الأبرص:

وذوي الجياد الجرد والأ سـل المثـقفة المقامة

وثقف الشيء أمسك به، أو التزمه، أو ظفر به. وفي القرآن آيات كثيرة تشير إلى معنى الوجود والظفر، منها: «ضُربت عليهم الذلةُ أينما ثُقفوا» (آل عمران، 112)، و«إن يَثْقفوكم يكونوا لكم أعداء» (الممتحنة، 2). وعند ابن السكيت: «رجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ إذا كان ضابطًا لما يحويه قائمًا به». ومنه ثقف بمعنى «سريع الفهم لما يُرمى إليه من كلام باللسان، وسريع الأخذ لما يرمى إليه باليد»[24]. وشخص ثقف أي نبيه مُجيد لما يتولاه. ويقال: «رجل ثقف لقف إذا كان محكِمًا لما يتناوله من الأمور».

ومن أجمل الأبيات التي ربطت الثقافة بالتنبه والوعي واليقظة قول ابن هانئ الأندلسي:

يجلو له الغيبَ المستَّرَ هاجسٌ ثَقِفُ النباهة ظنه كيقينه[1]

[25]ورجل مستقيم أو مثقف، بمعنى مهذَّب[26]. وثقِف الشيءَ تأتي بمعنى أمسك به. وقد أدركت العامة وهم يفهمون من تصاريف كلمة «ثقف» التيقظ والنباهة، وخطف الخصم أو القضية أو الحديث بسرعة وحذق[27]. كما يرون في الثِّقِف أنه هو من يُسرع في القبض على إنسان أو شيء، وقد تكون مهارة أو معرفة أو فكرة تحتاج إلى نباهة.

أما معناها المستخدم حديثًا فليس بعيدًا عن الأصل، فقد ورد في استخدام وصف «الثّقِف» بأنه الرامي والراوي، والحاذق والفطن، والمتقن وثابت المعرفة فيما يحتاج إليه[28]. ولعل أقرب وصف مضادّ للمثقف هو من يسمونه «الهَدَانُ»، ومنه: «وثقفت تثقيف امرئ لم يهدنِ»، أي لم يخدع. والهدان يُستخدم أحيانًا لوصف الغافل السخيف. قال رؤبة:

قد يجمع المالَ الهدانُ الجافي من غير ما عقل ولا اصطراف

ومنه التسكين والترضية والساكن الهادئ الراضي، وربما الخامل البرطيل[29].

وقد وضع أحد الذين استقصوا تعريفات الثقافة (164) تعريفًا، ومن هذه التعريفات: «الثقافة تلك الوحدة الكلية المعقدة التي تشمل المعرفة والإيمان والفن والأخلاق والقانون والعادات، إضافة إلى قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع». وهي بهذا التعريف شيء يصعب أن يمتلكه الإنسان، فالثقافة تجريد مأخوذ من السلوك والمعارف وليست أحدهما[30]. وعند محمود شاكر أن «ثقافة كل شعب هي تراثه البعيد الجذور في تاريخه المنحدر مع أجياله، ينقله خلَف عن سلَف، وهذا التراث مكون من أفكار ومبادئ يحملها أفراد الشعب -على اختلاف طبقاتهم وطبائعهم- في زمن ما من حياتهم، ومن تطبيق هذه الأفكار والمبادئ حتى تصبح أسلوبًا لحياة المجتمع المكون من هؤلاء الأفراد»[31].

أما في الثقافة الغربية فقد تصدى لتعريف مصطلح ثقافة الكاتب الشهير ريموند وليمز، مبينًا الصعوبة الكبرى في تعريف هذا المصطلح، فقال: «إن كلمة ثقافة (culture) من [بين] اثنتين أو ثلاث كلمات هي الأعقد في اللغة الإنكليزية، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى تطورها في التاريخ الشائك في عدة لغات أوروبية»[32]. وكذا نقل عن الفيلسوف الألماني يوهان هردر قوله: «لا شيء أكثر غموضًا من هذه الكلمة، ولا شيء أكثر تضليلًا من استعمالها لكل الأمم والفترات»[33].

وقد جاء من معانيها الحراثة والعناية، ورعاية الحيوانات والنباتات، والعناية بالنمو الطبيعي. وفي عموم استعمالاتها كان معناها العناية بشيء ما مثل المحاصيل والحيوانات. واستُخدمت أحيانًا بمعنى شفرة المحراث أو سِنّه. وتطورت إلى رعاية العقول وإخصابها وتطوير مداركها، وهذا من تحويل المعنى من موضوع خاص إلى عام، وهو شبيه لما حدث للفظ العربي «ثقف» وتصاريفه في مراحل متعددة. ويشير وليمز إلى أن لفظ «الثقافة» في الفرنسية كان حتى القرن التاسع عشر يعني «التهذيب». كما أن الثقافة في تعريفها اتجهت إلى المعاني الإنسانية، والحضارة اتجهت إلى المعاني المادية والصناعية. وهذا حدث بوضوح في التعريف الألماني حين فرق بين معنى الحضارة ومعنى الثقافة، علمًا أن الاستخدام الألماني كان بتأثير اللغة الفرنسية أكثر من غيره[34].

والثقافة تعني في الإنكليزية معاني عديدة، منها: الحرث والزرع والاستنبات والتخصيب، وما أشبه ذلك. ويدّعي سلامة موسى أنه أول من ترجم كلمة (kultur) الألمانية إلى كلمة «ثقافة»

العربية، وأنها أقرب إلى التعريف الألماني الذي يعني «المعارف المعنوية العالية»، وأن الكلمة الأخرى (civilization) أي «الحضارة» تعني المنجز المادي.

ونجد أن تعريف «الثقافة» السائد في المنطقة الأنجلوسكسونية (أمريكا وبريطانيا)، هو ما يشير إليه رسل جاكوبي بتعريفه لها بأنها: «كل مركّب يشمل المعرفة والفن والقانون والأخلاق والممارسات، وأي إمكانات أو عادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع»[35].

وقد ذكر محمود شاكر عن الشاعر الناقد إليوت قوله إن الثقافة في جوهرها تجسيد لدين الشعب، وأن السير إلى الإيمان الديني عن طريق الاجتذاب الثقافي ظاهرة طبيعية مقبولة. وأيده في ذلك بقوله إن تعبيره صحيح في جوهره[36]. وعند إليوت أيضًا أنها «طريقة حياة شعب محدد يعيشون في مكان محدد»[37]. فالثقافة هي مظهر خصوصية أي أمة من الأمم، وهي التي تعطي الحياة معناها وقيمتها للفرد وللمجتمع، ووفق هذه المعاني التي تمنحها الثقافة يتعامل الناس. وقد نخص الثقافة بنوع معين منها فنقول «ثقافة إعلامية» مثلًا، ونفترض في من يهتم بثقافة الإعلام أن يعرف المموِّل للوسيلة الإعلامية، ويعرف رسالة هذه الوسيلة المطلوب إبلاغها، ويعرف المرسَل إليه أو المستهلك، وغاية هذه الرسالة.

والثقافة هي أيضًا ما يعطينا روحًا جماعية في المواقف والأفكار. ويقرر مالك بن نبي أنها التي توحي إلينا أن ننشد أحيانًا بشكل جماعي، «وأن نرقص مجتمعين ونضحك مجتمعين، والأداء الحسن لذلك كله ظاهرة مشجعة وجمالية ينبغي عدم الاستخفاف بها، ولكن دورها الأساسي أن تعلمنا العيش المشترك، والعمل المشترك، وخاصة الكفاح المشترك، هذه هي وظيفة الثقافة الاجتماعية الأساسية»[38]. ويعرفها أحدهم بأنها «ذلك الذي نحتفظ به حينما ننسى ما تعلمناه»[39].

وتعريف الثقافة بأنها «رؤية وتطلّع إلى المدى البعيد» تطلّع قد يكون إلى حالة راقية إن تمتع بها الإنسان، وإن رافقت الرؤية معرفة وإرادة كانت حاسمة في مصائر الشعوب، بل إن الرؤية المتطلّعة قد تساعد في صنع وسائلها، ولهذا كان التطلّع للمدى الأبعد ميزة الإنسان الطموح المقتحِم، خلافًا لقاصر الرؤية ضعيف النظر.

وقد راقب أحد المؤرخين أفكار الشعوب الضعيفة تعليميًّا ومهاريًّا فوجد أنها شعوب منطوية تنظر إلى داخلها ولا ترى بعيدًا. فالأفارقة كما يقول أحد المؤرخين: «يتطلعون إلى دواخلهم ويفتقرون إلى همة التوسع»[40]. وهناك ملاحظات تسوقها شعوب عن شعوب، ويلقيها مثقفون عن غيرهم من مثقفين وبلدان أخرى، ولا تخلو أحيانًا من الصحة بقطع النظر عن دوافعها. ثمة مقولة لليوبولد سنغور الشاعر والسياسي السنغالي: «القلب إفريقي والعقل إغريقي». ومما أورده أبو حيان التوحيدي في **المقابسات** نقلًا عن شيخه أبي سليمان السجستاني المنطقي أنه قال: «سمعته يقول: نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين»[41]. والأوْلى ألّا نفهم هذا القول فهمًا عنصريًّا، بل هناك استعداد بشري عام، ولكن التربية والمكان والظروف تصنع الكثير في عقل الإنسان وتصرفه. والتطلع إلى الداخل ليس بالضرورة عيبًا، لكن العدواني المتعدي يسخر منه فيرى الاكتفاء عيبًا ونتيجة لتربية الانطواء، والعدوان أو الانطواء نتيجة لمنظومة تعليمية وسلوك موروث، وكذا الوحدة غالبًا ما تكون نتيجة ألم أو حزن عميق[42]. وكذا الخوف وعُقَد النقص، فهي أمور قابلة للغرس وللإزالة من أي مجتمع، وكذا عُقَد التسامي المغالية، فكلا طرفي الموقف يُنتج ثقافة مكبّلة وضعيفة في حسها الإنساني وفعاليتها، فلا يكون

الإنسان سويًّا وهو مكبَّل بعُقَد النقص، ولا بعُقَد الغرور وأوهام الكمال والتسامي على الآخرين التي تبذر الانطوائية.

الثقافة -بحسب التعريف الذي يميل إلى جعل نمط الحياة المحلي جزءًا منها- لا بد أن يوسع من أثر المحلي ودوره فيها، ويُعترف بالمفهوم الموضعي للثقافة بمراعاة هذه المحلية عند دراستها أو عند الموقف منها، والمثقف الذي يتجاهلها يصبح غريبًا عنها. وقد يصعب علينا أن نتابع في نص قصير -بل في حياة الفرد- تقييمَ لماذا كانت هذه الثقافة هكذا وكانت الأخرى مختلفة عنها؛ لأن المعارف البعيدة والتجارب والمعلومات ونمط التلقي وتفسير الحياة تختلف من مجتمع إلى آخر، لكنّ هناك قيمًا عليا منتشرة ومرعية عند غالب البشر -هي ما نحتاج إلى المطالبة بالاجتماع عليه- كقيم العدل والحرية، وهناك قيم وآراء وتراث محلي أو مرتبط بالمكان أو الدين أو التاريخ فلا نضيع الأعمار للإقناع به.

فللعرب مثلًا نمط وتعامل في مسألة الكرم يبالغون فيه أحيانًا، على غير عادة الإنجليز والفرس. وبعض الشعوب عندهم مبدأ التقشف في الاستهلاك وفي اللباس والطعام وما أشبه، فليس كل هذا لأن الإسلام حث على الكرم أو حارب الإسراف. وهذا حال المصلح المسيحي جون كالفن الذي كان من البروتستانت المحتجين على البابوية؛ فقد ألحّ على التقشف والزهد والمبالغة في حفظ المال، وليس هذا فقط لسبب متعلق بالدين وإنما كان للبيئة دورها الحاسم في القضية. وخطر موت العربي في الصحراء أو أثناء تنقله وربما ضياعه كان يقتضي الترويج لأخلاق الرعاية وكرم الضيافة، وألّا تقلّ مدتها عن ثلاثة أيام بحسب الحاجة. أما خصاصة الإنجليزي وإقلاله فلها عروق في البيئة تتجاوز تدينه. وقد تحوّل بخل الإنكليزي إلى أنانية منطوية، وكرم العربي تحول إلى مبالغة ومفاخرة مسرفة.

كذلك الموقع الجغرافي على الأرض والطقس يؤثران في الثقافة، فالحر والبرد والمطر والشمس والصحراء والطين تصنع ثقافة مَن فوقها ومَن تحتها بحسب صلته بها، وشواهد الاستعمالات اللغوية واضحة. وكذا التحفظ والتبذل والغيرة والتهاون في موارد الرزق متصلة بالثقافة، وكذا الحيوانات المقتناة[43] والطعام. وهذه مجالات مفارقة بين الشعوب وتعدد جميل محبب للنفوس لمن راعى هذه الفوارق.

والثقافة -مع كل ذلك- لا تنتشر، أو كما يرى بعضهم لا تتحقق، إلا بتواصل جاد مستمر ومتنوع، وحوار شفهي وكتابي دائب، وكأن ما قد يراه بعضهم ثقافة لا ينطبق عليه تعريف «ثقافة» إن كانت بلا تفاعل ولا تواصل.

وكما يرى مالك بن نبي، فإن الثقافة هي «التعبير الحسي عن علاقة الفرد بهذا العالم، أي بالمجال الروحي الذي ينمّي فيه وجوده النفسي، فهي نتيجة هذا الاتصال بذلك المناخ؛ فالفرد إذا فقد صلته بالمجال المادي قررنا أنه مات موتًا ماديًّا، وكذلك الأمر إذا فقد صلته بالمجال الثقافي فإنه يموت موتًا ثقافيًّا. فالثقافة إذن هي حياة المجتمع، وبدونها يكون مجتمعًا ميتًا»[44]. وفي مكان آخر يرى أن الحضارة أشمل من الثقافة، فيقول: «ويمكن تعريف الحضارة في الواقع بأنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره»[45].

وظيفة الثقافة

للثقافة دور هائل في حياة البشر، إذ يرى الشيخ سلمان العودة أن «الثقافة هي المعلومات والمعارف المنتجة للسلوك الفردي والجماعي»[46]. فهي تصنع أفكار الناس وتساهم في صنع ولائهم وعدائهم، وحبهم وكرههم، وسعادتهم وشقائهم، وتؤثر في مجمل سلوكهم ومواقفهم، حتى لَيكاد يكون من الصعب أن نختزل للثقافة وظائف في حياة الإنسان؛ لأن لها وظيفة واحدة وهي ما يميزه بأنه إنسان، وبدونها نجد كيانًا ماديًّا متوحشًا. وإن من المناسب هنا أن نعرض أقوالًا لمن يفصّل في هذا الدور، وينهي الغبش الكبير المحيط به. يرى المفكر المعروف علي مزروعي أن للثقافة سبع وظائف يمكن تلخيصها في ما يلي[47]:

1- الثقافة تقدّم منظورًا للتصور والإدراك، إذ إن الطريقة التي ينظر بها الناس إلى العالم مرهونة بما تعرضوا له من إطار ثقافي. ويمثّل بشخصيات غربية وشرقية لا تنظر إلى العالم من خلال ما نشاهده، بل هي متأثرة بأفكارها التي كونتها عن العالم، وبالمعلومات التي تلقتها منحدرة إليها من مواقف ومعلومات وسلوك تراكم عبر القرون.

2- الثقافة تقدّم دوافع للسلوك البشري بحيث يكون مفهومًا في ثقافة وغير مفهوم في ثقافة أخرى بسبب غياب هذه الدوافع. ومثّل لذلك بدافع الاستشهاد عند المسلمين الذي قد لا يفهمه ثقافيًّا آخرون. ويمكن أن نتذكر موضوع الغيرة عند العرب وغالب المسلمين، وأعراف القبائل وعادات الأسَر.

3- تقدّم الثقافة معايير للتقييم، فبسبب المواقف الراسخة مثلًا في الغرب ضد المسلمين فإنهم يستنكرون عليهم أي عمل لتحرير فلسطين، فهي عند المسيحيين الغربيين أرض اليهود، ويقفزون ألفيْ عام لبعث التاريخ التوراتي، ولكنهم في الآن ذاته لا يرون الفلسطيني يهجر من داره ومزرعته ويقتل، بل يجرّمون عمل الفلسطيني لتحرير أرضه ويرونه إرهابًا، ولا يرون إرهاب الصهيوني إرهابًا؛ بسبب معيارية صنعتها ثقافة ما في عقولهم وقلوبهم[48]. فمناضل الحرية في ثقافة إرهابي في ثقافة أخرى، ولذا نرى البطل في ثقافة شريرًا في ثقافة أخرى.

4- الثقافة تقدم أساسًا للهوية، وتصنع للفرد التعريف بنفسه أو بهويته في مقابل هويات أخرى. وليس المقصود هنا الأساس العرقي ولكن الثقافي، فاللون مثلًا ليس أساسًا للاتفاق بين الناس رغم تعاطفهم أحيانًا بسببه، لكن الموقف الثقافي يبعد لونًا عن لون وفردًا عن فرد أو يقربه.

5- الثقافة تصنع صيغة للتواصل كاللغة، وقد وجدنا أن اللغة من أسباب التواصل حال اتفاقها، وهي أيضًا من أسباب القطيعة بين الشعوب. وقد سعت الحكومات التي استعمرت شعوبًا في قارات عديدة إلى ترسيخ لغتها، لما لهذه اللغة من آثار واسعة في حياة الناس[49].

6- الثقافة تَصنع أساسًا للترتيب الطبقي، فالرتبة والمكانة في عدد من المجتمعات مرتبطة بإجادة ثقافة وتواصل لغوي يتيحان التقارب مع المستعمر ولغته، فالمجتمعات الإفريقية الحديثة ترتبط مكانة الفرد فيها بصلته بلغة وثقافة غربية، وعبرها يجد مكانه صاعدًا في السلّم الاجتماعي[50].

7- الوظيفة السابعة للثقافة تأثيرها في نظام الإنتاج والاستهلاك. ولعل من المناسب أن ننقل هذا المثال لما يحدث في أنماط أقرب إلى مجتمعاتنا مما حاول علي مزروعي شرحه. فمثلًا نمط الاستهلاك الأمريكي والرفاهية تؤثر في إنتاج النفط في مناطق وجوده واقتصادها وسياستها. ومثال آخر أثر ثقافة النرويج الكالفينية في التعامل مع ثروة النفط (وربما يكون النمط الثقافي بدول شمالي أوروبا له علاقة بالمناخ)؛ فقد أنتجت نمطًا اقتصاديًّا جديدًا وبديلًا من خلال التوفير. ولو نظرنا إلى رؤية العرب الاستهلاكية للنفط لرأينا أن ثقافة الإغراق في الاستهلاك والتكارم والبذخ ساعدت أو أسست -بجانب عُقَد ثقافية أخرى- أزمات اقتصادية، وقضت على فرص النمو والاستدامة الاقتصادية.

من هو المثقف؟[51]

تتعدد التعريفات تعدد المداخل وزوايا النظر، وإن تقاطعت في مجملها فهناك من يعرّف المثقف بأنه «من يتمتع بحساسية فذة للقداسة وللتواصل مع الناس والأفكار والرموز والتساؤل والبحث، ويقدر على تجسيد[52] هذه المعاني في كلام شفهي أو مكتوب، أو بطريقة أخرى كالعبادة والفنون التشكيلية، والكتابات الأدبية والتاريخية، ولديه القدرة على تجاوز الخبرة العملية الواقعية، وهذا ما يميز المثقف»[53].

وحسب ليبست، فإن المثقف هو «من يبدع ويوزع ويمارس الثقافة، أي العمل الرمزي الخاص بالإنسانية والذي يتضمن الفن والعلم والدين»[54].

وفي بعض كتابات ريمون آرون[55] أنه من تكوّنت لديه ثقافة واسعة ومقدرة فكرية. وعند كوزر أن المثقفين هم الأفراد «الذين يُعنَون بالقيم المركزية في المجتمع»[56]، ويذكر منهم الكهنة والأنبياء والرهبان والمتعلمين، وأنهم المعنيون بالدرجة الأولى بالبحث عن الحقيقة وبالاحتفاظ بها، وبالقيم الجمعية المقدسة التي تتحكم في الجماعة وفي أي مجتمع أو حضارة. أما إدخال الأنبياء في هذا فهو طريقة من لا يؤمن بوجود النبوة أصلًا، ولذا يراهم تشومسكي في بعض كتاباته مصلحين أو مثقفين معترضين. وهناك من عرّف المثقفين بأنهم «محترفو الكلام والكتابة والاستبطان والتحليل والعمل العقلي وأسرار السلطات والنخب الثقافية»[57].

أما ماكس فيبر فيرى أن المثقف هو من يحمل صفات ثقافية وعقلانية متميزة، تؤهله للنفاذ في المجتمع والتأثير فيه بفضل المنجزات القيمية الكبرى. ويذهب شيلز إلى تعريف المثقف بكونه المتعلم الذي يمتلك طموحًا سياسيًّا للوصول إلى مركز صنع القرار السياسي، أو التأثير -من خلال دوره المحوري الحاسم في توجيه المجتمع- في القرارات السياسية المهمة التي تؤثر في المجتمع ككل. وميزة هذا المثقف قدرته العالية على استخدام رموز ودلالات ومفاهيم لغوية عالية، ومتصلة مباشرة بالإنسان والكون والفرد والمجتمع. ويرى هشام شرابي أن المثقف هو الشخص الملتزم الواعي اجتماعيًّا، بحيث يكون في مقدوره رؤية المجتمع والوقوف على مشاكله وخصائصه وملامحه، وما يتبع ذلك من دور اجتماعي فاعل من المفروض أن يقوم به لتصحيح مسارات مجتمعية خاطئة.

ويحاول برهان غليون أن يعيد صياغة تعريف غرامشي للمثقف العضوي، فيذهب إلى أن «المثقف هو من ينتمي إلى طبقة اجتماعية فاعلة في المجتمع، بحيث تتميز عن غيرها بتفكيرها العالي والناقد، وتدخل في عملية الصراع الاجتماعي والسياسي، أو من خلال أعمال فكرية كبيرة تؤثر في الناس والمجتمع فكريًّا وثقافيًّا ومعنويًّا»[58].

يرى إدوارد سعيد أن المثقف هو منتج الثقافة، مثل الصحافي وكُتاب أصناف الأدب، والإعلاميين عمومًا، ومعلقي الرياضة، والمحامين والإداريين، ومتخصصي الكومبيوتر والقانون والسياسة والاجتماع والخبرات العسكرية، وأن كل من يعمل اليوم في أي حقل مرتبط بإنتاج المعرفة أو نشرها فهو مثقف بالمعنى الذي حدده غرامشي[59]. ويوضح إدوارد سعيد في تعريفه الخاص أنه «فرد له في المجتمع دور علني محدد لا يمكن تصغيره إلى مجرد مِهني لا وجه له... (هو) من وُهب ملكة عقلية لتوضيح رسالة أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفة أو رأي أو تجسيد أيٍّ من هذه، أو تبيانها بألفاظ واضحة لجمهور ما، وأيضًا نيابة عنه»[60].

والمثقف عند بعضهم هو من جمع بين المعرفة والموقف السياسي الذي يشارك فيه عامة المجتمع، فهو من يغلب على عمله الاهتمام العقلي، وهو منشئ للأفكار أو دارس لها، أو له رسالة يؤديها من خلال اهتمامه بالأفكار. وكثيرًا ما يكون من ذوي الاهتمامات المجتمعية العامة وليست المتخصصة، وينشر ويتابع تلك الأفكار في القضايا العامة لمجتمعه، والتي قد يكون منبعها مذهبيات وبنى فكرية أو نظريات أو تعليقات على الحوادث اليومية. وقد يكون مولعًا بالأفكار أو لا يكون، وغالبًا ما يكون قارئًا أو «كُتُبيًّا». وليس كل كُتبي مثقفًا ولكن كل مثقف كُتبي؛ لأن جمع الكتب ومتابعتها وتتبع أخبارها هواية، وقد لا تدل على ثقافة ولا تنتج مثقفًا. فالمثقف هو من يعبر عن نفسه ويتواصل مع العموم في الشؤون العامة، وأحيانًا نجد منهم من يقلّ اهتمامه بالحقائق والمعلومات ونجده سريعًا إلى التوقعات[61].

ومن ثمّ، فالمثقف هو المتعلم المستهلِك لبعض منتجات الثقافة، المهتم بالشأن العام المعرفي أو الفني أو الأخلاقي أو التشريعي، وهو متابع ومنجِز لاهتماماته عبر منبر من منابر البلاغ العام، يقول ما يراه حقًّا ويكشف ما يراه خطأ، ولديه رؤية للمستقبل، أو يؤمن برؤية ويحاول الإقناع بها.

والخلاصة أن المثقف هو من عنده موقف ينشره مؤسس على معرفة ورؤية. ولما نشرتُ مرة هذا التعريف وجدت اعتراضات عديدة، منها أنه مبالغ في شأن المثقف، فأنت هنا بصدد الحديث عن حكيم أو مفكر. فليكن هذا هو المطلوب من المثقف، والثقافة عمل لتكوين هذا المطلوب، وبلا شك قد نقبل بأقلّ من هذا التعريف كما قبلنا بوصف قاضٍ لمن هو دون هذا الوصف غالبًا.

إن المثقف -مهما كان وقوفنا عند شكل خطابه وجمال فنه إن كان فنانًا من أي نوع- سيبقى سعيه لمصلحة أخيه الإنسان نَمُوذَجًا عاليًا يقتفيه كل كاتب ومثقف محترم، وسينسى الناس كثيرًا من النواحي الجمالية والشخصية، بل ربما ينسون هل كان سياسيًّا أو أديبًا شاعرًا أو روائيًّا، ويبقى منه الموقف من مصالح الناس ومآسيهم، والموقف ممن أضر بهم أو نفعهم. وهكذا نجد كاتبًا مسرحيًّا مثل آرثر ميلر يمجد تشيكوف بسبب اهتمامه بالإنسان، وسعيه لمصالحه والبحث عن مآسيه، ويستسخف بالكُتاب الذين أجادوا الفن وأهملوا موضوع مساهمة المثقف في صنع عالم مريح لنفسه وللبشرية، وهذا لن يكون إلا برؤية وتضحية وصدق ورسالية يتحملها صاحب الموهبة لبقية البشر، ويضمّنها رسالته الثقافية أو الفنية من أي نوع.

يحتاج المثقف إلى نهج وعيٍ لعالمه وهدف يوجه به نفسه وما حوله؛ لأن «الحياة الشعورية الواعية إذا افتقرت إلى فلسفة واضحة ومحددة المعالم لا تُعدّ حياة على الإطلاق، بل إنها تصبح عبثًا وكابوسًا على كاهل الفرد»[62].

والثقافة بطبيعتها تخترق كل الطبقات المجتمعية، بحسب عشاق تصنيف أو تطبيق كل مجتمع إلى طبقات، فيلجها أبناء أي طبقة ويخرج منها أبناء أي طبقة، فهي حالة تتجلى فيها العدالة الإلهية. أما التصنع فمهما غُلّف فإن مداه قصير، ومهما تعلق بالثقافة غير المؤهل لها فهو ليس من أهلها، سواء وجد من يساعده فيكتب له، أو يشتري له الشهادات والمواقع في مؤسساتها؛ لأنها معرفة وبراعة ورأي. ولكن من عيوب الثقافة أن مجتمع الدكتاتورية يحرم أهلها من الظهور على حقيقتهم فيها، ويلحق بها غير المؤهلين، ولكنهم يبقون غرباء فيها ومتطفلين على فئة ليسوا منها، وهذا ما يجعل بعض الحكومات تشهد -رغم قوتها السكانية أو المالية- انهيارات ثقافية كبيرة، بل شبه غياب ثقافي، بسبب تحكم أو دكتاتورية أو عنصرية أو فساد من يتحكم في إسناد المؤسسات الثقافية إلى غير أهلها، ويمنع المثقفين من المشاركة ويكبتهم، أو يحدد قسريًّا نوع الفكر والثقافة القابلة للتداول. وهنا تفشل السلطة ويفشل المثقفون ويلجؤون إلى الصمت أو النفاق أو الاحتجاج السري أو الهجرة.

كما أن بعض أهل الثقافة بطبيعتهم يأبون المشاركة والوجود في ميدانها وإن علا تكوينهم وقدراتهم؛ لأنهم لا يحبّون الاستهلاك الاجتماعي لأنفسهم، أو يخشون الضجة، أو عُقَد الشهرة والجماهيرية ومشكلاتها، وهذه المجموعات تنتهي -رغم ثقافتها- إلى الهامشية أو تكون معدومة الأثر، فالثقافة في النهاية فكر وحيوية ومغالبة، وليست معرفة سكونية.

المثقف والتخصص

هناك لبس كبير مصاحب للمصطلح عندنا وعند غيرنا في تمييز المثقف عن المفكر والمتعلم والعالم، وبعضهم يقصد بالمثقف المتعلم المؤثر، حتى وجدنا بول جونسون في كتابه **المثقفون** يصنف فلاسفة مثل ماركس في عداد المثقفين، ووضع أيضًا في قائمة المثقفين جان جاك روسو وجان بول سارتر، ووضع معهم روائيًّا مثل آرثر بلير الذي كتب مؤلفاته تحت اسم جورج أورويل.

وقرأت في كتاب توم بوتومور **النخبة والمجتمع** خلطًا بين مصطلح مثقف ومفكر. يقول مثلًا: «يمكن أن نجد المفكرين في كل المجتمعات تقريبًا، في المجتمعات الأمية بشكل سحرة وكهنة ومغنين متجولين، ورواة سير وأنساب، وإلى آخر ذلك، وفي المجتمعات المتعلمة كفلاسفة وشعراء وكُتاب مسرحية ورسميين ومحامين، لكن وظائفهم وأهميتها الاجتماعية تتفاوت بشكل واضح»[63]. لكن أغلب الباحثين يرون ضرورة التمييز بين المتخصصين في علم من العلوم والمثقفين؛ فالباحث أو العالم قد لا يكون مثقفًا ولا يدخل في هذه الدائرة، فطبيب أو مهندس أو عالم في الشريعة لم يدخل الحلبة، ولم يساهم برأي، ولم يدع إلى فكرة، ولم ينه عن أخرى، ولم يتخذ نهجًا أو موقفًا يقوم به أو يبشر به أو يؤلب له؛ فإنه غالبًا لا يُحسب في المثقفين.

ولنتبين أن هناك خصوصًا وعمومًا في المسألة، أردت توضيح لماذا اخترت مصطلح مثقف.

- للخروج من مسمى العالم المتخصص في أي فرع من العلوم، سواء كانت شرعية أو اقتصادية أو علمًا طبيعيًّا؛ فقد يكون أحدهم عالمًا ويقوم بدور المثقف، وقد لا يقوم بدور المثقف بل يبقى عارفًا بتخصصه ملمًّا بتفصيلاته. وقد كان العالم الذي ينقل اهتماماته إلى الناس وقضاياهم يسمى في ثقافتنا «عالم العامة»، ولا علاقة للوصف بالمستوى؛ فقد يكون المقصود غالبًا «عالم أمة»، أما عالم الخاصة فهو بعيد عن الشؤون العامة، وعلماء كالطبري وابن حزم من علماء الخاصة. فالمثقف يقوم بدور مختلف عما رسخ في الأذهان عن النوعين السابقين من العلماء، فقد لا يكون متخصصًا في علم ولا فن محدد.

- وتركت الحديث عن موضوع «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» بسبب اختزال هذا المصطلح في أذهان بعض الناس، فعند قوم أن المعروف هو المأمور به «حكوميًّا» أو هو المسموح رسميًّا بالأمر به، والمنكر هو المنكر المسموح رسميًّا بإنكاره؛ ولأني أعني هنا رسالة الموقف وأمانته كما يجب لا كما تحددها أي سلطة، ولم أحبذ التوسع في هذا هنا.

- وقصدت خطاب الجماهير الواسعة التي لا تنتمي إلى المدارس والأشكال والهيئات المحددة، بل تبحث عمن هي؟ وما دورها؟ دون أن تحدد مسبقًا أدوارها وقضاياها.

- ثم إن مصطلح المثقف يسمح لنا بلوم المثقف ونقده، بينما نجد أن الآخرين تَحُفّ بهم أحيانًا هالات وأوهام وأساطير وحقائق لا نريد التعريج عليها هنا[64]. ولأن المثقف جلده صفيق، فقد بدأ النقد الشديد عليه منذ زمن، وكان الحديث سائدًا عن «خيانة المثقفين» منذ قرن أو يزيد.

- وللخروج من مسألة المتدين وغير المتدين، فقد يكون المثقف متدينًا وقد لا يكون، إذ يهمنا القيام بدور الإصلاح والرقابة. وقد تأتي من المتدين وغير المتدين ممن توفرت له المعرفة الضرورية أو الموهبة المساندة، كالشاعر أو الروائي أو الصحافي أو الواعظ أو الرسام. ولعل من نماذج الرسامين المؤثرين ناجي العلي؛ فقد كانت رسومه مادة ثقافية مؤثرة سببت له القتل، لكنها ساهمت في توعية ملايين بقضاياهم.

ويهمنا هنا أن هذه الطبقة قامت على أنقاض التعليم الديني الرسمي، وهي المحرك الأكبر للثقافة والآراء والمواقف السياسية والاجتماعية والفكرية في الغرب منذ عصر الأفكار. وقد صعد نجم المثقفين في العالم الإسلامي منذ نهايات القرن التاسع عشر، وفي زماننا أصبحوا الأكثر تأثيرًا والمستقبل لهم. والمثقفون يسخط عليهم القسيس الجامد والشيخ الجامد والسياسي المستبد وغير المستبد، فهم يترصدون أخطاء السياسي. كما أن وجود طبقة تابعة للسلطة من المثقفين لم تلغِ دور المثقف الكبير في المعارضة والملاحظة.

وللمثقفين مهابة ومجد مخيف قرّبهم من السلطة فنافقتهم أو اشترتهم، ومنهم أتباع رخاص لكل متنفذ قوي. ومن المثقفين من يقف على باب السلطان مادحًا أبدًا، ومنهم الناقد أبدًا؛ ولهذا كان كُتَّاب الأحزاب الأمريكية والمروجون لمواقف الحكومة كثيرًا ما يعيّرون الناقدين بأنهم «غاضبون»، أي مجرد موقف ذاتي نفسي لإحراق مواقفهم. والحق أن على المثقف أن يعبر عن موقفه وقناعته، وإن لم يكن الزمان زمانه، ولا زمان فكرته، ولو تألب خصوم قناعته عليه من كل فجّ، فإن خذلان ما يراه حقًّا وصدقًا هو خذلان لنفسه. ومن واقع القديم والحديث أن نجد المثقف إما مع الحق أو يخدم الباطل والزيف، أو يكون شعبويًّا يلتقط موجة المزاج العام في مجتمعه فيروج لها، ويهتبل كل موجة، منتفعًا ومزيفًا، ويصطنع لها مبررات حتى حين لا تنفع أحدًا، بل تضر بالمصالح والحقائق وتخدع الإنسان وترفع الباطل فوق الحق، وهذه من خيانة المثقف لنفسه وعقله ومجتمعه. أما في

المجتمع الحرّ وبيئة المروءة والعقل فإن التزييف يصطدم بالمروءة والعقل والحق، فيوقف أهل المروءة أهل الزيف، ما لم يكن للمثقف الخائف نصيرٌ من مستبد وفاسد ومستغِلّ، وهنا يتنادى النجباء العقلاء وأهل الضمائر والمروءات، ليتخلصوا من منابع الشر التي تدعي وتلبس لباس ثقافة ونصح، وهي حقًّا في الفجور غارقة.

لماذا المثقف؟

هذا الموضوع مطروق الآن في كل مكان، وفي كل الثقافات، حتى إن العنوان الذي وضعته لهذا الكتاب، **مسؤولية المثقف**، هو عنوان كتاب لعلي شريعتي، وأيضًا عنوان مقال شهير لتشومسكي[65]. ويُعدّ كتاب إدوارد سعيد **صور المثقف** من هذا النوع إلى حد كبير، وقبلهما جوليان باندا الذي ألّف **خيانة المثقفين**، وكذلك كتب بول جونسون **المثقفون** فشنّع عليهم، وكتابه قصيدة هجاء للمثقفين العلمانيين منذ صعودهم في القرن الثامن عشر إلى عصرنا. وقد جمع إلى المتابعة السلبية التفصيلية أسلوبًا جميلًا خدم به آراءه المحافظة في هذا الموضوع وغيره من الكتب التاريخية والدينية[66].

والهجوم على المثقفين متكرر كثير وشديد اللهجة والسخرية أحيانًا، وإن كان بعضهم يقصد مرة مثقفي السلطة وطبّاليها، وكذا حمالي طبول الأحزاب المكلفين بالدفاع عن أخطائها، مثل الطبقة التي روّجت للشيوعية وللدكتاتوريات والقوميات المتعصبة في العالم. فجورج أورويل[67] مثلًا يقول: «إن بعض الأفكار هي من الحماقة بمكان بحيث إنه لا يمكن أن يصدقها إلا مثقف»[68]. أو كما يرى بعضهم أن المثقفين مؤثرين ولكنهم عمال أفكار غير موثوقين.

فالذي يمتدح المثقف يعدّه الشخص الذي ينحاز إلى الحقيقة والعدالة، ويناضل ضد الاستبداد والظلم الاجتماعي والتعصب الديني والعرقي واعتداء القوي على الضعيف. وهناك من تنبه من قبل لعيوب المتعلمين والعلماء والمثقفين، وكذلك لدورهم، وخص بعض المشاهير به، مثل **زغل العلم** للذهبي، و**رفع الملام عن الأئمة الأعلام** لابن تيمية، وكتب تراجم الطبقات والتاريخ تكشف المزيد من هذا.

وعندما اخترت الكتابة عن مسؤولية المثقف أردت أن يكون الحديث عن واجباته، وعن الأشياء التي يُسأل عنها حاضرًا في حياته أمام نفسه ثم أمام مجتمعه وضميره، وهي في النهاية مسؤوليته أمام ربه. أما المثقف فأعني به ذلك الإنسان الذي تكوَّن لديه وعي عام نتيجة لاستهلاكه وسائل الثقافة من كتب وجرائد ومواقع شبكة الإنترنت، أو سماع محطات التلفاز الجادة.

وهكذا نرى أن المثقف المعاصر أصبح يقيّم أيضًا من خلال متابعته أشكالًا جديدة للثقافة وهي قنوات التلفاز والشبكة. وليس لدينا شرط يُلزمه بأن يكون متابعًا للجرائد التي أصبحت متأخرة في معلوماتها مقارنة بالشبكة والتلفاز، ولا نشترط في المثقف رسوخًا علميًّا في تخصص ما، كما لا نشترط في عالم من علماء الطبيعة إلا متابعة مجلات (منشورات) التخصص. فالمثقف هنا لا نشترط له شهادة أكاديمية -وإن كانت تعينه- ولا تخصصًا معرفيًّا، بل نشترط فيه الوعي والحرص عليه، والعين البصيرة المخلصة للمصلحة العامة.

دائرة المثقفين واسعة، ونحن نحرص على أن نوسعها ليكثر من يشارك في صياغة الرأي العام، والمثقف يقوم بدوره باختيار منه، ولكن كونه مختارًا لا يعني أن له أن يتقاعس، وهدي

الرسول صلى الله عليه وسلم يطالب بالفعالية العامة للمجتمع، وهذه بلا شك خير من ندائنا هنا بموضوع «المثقف»، فكأننا نختزل العمل في طبقة أعلى من عامة المجتمع.

وأذكر أن أحد أقاربي رحمه الله ثارت قضية في قريته، وادعى أحد المتعلمين أرضًا ليست له، فجاء إليه ونهاه عن عمله فلم ينته، وهذا المسنّ الأمي لا يسمع له أحد، وليس ممن يحب دخول المحاكم، فاستطاع المتعلم جلب شهود، وشفع له لباسُ شيخ (مشْلحٌ، وهو لباس الخطباء أو عباءتهم كما يسمى في بعض المجتمعات) وشكلُ مثقف لأن يغتصب الأرض، واستخرج صكًا، ثم جاء يوم الجمعة -وهو الخطيب- فصعد المنبر وسَلّم ثم جلس، فتقدم إليه الرجل العجوز المعروف بأمانته وعفته، ومد يده إلى الإمام ثم قال: «مُدّ يدَك»، فمدَها فجرّه من فوق المنبر وقال: «والله لا يصلي بنا مزوِّر فاجر». وأعطى كتابَ خُطَبٍ قديمًا موجودًا على الرف لشاب صغير، وطلب منه قراءة خطبة جمعة منه. سكت الجميع عن مسرحية تدور فوق رؤوسهم، فهم يثقون بالرجل المسن الأمي، ويستحيون من إحراج المزوِّر، سكتوا واستمتعوا بالمشهد، وتمنى كل منهم أنه حاز قدرًا من الأمانة والثقة ليفعل فعل هذا الأمي الشجاع.

الأصل في المثقف أن يكون عمليًّا لا نظريًّا، فليست الثقافة مجرد متعة ذهنية، ولا هي معالجة نصوص فلسفية، بل المثقف هو من يجمع بين العمل والفكر، وقيمة أفكاره أنه يمتحنها يوميًّا في مجتمع الناس، يَقبل ويَردّ، يُخطّئ ويُصوّب. وكلما تواضع وخفف على نفسه من أوهامها وخطورة دوره الفردي، كان مفيدًا ومنسجمًا مع هذا العالم الذي لا يشعر بنا يوم جئنا ويوم نذهب، إلا في دائرة صغيرة جدًّا تنسانا حتى وهي غير بعيدة من مغادرتنا. وكلما خففنا الوطء عن النفس والناس، وأدركنا التوازن بين العبثية والغائية أو بين اللعب والجدية الصارمة؛ كنا أكثر سعادة وإنجازًا وتواضعًا، واقتنعنا بخطورة دورنا، ولكنه مع عظمته يعبر عن صغر وجودنا هنا وهناك، ونبقى دائمًا نحب الفرح بألعابنا التي كبرت معنا، أو أحببنا لها أن تكون كبيرة لأننا طوينا أمدًا بعيدًا على هذه الأرض كما نتوقع.

المثقف الجاد أيضًا صاحب أفق مفتوح على التحولات المحيطة به، فما هو اليوم حق ومقدَّم قد لا يكون غدًا بنفس الأهمية ولا الأولوية.

في فلسفة المصطلح

يُرجع بعض المثقفين مصطلح مثقف إلى عصور قديمة، ويكاد يدمجه مع مصطلح صحافي حين يعيد الصحافة أيضًا إلى عصور قديمة. وقد كان إرنست رينان الفيلسوف الفرنسي يرى أن الصحافة بدأت منذ لاحظنا نماذج قريبة مما يحدث في زماننا، فكان بعض القدماء يكتب مقالة مخالفة أو احتجاجية ويقرؤها على عموم الناس في الهواء الطلق في الشوارع والأسواق. وكان من أول مَن نُقل أنه فعل هذا عاموس منذ ثمانية قرون قبل ميلاد المسيح[69]. غير أننا لا نختار هذا لصعوبة القرب بين العملين والوسيلتين، فلم تكن الصحافة مهنة ولا عملًا دائبًا لعاموس.

وكذا فإن مصطلح «مثقف» مصطلح جديد في ثقافتنا، مهما كانت أصول الكلمة موجودة قديمًا، كما هو مصطلح جديد نسبيًّا عند غيرنا. ويعيد أحدهم تاريخ صعود المثقف في فرنسا إلى ما تبع حادثة دريفوس الشهيرة وصُدّر إلى خارجها منذ ذلك الوقت[70]. وقد كانت صفة «مثقف» من ابتكار مدير صحيفة **الفجر** النائب ثم وزير الداخلية ورئيس الوزراء الفرنسي الشهير جورج

كليمنصو، حين نشر في يوم 14 يناير 1898 بيانًا وأطلق على مَن وقّعه وصف «مثقفين»، وقد تحولت اللفظة إلى مفهوم إيجابي بعد ملابسات القضية لاحقًا[71]. كما نلاحظ المهارة والنباهة الصحافية لكليمنصو؛ فهو الذي غيّر عنوان المقال من عنوان واصف بارد إلى عبارة ذكية مستفزة وقصيرة: «إني أتهم». وقد كانت كلمة «مثقفين» تحمل الازدراء قبل ذلك. والتسمية لم تكن إيجابية حتى بعد ذلك خاصة عند الأنجلوسكسون لأكثر من نصف قرن لاحق، بل يكفي أن تطلع على الطريقة التي كتب بها بول جونسون كتابه **المثقفون**[72]، لتدرك كمية الازدراء الثقيل الذي يكنّه كاتب محافظ للمثقفين.

كان المثقف والفيلسوف في فرنسا أكثر حضورًا وأهمية، وما كان ذلك في فرنسا إلا وليدًا لدور المثقفين الأدباء والموسوعيين في الثورة الفرنسية، فقد كانوا بديلًا عن رجال الدين وخصومًا لهم، وكذا المثقف في روسيا أو رجال الإنتلجنسيا الروسية المضادة للكنيسة والقيصر، وكانوا بدايات التحول نحو الثورة قبل قيام الثورة الشيوعية عام 1917. والمثقف في تلك البيئات رغم كونه غالبًا علمانيًّا أو ملحدًا، ودوره أكبر من دوره في الدول الأنجلوسكسونية؛ فإنه بقي محافظًا على مشاعره وهويته الكاثوليكية خاصة في فرنسا، وقد لا يكون كذلك فيما يخص غيرها. وفي العالم الأنجلوسكسوني يختلف التوصيف: نيبور، إليوت، بكلي، غينغريتش وغيرهم من رؤوس الكنيسة النافذين أيضًا، وفي الوقت نفسه يبقى البروتستانتي على ما يراه عقلانية بروتستانتية في هويته.

واستمر في الثقافة الغربية الالتباس، حيث إن تعريف الكاتب أو المثقف أكثر إرباكًا وأصعب تحديدًا[73]. والتقارب المعنوي -في بعض تعريفاته اللفظية- طريف عندما نقارن لفظة «ثقف» بالكلمات المقاربة في اللغات الأخرى، التي تعني -ضمن ما تشير إليه في اللغة الإنكليزية- الوعيَ والنباهة، وبعد النظر، والرؤية. وفي الفرنسية[74] نجد أن كلمة مثقف تشير إلى بُعد النظر. ويطلقون على الطبقة المثقفة في روسيا «إنتلجنسيا»، وقد ظهرت فيها خلال ستينيات القرن التاسع عشر، ومهدت الطريق للثورة الروسية[75]. وكانت الطبقة المثقفة أكثر حضورًا وتأثيرًا في روسيا وفرنسا، وتميزت الإنتلجنسيا الروسية –أو ميزت نفسها- بأمور، منها «قوتها الأيديولوجية والسياسية.. واغترابها عن الدولة (القيصرية) وعداؤها لها.. وكذلك بإسقاطها الدين.. وهذه الخصائص ظهرت على سطح انجذاب الإنتلجنسيا نحو الفوضوية والاشتراكية»[76] في روسيا السوفيتية؛ حيث حازت سلطة الدين الجديد (العلمانية أو الشيوعية). فبعد خلع القساوسة ظهرت طبقة المثقفين غير المتدينين، فصنعت قوة وفكرًا وثقافة وكهنة للتوجه العلماني، ولأن بعضها تذوق الحرية ونادى بها فقد وجد المستبدون فيهم مزاحمين، وتُنُوقلت المقولة الشهيرة: «كلما سمعتُ كلمة مثقف تحسستُ مسدسي».

وفي روسيا كان الثوار تقريبًا من المثقفين وحازوا كثيرًا من السلطة الثقافية للدولة إن لم يكن جميعها[77]، ومُرّرت عبر تلك السيطرة أبشع التحكمات الثقافية في المجتمع خلال عصر الثورة وبعده، وكان هؤلاء المثقفون غالبًا من الحاصلين على شهادات جامعية تؤهلهم للوظائف وللمكانة في المجتمع. أما في فرنسا فقد أخذ المثقف كرسي القسيس في عصر ما قبل الثورة، مع استقلالٍ حميدٍ أحيانًا، فكان الخالدون ومجمعهم في فرنسا (الأكاديمية الفرنسية) غالبًا من كبار المثقفين، وكادوا يجعلون المثقف فوق الجميع، خاصة من بلغ منهم مستوى يُسمّى به مفكرًا.

وبمقارنة كثير من المجتمعات بالفرنسيين نجد لديهم كرمًا كبيرًا أو تساهلًا في توزيع ألقاب مفكر وفيلسوف، والأنجلوسكسون أكثر تحفظًا في ذلك. كما أن هناك تمجيدًا كبيرًا لدور المثقف والمفكر والفيلسوف في فرنسا؛ ربما لأن المثقف الفرنسي هو من أسس فكر الثورة، وقام بدور كبير في تحرير المجتمع من الطغيان، طغيان الحكام وطغيان السلطة الدينية، من أمثال فولتير وروسو ومونتسكيو وديدرو. يقابل ذلك ازدراء في العالم الأنجلوسكسوني للمثقفين، فهم موضع الاتهام وعدم الثقة، ربما لكون المثقف الأنجلوسكسوني لم ينجز ثورة عارمة على الكنيسة والدين والأوضاع الثقافية المرعية، مثل الذي حدث في فرنسا. كما أن المثقف الأنجلوسكسوني لم يصنع مرجعًا بديلًا عن الكنيسة، وبقيت الكنيسة توحي بعدم الثقة به، ولأن هناك شبح المثقف اليهودي، وكذا شبح المتمرد على الكنيسة والمنحل والشاذ أو المنفصل عن المجتمع، كلها تطارده في مجتمعه. ولذا فإن السياسي والصحافي والكنيسة لهم دور في مجتمع الأنجلوسكسون أكبر من دور المثقف العام.

تكوين المثقف

كتب الدكتور شاكر مصطفى[78] مقالًا ساخرًا من بعض المثقفين فقال: «أحدهم يقرأ في العام كتابًا ويتحدث عنه عامًا». ومن كان كذلك فليس ممن يستطيع استيعاب بعض مشكلات الثقافة ولا معالجة قضاياها؛ فالمعرفة المستمرة هي زاد المثقف، وتجرعه لتعلم ودراسة حتى ما يكره من المعارف والنصوص، والاستمرار في التعلم، هي أهم وسائل الإبقاء على قدرات المثقف المعرفية مستمرة ومتصاعدة. ولكن هذا لا يعني أن الذين يتابعون الشأن العام في زماننا من خلال الجرائد والاتصالات الحديثة مستبعدون عن دور مؤثر في حياة المجتمع، فالمطلوب هو المعرفة بأي طريق حصلت، والتأثير بأي طريق تم، والكتب نعم المؤسِّس.

ورغم أهمية الكتب فإنها تتراجع أمام وسائل الثقافة الجديدة، ونشأ جيل أصبح لا يعيش مع الكتب، بل مصدر ثقافته الأخبار السريعة والأفلام واللقطات العابرة، وتواصله يتم عبر القراءة الإلكترونية وأساليب تكاد تكون أسرع من القراءة المعتادة.

للقارئ أو مستهلك الثقافة مطالب طبيعية من المثقف: أولها أنه يريد أن يطمئن بصحة موقفه، فيحب من يوافقه وجهةَ النظر، ولا يحب الكاتب الشكاك الذي يرمي في كل طريق حجر عثرة، ولهذا تجد الناس ينساقون وراء من يشبههم أو يوثّق لهم ما يحبون، ولا يميلون إلى هذا الذي يقول لهم دائمًا أنتم على خطأ ثم يَعبر. ولكن القارئ يحب الصامد المريح، حتى وإن علم أنه صاحب رأي معروف مسبقًا، ولهذا فخطر الكاتب صاحب الثبات على موقف أكبر من المثقف واسع المعرفة والاطلاع، عميق الطروحات المتنقل بين الفلسفات والآراء، الذي يحمل من كل وادٍ حجرًا، ويقارن بين الأشجار والزهور، فلا يتمكن القارئ أو السامع من معرفة ما يعرضه عليه حتى يهوي به في وادٍ معرفي آخر، فالناس يحتاجون منك إلى رأي واحد في المرة الواحدة، في كتاب أو مقال أو برنامج؛ لأن مرونة المستهلك ليست كبيرة، وصبره على التشتت والتنقل محدود.

ولنعلم أن الكاتب الناجح شعبيًّا ليس الأعلمَ ولا الأقدرَ، ولكنه ذلك الذي لامس القلوب والحاجات، ولم يثقل على العقول، وعندما يرحل من مسألة لأخرى يرحل عنها بسير الأقدام الهادئ الذي ينقلك بلا صرامة إلى المحطة القادمة، فالقارئ يريد معلومات ومتعة، ولو أدرك أن

الكاتب ناقص المعلومات، وربما غير موثوق، ولكنه واضح ومحدد الرأي؛ فإنه يستمتع به رغم ذلك ويقرأ له؛ لأن الناس لا يطيقون مواقف الاضطراب ولا من يتحدى معتقداتهم، إلا إذا أجبروا بأدلة علمية؛ لأنهم يحبون من يؤكد ما هم عليه، ويتضامن معهم ويفكر مثلهم ويجد فكرته عندهم متطابقة أو مشروحة.

فالناس تدفعهم رغبة التأكيد ونزعة القطيع، يحبون أن يكونوا جزءًا من مجتمع يشابههم فكريا؛ لأنه يمنحهم ثقة أكبر بأنهم على حق أو غير منحرفين أو شاذين فيما يؤمنون به[79]. وهي فكرة أكدها مثقفون كثيرون منهم ابن تيمية في نصوص جميلة مثل قوله: «الناس كأسراب القطا»[80]. وكذا يحبون إدماجهم في قضية عقائدية أو وطنية أو جغرافية أو عرقية، ومن يدمجهم يكسب رضاهم ومحبتهم وربما قيادتهم، وإن كان كل ذلك من العبث والشر والبغي.

التكوين المعرفي

كثيرًا ما نجد المثقف من أهل تخصص محدد، وهذا يساعده في بناء معرفة منهجية، وبناء مواقف منطقية لما يتحدث عنه، ولما يفهمه ويعالجه. وتزرع البراعة في تخصص ما مزاجًا علميًّا وذوقًا معرفيًّا ناضجًا، يساعد صاحبه في تفهم ما حوله ومعرفة مستويات المعرفة والفهم والتنفيذ في البيئات التي يتحدث عنها أو يتأثر بها. فمعرفة منهجية ولو في علم واحد تساعد في درك غايات الشخص الناصح المؤثر، فمن العقل أحيانًا تجاوز العقل، ومن المجدي أحيانًا إلهاب العاطفة، والمثقف ليس الفيلسوف، بل هو المروج والمبدع والمدرك والمؤثر، فلا يرضى بحكمة فيلسوف غير عملي، ولا بغرفة مظلمة لأستاذ فلسفة يصرف فيها زمانه يقرأ عن حركات العالم وأفكاره من حوله، بل هو في ضجيج اللحظة وتضارب الأهواء.

والمثقف المؤثر اجتماعيًّا يحتاج أن يكون له مزاج معرفي، وثقافة آنية تطلعه على ما يحدث، وله حس اجتماعي وعلاقة بالناس وشؤونهم، وعندما يضعف في جانب من الجانبين يظهر ذلك في كتابته وحديثه، وفي أي طريقة يخاطب بها الناس. فتجده مرة غارقًا في شؤون المجتمع وتحمد له ذلك، ولكنه ينكشف بلا سترٍ في معلوماته الضرورية لما يعالجه، وإن كان ولا بد من ميل إلى أحد الجانبين فإني أفضل المثقف العملي الواعي بقضايا المجتمع المنصف على الواعي بالثقافة البعيدة عن حاجته، والثقافة التفصيلية التي تزيّن خطابه ولكنها تأخذ منه الكثير قبل أن يؤثر وينفع؛ لأن العالم بتخصص ما في المجتمع الحي معرفيًّا قد يعوض نقص المؤثرين بتوفير العلماء والمتخصصين لما يحتاجه الناس؛ ولأن المثقف واسع المعرفة والأفق يبني الجسور اللازمة بين العلوم المتخصصة الدقيقة والناس، فهو وسيط ضروري، لا تقلِّلُ وساطته من مكانته ولا من تخصصه.

ولهذا تجدهم في بعض البلدان يصفون المتمكن الموصل بين المتخصصين والحياة اليومية، أو الموصل بين الأفكار العليا المتمكن في تخصص والمهتم في الآن ذاته بالشؤون العامة بـ«المثقف العام». فهو راسخ في علم ثم تعالى على التخصص بالتفكير في ربطه بقضايا الحياة اليومية، واستطاع أن يكون حاضرًا في الشأن العام، ولم يقلل الشأن العام من تخصصه[81]. فالعالم والأديب والناقد والمؤرخ والروائي أو المبدع والفنان -في أي أنواع الفن- إذا خرج من مكتبه أو قاعة

تدريسه أو معمل بحثه إلى الساحة العامة يعالج ما يهمّ الناس، فهو يقوم بدور «المثقف العام»، أو كما كان يُقال في ثقافة السلف «رجل العامة» أو «عالم العامة».

وهذا الوصف يزيد حضوره وتأثيره ولا ينقص من قدره، بل هذا يعني أنه استطاع أن يحيي أفكاره وآراءه ويجعلها قضية عامة، وقد ملك من الشجاعة ما يُخرجه من دائرة الخصوصية والضيق إلى أن ينصر ما يراه حقًّا وينتصر له، ويردّ ما يراه باطلًا أو مؤذيًا لمجتمعه. وهذا ما جعل علماء وأدباء يلقوْن الضنك والسجن واللجوء بسبب مشاركتهم في الموقف العام، لا بسبب تخصصهم ومميزاتهم العلمية. فبعض علماء الإسلام قديمًا والأدباء والمثقفين والفلاسفة لقوا الأهوال بسبب قناعاتهم في الشؤون عامة، لا بسبب براعة في تخصصاتهم، ولا بسبب اكتشافاتهم، ولكن عندما تحركت ضمائرهم لنصرة ما يؤمنون به أغضب هذا مستبدي زمانهم، فعلماء الذرة بعد إلقاء القنبلة النووية تحول كثيرون منهم إلى ناقدين ونادمين على ما سببوه للبشرية من مأساة، وكانت لبعضهم موسم حياة للضمير.

وهذا الانتقال، أو لنقل الترقّي، للعالِم أو صاحب التخصص من العكوف على ما يعرف في ظلام الزاوية إلى الشأن العام، يحتاج إلى شجاعة وتغلُّب على نوازع الانطواء ودواعي الكمال الموهوم في إنتاجه ليخرج إلى صخب الحياة وسرعتها، وتنازل عن شروط الأكاديمية الأنانية إلى مغامرة الفرد في الشأن العام. وغالب العلماء يملكون مؤهل «المثقف العام»؛ ذلك أن إجادة أسس اللغة الكتابية أو الخطابية، مع جدّ في تتبع ما هو بصدده من قضية يصلحها، يكفيان للبدء في المساهمة في الشأن العام، وليست -كما يتوهم بعضهم- تكديسًا لشهادات قد تكون ميسورة لأقل منه، أو عسيرة على من فوقه. وهنا تكون العقبة هي الوقت اللازم للمتابعة الثقافية.

غير أن تعريفنا للمثقف يكاد لا يحتاج إلى وصف «العام»، فهو مثقف وكفى، وهو لا يكون مثقفًا إلا إذا كان يعمل في المجال العام، وبدون المجال العام يفقد وصف المثقف، فهو يشارك في الهم العام لمجتمعه برأي، أو يعطي رؤية أو يشرحها ويؤيدها، ويروج موقفًا أو يقف موقفًا مضادًّا. وهو يسعى إلى مستهلكي خطابه وإن لم يسعوا إليه؛ إذ يعمل لهم ومن أجلهم ويعترض عليهم، فهو مثقف لهذا لا لغيره، ولا يبحث عن متخصصين، فحديثه وكتابته للجميع، عمومي وديمقراطي، وهنا تصبح كلمة «عام» زائدة عن التعريف[82].

الحوار الثقافي[83]

الحوار من أهم موارد المثقف في عمله، وبه يكتشف من الناس ومن نفسه ما يريد معرفته وما يمكن أن يقدمه، وبه يهذب قدرته، وهو معيار للنفس وللناس في الأحاديث. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يسهر مع أبي بكر وعمر لأجل قضايا المسلمين وشؤونهم، كما علق العلماء لاحقًا وفسروا سهره صلى الله عليه وسلم مع كراهيته السهر بلا فائدة. وبعض الفقه عبقرية وبعضه اختزال، فالنقاش يصقل الفكرة وينير جوانب الموضوع، وكان المناقش الجاد يُنتخب من الناس ليمثلهم ويقدَّم للخصوم أو الأولياء، فقبيلة ضمام بن ثعلبة[84] انتخبته لنقاش الرسول صلى الله عليه وسلم والبحث عما عنده، وقد بين هو في نهاية حديثه الرسالةَ التي جاء بها والدور المنوط به، وسياق قدومه مليء بالمهابة والإجلال لحذقه، ومن هنا قدم الراوي قبل حديثه قوله: «كنا نفرح بالأعرابي العاقل يأتي من البادية».

وكان الإمام أحمد بن حنبل يترك قيام الليل لنقاش أبي زرعة الرازي. وكان الجاحظ ربما خرج إلى الفلا للمناظرة ونقاش أصدقائه، وكان يرى أن من لم يناظر أو يناقش مخالفيه لا يوثق بعلمه. وكان الغزالي وابن تيمية من نجوم التراث والمناظرة والجدل مع الخصوم. وكثيرًا ما تكون الثقافة المؤثرة في الناس نتاجًا للحوارات وردودًا عليها، وهي ظاهرة عظيمة في ثقافتنا ولها حسنات وافرة، كما لها سيئات كثيرة حين تنحو مناحي الاستعادة والمغالبة والمماحكة، وتشغل الناس باللفظ والجدل عن العمل.

وفي العصور الحديثة كانت نقاشات طويلة مؤثرة في صياغة وشكل الكثير مما حولنا. وقد كان ماركس وإنجلز يقضيان ساعات طويلة في نقاش مشروعاتهما الكثيرة والمثيرة، بدءًا بكتاب **البيان الشيوعي** وانتهاءً بأبحاثهما اللاحقة. وكان إنجلز -كما يقول ماركس- أنجب مثقفي أوروبا في زمنه، وكان يعرف اثنتي عشرة لغة، وقد اشتكى مما عاناه من نحو اللغة العربية. وكانا يمشيان ويتحدثان، وعندما يكون الجو ممطرًا باردًا في لندن -بحيث لا يستطيعان المشي في الخارج- كانا يسيران في مكتب ماركس.

وعندما قدم كارل غوستاف يونغ على سيغموند فرويد بقيا يتناقشان أكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة. وتلك الحوارات الطويلة الهادفة العملية قد تكون خطيرة التأثير في العالم، كالتي دارت بين الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل؛ فقد قدِم تشرشل إلى واشنطن وسكن في الغرفة التي أُطلِق عليها «غرفة لينكولن»، وكان روزفلت معاقًا يدفع عربته بيديه ليحضر نقاشات طويلة جدًّا لياليَ كثيرة، وقد خرج الاثنان من نقاشاتهما بتنسيق كبير للحرب العالمية الثانية وما بعدها. وكان روزفلت من عباقرة العالم الذين جمعوا مع العقل العبقري والإرادة الحرة ثروة أمريكا ومالها وقوتها فصاغ العالمَ بعد الحرب، وترك أفكارًا مهمة تمثلت في مؤسسات مثل صندوق النقد الدولي، ومنظمة الأمم المتحدة، وعدد من الأفكار والمشاريع الكبرى.

وكذلك التقى تشي غيفارا وفيدل كاسترو في المكسيك وبقيا في نقاش حامٍ ومستمر، قالت صاحبة البيت: «دامت جلستهما الأولى نحو ست عشرة ساعة، ونسقا عملهما، وكانت الثورة الكوبية والعديد مما تبعها».

وكان الشيخان عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي يدرسان في المسجد النبوي ثم يعودان بعد صلاة العشاء، وربما استغرقا في النقاش إلى الفجر في قضايا كان من أهمها البحث في طريقة تحرير الجزائر من الفرنسيين. وقد اهتديا إلى فكرة «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والمدارس التي تشرف عليها الجمعية[85].

ثم كانت المجلات العلمية المتخصصة في العصر الحديث تطويرًا لمفهوم الحوار من خلال عرض المقالات ونقدها، علمية كانت أو فلسفية أو أدبية، فهي لكل تخصص، وكل بحسب حقله الصغير، ولكل مستوى من المثقفين مجلاتهم التي ترعى وتناقش ما يأتون به، وكانت من أسس تطور العلوم والاختراعات الحديثة. وحتى المواقف السياسية جرت فيها الحكومات الغربية على أسلوب الجدل غالبًا في اتخاذ موقف أو رده، حتى لتشبه السياسةُ أحيانًا العلومَ التطبيقية في شدة فحص المواقف، وألقت عليها بقيةُ الفلسفة الوضعية المنطقية وهمَ أو حقيقة المزاج العلمي الذي قد لا يناسب السياسة أصلًا، فمصالح الأمة تخضع لنقاش مستمر وطويل، وهكذا جميع ما يمس حياة الناس وسياستهم وجيوشهم.

ولو قارنّا السياسات الفاشلة في بلداننا لوجدنا أهم أسبابها الارتجال والعاطفة والموقف السريع المبني على جهل وتعجل ورأي جهَلة مقربين أو أعداء مخادعين. ولا يمكن أن يتصور دكتاتور أن وزير المالية الأمريكي ذهب إلى الكونغرس لمراجعة مشروع مارشال ونقاش جدواه في ثلاث وأربعين زيارة، ما بين تحقيق وتحقق وعرض وبيان للفوائد والمضار؛ مما أفقده أكثر من عشرين رطلًا من وزنه لشدة ما لقي وقام به من جهد لإنجاز هذا المشروع الهائل الذي أنقذ الغرب سياسيًّا وماليًّا، وساهم في الانتصار اللاحق على الروس وعلى البؤس وعلى المفارقة المتوقعة والتمزق اللاحق لو لم يتم مشروع البناء.

والمثقف هنا هو الحاضر الأساسي وأكثر أهمية من الموظفين وأصحاب القرار. ولعل من أمثلة ذلك ما كان يدور في بداية حكم الرئيس الأمريكي باراك أوباما من نقاش في قضايا اقتصادية، إذ يردّ الاقتصادي الشهير بول كروغمان على الفريق المتنفذ في السلطة، فيضطر الرئيس وفريقه الاقتصادي إلى الرد والنقاش والتعليق على أقواله في مرات عديدة، ويرى هو أو غيره أن بقاءه (أي كروغمان) خارج فريق الحكم أعطاه حرية النقد، وأعطى فائدة للمجتمع من خلال الرقابة النقدية الدائمة على قرارات الحكومة، فإما أن تقنعنا بصواب قراراتك أو نقنعك بصواب ما نلاحظ عليك فيلزمك الرجوع. فالحاجة مستمرة إلى الردود التي تنمّي الوعي والفهم، لا تلك الطرائق التي تدين أو تبحث عن الإدانة.

وتدِين السياسة الأمريكية والغربية عمومًا في موقفها من الحرب الباردة لمقال واحد شهير وللنقاشات التي تبعته في تصميم فلسفة مواجهة الشيوعية، وهو المقال الذي نشره جورج كينان تحت اسم مجهول (X)، وذلك أن دائرة الحوار المفتوح تجلب من الآراء ما هو أنفع لهم وأوسع من آراء النخبة السياسية الحاكمة في الديمقراطيات. والنخبة نفسها تأتي بسبب الانفتاح والنقاش الحر الذي يفتح الطريق للمواهب والقدرات لكي تبني وتمتص من داخل النظام ومن خارجه -بل من أطراف العالم- خير عقول يمكنها بناء دولة ومجتمع، بخلاف النظم المغلقة القاتلة لمهارتها هي قبل أن تسد الطريق على أي إبداع من أهل البلاد فضلًا عن غيرهم، وقد تستورد من يؤكد إغلاقها وجهلها.

وقد رأى العالم كيف فتح المعسكر الغربي آفاقه أمام قيادات وشباب أذكياء ومثقفين ومهندسين وصناعيين وفدوا من ألمانيا النازية ومن المعسكر الشيوعي، فساهموا في بناء الغرب، وكانوا من خيرة من خطط لإسقاط الشيوعية في بلادهم الأصلية[86].

إن محادثة العقول القوية زيادة ونمو وتربية لمن ينال حظ القرب منها، فقربها والتلقي عنها وسيلة للحكمة والنضج لا تنسى. وكان مجلس أبي حنيفة من هذه المجالس، وقد ناقش محمد بن الحسن الشيباني مرة ثم رد على شيخه ردًّا قويًّا ناضجًا وربما اعتراه بعض الغرور، فقال الإمام أبو حنيفة: «كنت بليدًا أخرجتك المواظبة»[87]. فأخذ الأمور الثقافية بجدية وانفتاح ووعي يفتق عقل المثقف وينمي قدراته.

المقاهي والصالونات منفذًا للحوار

حين شاع شرب القهوة صاحبها الاجتماع عليها، وكان هذا الاجتماع مثار جدل وتأثير كبير، فمرة كان يشاع أنها مفسدة بسبب اجتماع الرجال والنساء عليها، كما كان يحدث في المدينة

المنورة، ولكن الحقيقة أن للمقاهي دورًا سياسيًّا كبيرًا ظهر أيام مراد الرابع[88]. فقد انتشرت المقاهي وكان السياسيون الناقدون للسلطان يجتمعون فيها، فطلب من المفتي تحريمها، وبلغت العقوبة أحيانًا لمن يرتادها ويجتمع عليها حد القتل، وبقي الحال هذا إلى نهاية القرن العاشر الهجري وانتهت موجة التحريم من الفقهاء، وأخذ الجواسيس دور المراقبة لما يقال في المقاهي.

أما أثر المقاهي في فرنسا قبل الثورة فقد كان كبيرًا؛ ذلك أن أماكن الاجتماعات والنقاش الثقافي والسياسي كانت محصورة في صالونات الطبقة العليا، وكان المثقفون وهم آتون غالبًا من عامة الناس لا يحظون بهذه الميزة إلا في قصور الطبقة المترفة الملحقة بالسلطة. لكن المقاهي كسرت هذا الاحتكار، فكانت محلًّا سهلًا ورخيصًا وحرًّا للاجتماع، إذ لا تكلف الفرد إلا ثمن فنجان القهوة ليشارك في حوار عام يتعلق بمصيره ومصير بلده، كما يفتح الطريق للمناقشات الفكرية والثقافية العالية، ويسوق النقد على توجهات الحكومة[89]؛ مما جعل لهذه الحوارات أثرها الكبير، والذي كانت مقاهي الإنترنت مظهرًا له، وسبّبت قلقًا كبيرًا للمستبدّين قبل أن تصبح الشبكة سهلة ومتوفرة لعامة الناس في البلدان العربية وغيرها.

ظهور المقهى كسر احتكار الصالونات للثقافة، فقد كانت الصالونات مقتصرة على طبقة محددة وثروة ومكانة اجتماعية وعلاقات، ولا يدخلها الشخص إلا بواسطة وعلاقات تبرر حضوره في مجالس الطبقات العليا ونواديهم. وقد قرأت في كتاب **الاعترافات** لجان جاك روسو وجوهًا من معاناته ليدخل الصالونات ويقبل فيها، وربما أسيء إليه على أن مكان المثقف بيئة الخدم، كما أشار[90]. لكن المقهى قلب النظام السائد وصنع ميدانًا واسعًا رخيصًا وحرًّا بعيدًا عن عقد الصالونات، ويسمح بالكثير مما لا يسمح به الصالون، وعادت الثقافة إلى السياق الشعبي تعكس قضاياه، وتقدم رجاله، وتقدم مطالبه، وتفتح النقاش في أوسع ساحاته، ويتعارف الناس ويتعلمون في أجواء حرة ورخيصة وسهلة المشاركة والمفارقة، والطعام رخيص ميسور، وإمكان ترتيب لقاءات دورية لأوقات أطول ولأشخاص كثر أيسر.

لقد أتاحت المقاهي للجميع المشاركة في الحضور والرأي والنقاش بعد أن كان حكرًا على طبقة معينة معتمدًا على مزاج صاحب أو صاحبة الصالون. وكانت المقاهي هي البديل المؤثر قبل أن يصبح للصحف تأثيرها، بل إن بعض الصحف المؤثرة بدأت أفكارها من المقاهي. كما أتاحت للكاتب فرصة دراسة فكرته قبل طرحها في مقال أو كتاب؛ فكانت المقاهي المنصة التفاعلية الأولى بين الكتاب والقراء قبل ظهور الشبكات الاجتماعية، ثم بعد فترة من الزمن عادت المقاهي لتقسيم روادها كما قسمتهم الصالونات، لكن في هذه المرة حسب الاهتمامات والإنجازات وليس حسب الطبقات المجتمعية. وقد ظهر في لندن بداية القرن الثامن عشر الميلادي ما يقارب ألفي مقهى[91].

مجتمع الحوار الثقافي

إن الحريص على المعرفة والفهم بحاجة دائمًا إلى معرفة ظروف المثقف، ولكن ظروفه ليست دائمًا انعكاسًا لأفكاره، بل يصنع الاغتراب أحيانًا فكرة حرة وشخصًا غريبًا محلقًا يبحث عن أرض مثالية لتطبيق قوله. وكثيرًا ما تبقى أفكاره بلا أرض، غير أن وجود الأفكار ونشرها تصنع هذه الأرض دائمًا، أو تخفف من وحشيتها لتقترب أو ترفعها إلى مثل أعلى من تطرف هابط.

الثقافة بمعناها المعرفي تحتاج إلى مجتمع التواصل والمثاقفة التي هي المفاعلة في هذه الموضوعات، والأصل في المثاقفة المشافهة. وكان سقراط يرى أن المشافهة أهم للمجتمع من الكتابة، غير أن الكتابة لم تعد بالعسر الذي كان في زمن سقراط، فقد أصبحت أسهل كثيرًا وأوصل من الكلام الشفهي في زمننا، فقوله ينطبق على عصور كثيرة قبل عصرنا، حيث الكتابة لم تعد تؤمن بالورق والقلم بل تتم برموز أسرع من القلم والطباعة؛ ذلك أن كتابة فكرة ما تحولها إلى شيء يشبهها، لأن الفكرة في الذهن تختلف عنها منطوقة، وأبعد عنها مكتوبة.

من الطريف أن نلاحظ أن زماننا أعاد -بسبب التطور في التقنيات- الكثير من الأساليب البشرية الأولى في التواصل، فالمشافهة عادت اليوم بطريقة أحسن مما كانت، وربما أحسن مما كان يخطر في بال القدماء؛ فأمكن التواصل الشفهي والصوتي بين الأفراد والمجموعات والأساتذة والطلاب عبر العالم، وعاد دور المبادرة وغابت الحواجز المانعة لصناعة المثاقفة وحيويتها. وإذا كان من الضروري لنجاح المثقفين وتأثيرهم أن يلتقوا وأن يتحدثوا ويتناقشوا، فقد حققت الوسائل الحديثة بعض ذلك، وبقي عليهم التخفف من عيوبهم ليتمكنوا من إنجاز البيئة المعرفية الإصلاحية وصناعتها، فالتواصل أساس في التأثير.

ولذا نجد أحيانًا أن مستوى المثقفين المعرفي في مجتمع ما ضعيف، ولكننا نجد لهم دورًا وأثرًا اجتماعيًّا في السياق العام لوعي المجتمع، ونجد مجتمعًا فيه أعداد كبيرة ممن يليق بهم أن يكونوا من المثقفين، ولكنهم سلبيون أو صامتون أو خائفون، فهنا تكون قيمة المستوى والعدد ضعيفة التأثير. ولعل للأجواء السياسية دائمًا دورًا كبيرًا في نشاط المثقفين أو سلبيتهم، وللموروث من عاداتهم وطرائق تفكيرهم، فتجد نصف مثقف معرفيًّا في مجتمع له صولة وهيلمان، وفي مجتمع آخر لا تسمع للمؤهلين الكبار رِكْزًا.

ومجتمع التبادل الثقافي مغرٍ بالمتسلقين على الثقافة وناشري سموم الكثرة القولية والضجة الفارغة، الذين يجعلون الجو مليئًا بضجة ثقافية ولكنها في النهاية فراغ، فهي شبه خالية من المعرفة وبلا رؤية، وتحدث هذه المبادلة للجهل بالجهل فتطرد البضاعة الجيدة، أو تنشر اليأس عند أصحابها. وبعض أصحاب المعرفة والرؤية يتأففون من تواضع مبتذل يسود فترات كثيرة سوق الثقافة فيعتزلون، وفي عزلتهم ضرر بأنفسهم وحرمان لها، ونهاية ذلك عملية تجهيل يمارسونها بأنفسهم ضد ذواتهم، وخسارة مجتمعية، والسبب أنهم يكرهون الترديد الفارغ، غير أن الانتصار للمواقف الفكرية (الأيديولوجية) كثيرًا ما يكون بالترديد وتنويع طرق العرض فتنجح كثيرًا.

وتوجد الثقافة الأعلى حيث تشيع حرية المعلومات، وتتوفر وسائلها وحرية تداولها، ولهذا نجد أن الدول القوية الحرة المعاصرة تحرص على علنية قراراتها، حتى إنها بعد فترة محددة تفتح أسرارها للجمهور، ولهذا قوانين مرعية، وتستثنى جوانب قليلة، منها نصوص تحمي الفاعلين الأحياء والمصالح المستمرة مع حكومات أخرى ولو بعد أكثر من جيل.

وكذا تمنع البيئة المستبدة توسع المعلومات، وتوسع دائرة المسؤولية، فترتبط المسؤولية بأشخاص في مناصب عليا، ويشعر من دونهم بعدم أهمية دورهم ولا مناصبهم ويصابون بالسلبية ويقتنعون بعدم أهمية مواقعهم. والأسوأ من هذا أن تطلب من شخص عملًا، أو يكون عمله الأساسي ولكن لا توفر له أو لا تسمح له بالوصول إلى المعلومات الضرورية، وحينها يكون المسؤول الأعلى في السلّم هو كل شيء، هنا تنشأ الكوارث الكبرى من منشأ صغير وغير مفكَّر فيه، وهو وهْم أن تركُّز السلطة والمعرفة في أعلى السلّم خير من توسيعها.

وأحيانًا تكون المركزية استجابة لهوس الأهمية والزعامة لدى صاحب المنصب. ومن طريف ما قرأت عن عادة المجتمعات الجاهلة في التعامل مع المعلومات ما كتبه أحد المدربين الغربيين في مصر عن سبب عدم انتصار الجيوش العربية في الحروب، وكان يدرس حالة مصر، فذكر أن من أسباب هزائم الجيش المصري أن كبار الضباط يعلمون أن قيمتهم مرتبطة بمعرفتهم المعلومات والأسرار، فكلما زادت المعلومات واحتكرت عند الشخص نال الأهمية والقرب من السلطة، فيحاول احتكار كل معلومة مهما كانت ضرورية للجيش[92]. ويضرب لذلك مثلًا أن الجيش تكون لديه دبابات حديثة، ومرفقة معها أدلة تشغيل وإصلاح، فيحتكر الضابط الكبير دليل الدبابة الذي يشرح طريقة خدمتها وطريقة إصلاحها؛ لأنه لو أعطى من دونه رتبة دليل الاستخدام والإصلاح لعرف المعلومات التي ينبغي أن تبقى عنده هو لتُميّزه عمن دونه، فتنقص مكانته أو يكون مثلهم، وليس وراء الضابط ما يُلزمه بدراسة الدليل؛ فإذا خربت هذه الأجهزة يكون الضابط الكبير لم يقرأ الدليل، أما الضابط الصغير فلم يعرف عنه شيئًا أصلًا، فيصبح وجود التجهيزات وعدمه سواء، ويعد الكاتب ذلك من أسباب الهزائم العسكرية[93].

كما أن الحرص على امتلاك المعلومة وعدم مشاركتها مع جهات أخرى ذات مسؤولية قريبة تسبب مصائب كبرى، فإن عددًا من المحللين للمشكلة الأمنية التي سببت نجاح «القاعدة» في تنفيذ خطتها يوم 11 سبتمبر 2001 في نيويورك وواشنطن، قالوا إن من أسباب فشل الأجهزة الأمنية في إحباطها ما كان من صراع شديد وتنافس معلوماتي بين جهازيْ مكتب التحقيقات الداخلية (إف بي آي) ووكالة التجسس الخارجي (سي آي إيه)، فقد كان لدى كل منهما طرف خيط من المتابعة والمعرفة لكن معلوماته ناقصة؛ لأن المعلومات لم تكن تصب في جهاز واحد للتحقق، ولذا كان كل منهما يرى أن المعلومة سلطة وقوة خاصة به[94].

وإذا كان التواصل بهذه الأهمية في مجال الأخبار، فإن دور التواصل حاسم في تناقل الأفكار الجيدة وتمحيصها ونشرها، بل إن التواصل لا يصنع الأفكار فقط، وإنما يطورها أيضًا ويصنع الملاءمة، كما يصنع لها وبها الاختراق لجدران الظلام. فالتواصل ينقذ الفرد من جهله، والجهل من أسباب الصمت خوفَ انكشاف جهلِ الجاهل وجزئيةِ فهمه وثانويةِ قضاياه، غير أن علمه المسبق بدور التواصل يجعله أحيانًا يتواصل إما خوفًا من انكشاف رأيه في مجتمع المستبدين القامع المقموع، أو خوفًا من انكشاف جهله؛ فيبقي النقاش كما قال وِلْ ديورانت: «منحصرًا في ظواهر الأمور خشية عدم العثور على شيء في أعماقها»[95].

وهذا ينطبق على الفكرة موضوع النقاش، كما ينطبق على ملقيها، وهو أمر يكاد يصعب علاجه بين المثقفين المعتلّين بالتعالي والمصابين بالغرور المرضيّ، وكذا هو داء ماحق للشعوب وللمؤسسات الكبرى.

إن ثقافة إشاعة المعلومة هي الأصل في المجتمعات الناضجة، والاستثناء هو العكس، ويجب أن تكون زوايا السرية والعفن التي لا تمسها شمس المعرفة في أضيق إطار ممكن؛ لأنه حيث لا جلاء ولا معلومات ولا كشف للحوادث تنمو هناك كل الجراثيم التي تفتك بالمجتمعات. ومن طرق مواجهة الهزائم العسكرية والإدارية وجود تشريع لإظهار المخالفين وكشفهم، وشرعية أن يقولوا وأن يقال لهم لتوقي أضرار الكبت المعلوماتي الثقافي.

من توهّم أن المنتَج الثقافي كافٍ لوجود ثقافة مجتمعية فإنه غالبًا لن يحصل على الثقافة ولا على مجتمعها، فالثقافة تلزم لنموها مشاركة واسعة، وشبكة تستقبلها فتفرح بها أو تسخط عليها وتقيمها وتنتقدها. ولهذا نجد للكاتب وللمثقف -متحدثًا أو منتجًا لأي نموذج ثقافي كالأفلام مثلًا- جمهورًا يبدأ بالمساعدة في الإنتاج بعدد وتنوع هائلين. ولعلك تقرأ عدد منتجي فيلم أو منتجي كتاب في مقدمة الكتاب أو الفيلم أو نهايته؛ فترى الطاقم الذي ساعد في إنجازه ونقده وتصحيح لغته وتوفير الكثير من مسانداته حتى خرج.

ثم إذا وُلد وجد مجتمعًا يستقبله بطريقة حيوية معه أو ضده، ولا يقل خطر المعلق على كتاب عن دور مؤلفه، بل يطلب منه ويُتوقع أن يقدم تقييمًا أقرب إلى ثقافة المجتمع الذي ينشر فيه العمل، إن كانت عقلانية أو عاطفية عنصرية أو سواها، بينما تجد الموقف السلبي أحيانًا يقتل الإبداع والمبدع للثقافة في المجتمعات المتجمدة معرفيًّا والجزئية؛ فكأنه أحيانًا يخطب في أموات حتى عندما يحبون إنتاجه، فهم يرون الموقف الثقافي سرًّا أيضًا، أو يبلغون من تجافيهم عن موقف مختلف حدَّ النكران وجحود الجهود.

وبعض هذه المواقف من ميراث الخوف والجبن اللذين نشرهما المستبدون، فلا يتمتع القارئ والمتلقي بحرية التعبير والنقاش، فضلًا عن ترسخ عيوب أخرى ولكنها صغيرة وتبقى صغيرة وأهلها مثلها، مثل الحسد والرغبة في غمط الأشخاص والأعمال، ومن ذلك سبب قلة المتلقين، ولكن غالبًا نجد هذه العوامل أو بعضها تتراجع، بسبب التواصل وزيادة التعارف عند القارئ العربي والمسلم.

وتبقى شبكة الثقافة في غاية الأهمية والضرورة لإنجاز عمل ثقافي، سواء في إنجازه أو تداول الموقف منه والتجاوب معه. ولولا التجاوب الجبار من مجتمعات الإسلام مع معارفهم وكتابهم ومختلف علمائهم قديمًا لما وجدنا هذا التراث ميسورًا؛ فقد قام عليه نُسّاخ، وتداوله محبون له وناقدون ورادّون، حتى ساد وبقي على ضعف الإمكانات وقلة الموارد وبدائية الوسائل وضعف طرق الحفظ والنشر. وأحيانًا تجد في زماننا بعض المطلعين على المعارف أشبه بقبور للمعرفة، وهي شخصيات موجودة في كل العصور والثقافات، تصدر تصرفاتها عن قناعات أو أمزجة تسير على قاعدة النحويين «تحفظ ولا يقاس عليها»، سواء كانت بارعة معرفيًّا أو سلبية. فقيمة الثقافة في تداولها وتنميتها والجدل حولها قبولًا ورفضًا، أما نقاط الجمود فيجب أن يتجاوزها المثقف ويعمل على السير في دروب الحيوية والتفاعل إيجابًا أو سلبًا.

والتفاعل المجتمعي في البيئة الثقافية يحيي الناس ويرفع مستواهم ويُجبر كسولهم على أن يتجاوب، وجاهلهم على أن يتعلم، وغافلهم على أن يستيقظ، ويحيي التجاوب الحق ويميت الباطل؛ لأن الأصل في الناس الخير والسداد والتفاعل الصالح المصلح، والعكس هو الأقل.

ومن أسباب نجاح بعض المثقفين الكبار وتأثيرهم من حفّ بهم من متجاوبين وناشرين وشارحين ومؤيدين ومعترضين، حتى إن بعض المؤلفين الكبار كانت من أهم أعمالهم محاضرات متقطعة ومبتسرة مثل هيجل، ولكن تلاميذه والمتجاوبين معه بعثوا الحياة في فكره وثقافته ونصوصه؛ فالجهد والنشر الكبير لكتاب كبار -مثل ميشيل فوكو وليفي شتراوس وبعض معاصريهما- يعود إلى طلابهم في الجامعة وإلى مريديهم، فقد صنعوا من مقالاتهم كتبًا ومواقف، وكذا حدث مع إيزايا برلين (Isaiah Berlin) وجمْع مقالاته وتحقيقها، وهو كاتب مقال طويل وليس كاتب كتب.

وأذكر أنه في التسعينيات كان ديفيد بارسيمان -وهو ناشط ومذيع وكاتب من أصل أرمني في بولدر بولاية كلورادو الأمريكية- يجري مقابلات مع الكتاب اليساريين ويبيعها في الأشرطة، ثم حولها إلى كتب لقيت رواجًا كبيرًا وترجم بعضها إلى العربية، وساهمت في نشر رؤيتهم لكثير من القضايا، وأتم عمله بأقل التكاليف. ثم أخذ العمل اليوم عند غيره مسارًا مختلفًا من خلال مقابلات مصورة، وقنوات أغلب جهودها على اليوتيوب مثل «الديمقراطية الآن» وغيرها. وبعض هذه الأعمال لم يشع جماهيريًّا، ولكن تبقى النخبة المثقفة مسؤولة عن النشر والتبادل والجدل في جهودها ونشر رؤيتها.

التنوع والتكرار الثقافي

من الأسباب التي تُضعف ثقافة الفرد، وتقلل من النقاش والحيوية الثقافية في بلد ما، إصرارُ سكانه على التماثل الشديد في ثقافتهم، وإغلاق الأبواب دون الاجتهادات، ومنع الخروج على النسق السائد، وعدم المرونة مع المخالف. وهذه الأجواء مهما يكن من الحق في رؤيتها الأصلية التي قامت عليها في خطابها الأول الثقافي؛ فإنها بإغلاق الأذهان على رأي ورؤية واجتهاد واحد تم مرة واحدة ثم يظل يقلَّد ويحوّر إلى الأبد، تعدّ من عوائق الفهم وعوائق التقدم في الوعي وضعف الحياة العقلية.

فما جدّ زمن ولا حوادث ولا أجيال إلا حملت الكثير من الفُهوم المختلفة والمواقف التي تستحق الأخذ والرد، وهكذا وجدنا النمو حيث يكون التنوع والانفتاح في النقاش، ونجد الركود والجهل والبلادة تعم في مجتمع لا يسمح بالتنوع، ونجد الإنتاج الثقافي يزيد من التنوع والجدل. ولك أن تقارن بين مجتمع خامل له فكرة واحدة في أغلب أموره وبين مجتمع يتنوع ويختلف ويتفق، كم سيكون فيه من الآراء ومن الإبداع.

وكنت في نقاش مع أحد المثقفين عن سبب زيادة الثقافة في مجتمع وضعفها في آخر، فكان السبب الذي ذكره أن التماثل والحرص عليه من أسباب الجهل والضعف، حيث لا حاجة للعقل ولا للسان أن يحاور ولا يوافق ولا يختلف مع آخرين، الكل سواء في كل شيء، ويحاربون من أجل استمرار التماثل. وقد يسمُّون جهودهم محاربة للبدعة ولو كانت حقًّا مشروعًا صحيحًا عليه كل الأدلة، ولكن يصرون على باطلهم من أجل استمرار التطابق التام أو ما يسمونه الانسجام في المجتمع.

وهنا أوهام يعتقد أهلها أن التنوع المفيد يضر بالسياسة والاستقرار والأمن، وهذا خطاب الاتجاهات المسيطرة، وخطاب أي مثقف كبر على طريقة يرعبه خلافها، ويكره ما يجدّ مما يحرجه بالبحث في ثقافة لم يتعوّد مراسها، والمتعلم يكره أن يجبره أحد في أَخَرة من العمر على معارف جديدة، وهو الذي فقد مرونته منذ زمن، فالموقف الرافض هذا يستوي فيه أن يكون الجديد حقًّا أو باطلًا؛ لأنه يرهق الجامد البارد المعتاد على نمط ثقافي واحد، ويتطلب منه المغامرة في ميادين لم يعتدها، وظهور جهله بها يحرجه، والاعتراف بالجهل بها لا يقلّ حرجًا، ومن هنا تزيد الرغبة في التنكر للجديد والمتنوع.

والتنوع أيضًا يفقد المتنفذ ثقافيًّا سلطته، فالموقف من الإجبار على ثقافة معتادة لا يخلو من نزعات سلطوية تنبئ عن ضعف المثقف أو الشيخ لا نجابته ولا قدرته، خاصة في مجتمعاتنا التي

تتميز بالنزعات الشمولية حتى في ادعاء المعرفة.

وقد كان التنوع الديني والثقافي في لبنان وضعف أي بنية منفردة أو قبيلة من قبائله بالسلطة؛ مما صنع حرية محدودة قصيرة العمر من أسباب كونه مطبعة العرب. وكان لوفود أعداد هائلة من مثقفي الصهيونية إلى فلسطين ومن مختلف اللغات والثقافات دور كبير في توسعهم الثقافي وكثرة منشوراتهم، وكذا كان لوجود دين جديد أو «تجديد قومي» وصراع مع أشياء قديمة مخالفة وأمم معادية دور في الهبّة الصهيونية الثقافية.

ولو قارنت المجتمع العربي وإنتاجه الثقافي بالمجتمع الصهيوني لما كان هناك مجال للمقارنة، فعندما زار إسحاق دويتشر دولة الكيان الإسرائيلي المحتل ذكر أن عدد المكتبات في تل أبيب وفي حيفا أو في القدس يفوق عدد الحوانيت[96]. ولو قارنا الوجود الثقافي العربي لنحو أربعمئة مليون ناطق أو قارئ بالعربية مقارنة بالوجود اليهودي لنحو خمسة ملايين يهودي لكان الفارق مُريعًا حقًّا. ويكفي أن تقف أمام رفوف مكتبة إنكليزية لتشهد العدد الكبير من إنتاجهم المترجم مقابل ندرة الإنتاج العربي والإسلامي.

صحيح أن هناك عوامل اتفاق وتقارب سياسي وثقافي صهيوني غربي –فهم فرع عن الغرب طُرد بالتعصب القومي والديني إلى الشرق بما يشبه الخروج الطوعي- وبعضهم لغته الأصلية غربية، ولكن يبقى التناسب بعيدًا.

غير أن بالإمكان أيضًا أن نقارن مجتمعًا عربيًّا متعددًا ومفتوحًا لديه انفتاح سياسي مثل لبنان مع مجتمعات عربية أخرى، وسنشهد فوارق النسبة بين الإنتاج المحلي والإنتاج في مجتمعات عربية كبيرة، ولا أقصد سوق النشر فهذه مسألة أخرى، ولكن أعني الإنتاج المحلي من المؤلفات مقارنة بغيره، وهذا له أسبابه المرتبطة بالتعليم وبالتنوع والاتفاق والتنافر.

وقد استعادت القبائل العربية وصراعاتها لبنان ليشهد حروب قبائل متطرفة تحت شعارات دينية وعرقية ومناطقية وإقليمية لا تنتهي، فقضى ذلك على كثير مما كان عملًا ثقافيًّا، وأصبح من الذكريات البعيدة.

بيئة المثقف

مهما أعطينا من قول ونظريات هنا وهناك عن دور المثقف فإنها تبقى كلمات ترن في أذن المستمع وسطورًا يقرأها يعجب بها أو يسقطها، وهي لا قيمة لها إن كانت بيئته لا تساعده على فهم الأفكار، وليس فيها نقاش حي حول القضايا الكبرى لمجتمعه. وقد يخرج أحيانًا أفراد مبدعون ومستنيرون يخرجون من ظلمات الاستبداد ولكنهم يعانون الغربة والمفارقة والاختلاف مع مجتمعهم؛ لأن المدى الذي يسمح به مجتمعهم محدود، والمسائل غريبة، ونسبة الفهم التي يسمح بها الاستبداد تحدد مدارك المجتمع، ولذا فإن المعايشة للمجتمعات الحرة، ومعاناة ثقافتها بحرص ووعي، سوف تساعد. ولئن كانت الهجرة ضرورة للمقارنة والبحث فإن معاناة أفكار الآخرين وأساليبهم تساعد كثيرًا في بروز المثقفين المناضلين، وبدون ذلك تكون المعضلة وسوء الفهم غالبة، والمتعلم لا يعرف دوره، ويقدم له الدور إما دور طبال للقوة، أو معتزل مفارق لها، وهذه مطالب الاستبداد الراسخة، تريد من المثقف إما اندماج في غاياتها وإلا صمت الأذلاء. وأذكر مرة أن وزير داخلية مستبدًا استدعى عددًا من المثقفين وعرض عليهم الأمر بكل صراحة بعد نشرهم

عرائض تطالب ببعض الحقوق والإصلاحات، فخيرهم بين السير في طريق الحكومة ومساندة ما تتخذه من قرارات، وإلا فلا نسمع لكم صوتًا لا كتابة ولا كلامًا. وفي مجتمع كهذا تتهم كل مادح، وكل مروج، وتسقط قيمة المدح، كما يصبح النقد البناء معدومًا، والفساد شائعًا بل عقيدة لازمة للجميع حاكمًا ومحكومًا. إن البيئة الحرة للمثقف ليست مجرد عون لدوره الإصلاحي، ولا وسيلة تقدم ونجاح ونصر للمجتمع فقط، بل ضرورة للناقد والمنقود للمصلح والصالح للحاكم والمحكوم، وعدا ذلك تكريس لظلمات الجهل والفساد والانحلال عاجلًا أو آجلًا. فالصمت والمدح إعاقة للعقل واللسان والنمو، فلا يشارك ولا يعمل خوفًا أو غبشًا، أو تجاهلًا للدور وهو بهذه المعاني كما وصفنا يخرج من كان مثقفًا من دائرة «المثقفية».

الأكاديميون ودور المثقف

من مؤرخي الثقافة من يرى أن بداية وجود المثقف الحديث كانت في جامعات أوروبا في العصور الوسطى[97]. ولكن من المعروف أنه ليس هناك من تحديد لشهادة الشخص حتى يقال عنه مثقف، أو أن يكون له دور بناء على الشهادة، والتعويل إنما هو على الكفاءة الناتجة من البناء الذاتي، ومن المبادرة للمشاركة في القضايا العامة والقيام بدور رسالي فيها، وتبقى الكفاءة والمعرفة والصدق في مساندة الحق والمظلومين هي مؤهلاته الكبرى. وعندما لا يكون المثقف رساليًّا في أمته فإن إتقانه وأمانته في نقل المعرفة، وتحبيبها والتربية عليها وزرع العقل المعرفي، هو حالة رسالية أيضًا، وإن لم تكن هي المقصودة في نقاشنا لعمل المثقف صاحب التأثير في العمل العام.

غير أن بعض الأكاديميين، وسعيًا وراء التميز في التخصصات، صنع من التخصص سجنًا معرفيًّا حاصر نفسه فيه بالمعرفة، فدخل عليه الجهل من هذا المدخل، مدخل الاكتفاء بالتخصص وكتبه المدرسية، وحجته الخلاص من معارف عامة سريعة كثيرًا ما تكون طابع المثقفين. وما نطالب به هنا هو ترقي المثقف لإجادة معرفية ومشاركة العالم في حيوية الحياة وإصلاحها من حوله، خاصة مع معاناة بلدان العالم الأقل تنمية من سلبية العالم فيها تجاه مجتمعه، ولأن هناك معاناة لعالمه أكبر، ثم هو يرى مثقفي مجتمعات أخرى يدافعون عن مظالمه فيما هو يرزح تحت ثقل مثالية علمية أو سلبية مجتمعية، مجلوبة من تاريخه البعيد أو من الغربي المعاصر.

وكأن المعرفة تعني بعدًا عن إشكاليات المجتمع، فمثلًا تُنقل كلمات في تراثنا تدل على بعد العالم أو المثقف عن هموم مجتمعه، وهذه لو صح نقلها لما كانت صحيحة عمليًّا، ومن ذلك قول ينقل عن الشافعي دليلًا على انقطاعه للعلم والتعلم: «لو اشتريت بصلة ضيعت مسألة»، وهذا يتنافى مع فعله الإصلاحي ومحاولة الثورة على العباسيين مما كاد يفقد روحه من أجله. وكذا نقد العامة الجارح المتناقل إن كان فعله بعضهم فلا يليق أن يقال عن غيرهم، ولو كان ظاهرة في زمن فلا يمكن أن يكون صحيحًا دائمًا.

وكم أضر بمجتمعاتنا طمأنينتها لمعرفتها وتوسعها قديمًا وسلبيتها تجاه مستقبلها، أو المعالجة الجزئية لحياتها كأن تركز على المشكلة الدينية وتترك فروع الحياة والعلم والصناعة بل تحقرها أحيانًا، مما ركز فيها داء جهل كبير سرى في المجتمع أحيانًا باسم الدين، كتقديس معرفة ضد أخرى، وهذا لا يصح؛ لأن كمية الحشو المعرفي عن تفصيلات دينية عند شيخ ينفق سنين في

الدراسة نتيجتها توسع في معرفة القديم وعائد قليل، والفرق هو الحشد الكلامي المنظم عند المعاصر تقابله المعرفة العملية المباشرة عند القديم، فالأول لم يزحمه علم الكلام وفروع الفقه عن ممارسة عملية ميدانية منتجة، بينما الشيخ المشغول بالمدارسة الذي نظر إلى مجتمعه نظرة دونية صنع لنفسه عالمًا متخيلًا من الأهمية فصله عن الحياة والمجتمع، وأغرقه كثيرًا في أوهام أهمية قوله وحفظه وشغله عن الأهمية الحقيقية في الحياة، وهنا في النهاية ليس المقياس طرفًا بل التوازن الصعب بين الطرفين.

إن التمييز بين التخصصات هدفه المساعدة في الإنجاز والاختراع والتجديد والتعريف، وليست هذه قطاعات منعزلة ومكتفية بما فيها، ولذا نرى الذين كسروا الحواجز مع المعارف الأخرى أقدر على المعرفة والفهم والإبداع في تخصصاتهم الضيقة، خاصة في العلوم والمعارف الاجتماعية. ولذلك لاحظنا تصاعد المطالب من كبار الكُتاب والنقاد لاستعادة اللُّحمة بين العلوم الإنسانية، بسبب التداخل والتأثير المتبادل. فالعقائد مثلًا كثيرًا ما يفسرها التاريخ، والتاريخ قد يفسره الاقتصاد، والاقتصاد يفسر التحولات، والعلاقات الدولية قد تفسرها الجغرافيا، هذا بين علوم متقاربة، ولكن ليس لمن يعيش في تخصص اللغة والدين أن يقطع فروع هذه العلوم عن أصولها.

علمًا أن الأكاديمي المخلص يفكر في صناعة الكفاءة الحرفية لدى تلاميذه، وقبل تلاميذه يرمي إلى إتقان حرفته، وهذا لا يحدث بسهولة، فمطالب القدرات الحرفية تحتاج إلى تعمق علمي مستمر ولإنجاز بحثي، إلى جانب ما قد يُكلف به الأكاديمي من واجبات التعليم إن لم يكن مقتصرًا على البحث. ومع وجود أمنية الحرية العلمية والمعرفية والرأي الحر فإن الجامعات الغربية -وبسبب دور الأكاديمي في الحياة الثقافية للمجتمع وتدريب الطلاب والأصول المذهبية- يمكن رؤية الفوارق في توجهاتها وتوجهات تلاميذها وأثرهم الفكري حيثما حلّوا.

ولا أنسى موقف أحد العلماء في الشريعة -وقد سمعني في برنامج «في العمق» أتحدث عن الديمقراطية وقرأ ما كتبته عنها- فعلق بأن معرفتي بالآداب السلطانية وكتب «الأحكام السلطانية» قليلة، ولا يمكّنني من الحديث في «السياسة الشرعية». ولم يتنبه إلى أن الخطاب الذي أسوقه كله نسفٌ من الأصل لبعض هذه المعارف الموهومة، فليست كتب «الأحكام السلطانية» شيئًا ذا قيمة إلا كتاريخ للأفكار، ولا عمل لها اليوم ولا أثر لها في مجتمعاتنا ولا في عصرنا. وحين يجري تفعيل دورها فغالبه سلبي يسلب الأمة الحاضرة الحق بحجة تاريخ سابق، أو يجب علينا حين نذكرها أن نستعملها لمرحلة أخرى لا للبقاء في مواضعاتها، فقد تجاوزها التفكير والعمل منذ عشرات السنين عند المسلمين، ومنذ قرون عند غيرنا. ولا يعاد الاهتمام بها إلا لاستعراض أفكار القدماء كشيء من تاريخ الفكر، أو في أحد حالين آخرين: حال الجهل بالثقافة السياسية اليوم، أو حال قصد الضرر بالمجتمع وتسخيره لطغيان باسم أحكام الماوردي السلطانية ومن نسخ عنه، التي تهدف إلى إخضاع الناس لسلطة مطلقة وتجربة متخلفة عن فكرة الرشد وعصر الراشدين، ومتخلفة جدًّا عن العصر الحديث.

ونعلم من حقائق مجتمعاتنا أن التخصصات العالية تعني أن للفرد اهتمامًا وجلَدًا في موضوع محدد، أو موضوعات حقق بها الحصول على مهنة تعليمية، ولكن هذا التعليم العالي لا يجعله قادرًا على تحقيق دور المثقف العام في المجتمع. وقد مرت مرحلة -في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين واستمرت إلى أواسطه- كانت فيها الجامعة المكانَ الذي يُظهر المثقف فعاليته الكبيرة، وكان لبعد الدولة عن الجامعة، واستقلال أساتذة الجامعات ومزيد حريتهم تحت نظام

«[tenure-متمرس] أو حيازة المنصب الدائم»، حيث يحصل الأستاذ على الأمن الوظيفي في الجامعة ما دام حيًّا، ولا يمكن إبعاده بسهولة.

وقد كان كثير من الأنظمة في الجامعات الأمريكية من أسباب قوة أساتذة الجامعات وتميزها، فاستضافوا وميزوا نوعيات فذة من اللاجئين والأجانب، وتصاعدت المجلات العلمية المتخصصة، فقد أُسست خلال عشر سنوات ما بين عامي 1978-1988 تسع وعشرون ألف مجلة علمية متخصصة جديدة[98]، واستمر هذا لبعض الوقت. وفي مرحلة الستينيات كانت الجامعات أساتذة وطلابًا في ذروة عطائها العام، وكانت الجامعات الغربية –وما زالت إلى اليوم- يخترقها تياران واضحان من اليسار واليمين، حتى لتكاد تصنف الجامعات في أمريكا بناء على هذا الوصف، وكذا الأساتذة. وقد كان للجامعات الدور الكبير القادح للهمم في مواجهة حرب فيتنام في أمريكا، وما الشخصيات الجامعية التي برزت في مواجهة الحرب واشتهرت فيما بعد إلا نماذج من حركة كبيرة عمّت الجامعات.

ولما صعدت قضية التمييز العنصري في إفريقيا الجنوبية، كانت ضغوط الشباب في الجامعات الأمريكية من أوائل من أثار مسألة مقاطعة جنوب إفريقيا؛ وذلك بسبب الموقف الراسخ في ثقافة المجتمع من العنصرية مع أوضد، منذ أيام الحرب الأهلية وتحرير الزنوج إلى حركة الستينيات مع مارتن لوثر كنج. وأذكر أنه في أول ذهابنا هناك كنا نستغرب صور نيلسون مانديلا المعلقة في الميادين واللوحات وكل الزوايا في الجامعات، ورغم متابعتنا فما كنا نعلم عن دوره المهم شيئًا، حتى جَعلت منه الجامعات شخصيةً مركزية في اهتمامات شبابها الثقافية العامة وفي محاربة العنصرية، واستمر الضغط حتى انتهى بزوال العنصرية، في وقت كانت فيه شخصيات سياسية كبيرة وحكومات غربية متعصبة للعنصرية مثل بريطانيا، خاصة أيام حكومة مارغريت ثاتشر[99].

دور الجامعات الحرة الثقافي

إنها بيئة للحوار والنضوج وشحذ الأذهان وتبادل الأفكار ونقدها، وتوفر بيئة حرة، ومتنوعة التخصصات والاتجاهات، وتعطي الأستاذ وضعًا اجتماعيًّا عاليًا من حيث مورده المالي. والأستاذ المتمرس (أي من يعيّن في وظيفة ثابتة) فإنه يضمن معيشة كريمة لا تخضع لسوق العمل، ولا لإبعاد مفاجئ من عمله، وتوفر له وقتًا واسعًا للنمو المعرفي والإنجاز دون ضغط جداول التدريس، وهذا أوضح فيما يغلب عليه وصف الجامعات البحثية. والجامعات في أغلب البلاد الحرة توفر حرية عالية وتضمنها لأساتذتها، حتى أكثر من المعدل العام في المجتمع[100].

أما في الدكتاتوريات فإن دور الأستاذ الجامعي شبه معدوم إلا على مستوى تدريسي شكلي وتقليدي بلا روح حرة ولا تطلع معرفي، وجهد غير منتج إلا الترسيخ لتقاليد وشكليات لا تحقق فوائد التعليم، ويصبح نمط التعليم في ذاته آفة أخرى من آفات التخلف، ترسخ الدكتاتورية والسلبية واليأس. وإذا زاد عليها قلة مورد الطاقم التعليمي زاد بؤس التعليم الباعث على التفكير، وحتى في بعض البلدان العربية الغنية التي تحاول الإصلاح التعليمي، لكنها تواجه بيئة الفساد العربي التعليمي العام الموروثة والأقسى من كل قدرة للثروة على البناء والإصلاح.

إن نقد المؤسسة الأكاديمية والاعتراض على تقصيرها موجود منذ وُجدت. ولعل القصة التي ذكرها حسن البنا في **مذكرات الدعوة والداعية**[101] عن الشيخ الأزهري الذي استقبلهم، ثم قدّم لهم

الشاي في أكواب الفضة، مجرد ملاحظة عابرة للفارق بين الموقع العلمي الأكاديمي الذي يحصله الشخص بجِدّه. وقد يكون الأستاذ الجامعي مجردًا عن التزامات هذا المنصب أو ذاك حتى عندما يكون أستاذًا للدين أو للأخلاق. وقد خرج للناس عدد كبير من المشايخ الذين يقف تأثيرهم عند واجب مهني خالص في شرح الدين للناس وتعريفهم به، ولكنهم لا يهتمون بما وراء ذلك، ولا يصبح لهم موقف أخلاقي ولا سياسي، فتجد الأستاذ بارعًا جدًّا في تخصصه من شرح للقرآن أو السنة، والحديث عن تفصيلات المسائل العلمية، ولكنه إذا غادر قاعة الدرس فهو من عامة الناس سلوكًا واهتمامًا، ويغلق الباب خلفه على ما قاله ليعمل ما يناقض كل كلامه السابق للناس[102].

وهذا ما سبّب نقص الثقة بعلماء المؤسسات الشرعية الحكومية، وأنتج علماء ودعاة وحركيين وأخلاقيين وباحثين عن العدل والبر من خارج هذه المؤسسة الدينية الرسمية، وتشكل التأثير والحماس والجماعات خارج المؤسسة الدينية الرسمية أو ضدها، وهذه الظاهرة سادت في كثير من أساتذة العلوم الإنسانية، فقد أصبحوا يرونها كلامًا معزولًا عن الحياة والفكر وقناعة الشخص.

هناك نقد كبير للأكاديميين الغربيين فيما بعد حرب فيتنام، وكان اللوم قد بدأ يرتفع أثناء الحرب بسبب تقاعس بعض الأكاديميين وعدم اهتمامهم بهذه القضية. وقد تصاعد النقد لهؤلاء الأكاديميين الذين ركعوا لموجة المكارثية[103] التي أدانت كثيرين بتهمة الشيوعية، وراقبتهم وأخرجتهم من الجامعات. وقد شهدتُ محاضرة ترويجية في جامعة ميتشغن لمؤلف كتاب **الحرية في أمريكا**، فقدّم في المحاضرة قصة والده الأستاذ الجامعي الذي طرد من عمله الجامعي بسبب تهمة الشيوعية، وتحدث عن أصدقاء والده الذين تعرضوا لمظالم اجتماعية كثيرة بلا سبب مقنع سوى الهوس الذي أصاب مكارثي، والذي أصبح حالة مرضية.

فالخوف الحكومي من الناس -خاصة من المثقفين- يشل البلاد ويصنع الخوف والدمار والجهل عندما توضع القرارات بأيدي ذوي الهوس الأمني، فيصنعون من خوفهم رعبًا وعبودية للبلاد وثقافة للعباد؛ لأن صاحب القرار الذي يتجسس قد يجد حوادث صحيحة فيسيطر عليه الهوس الأمني والرعب والخوف والظن السيئ بالناس فيعمم الحالات الفردية، ويُفسد هو بمخاوفه المجتمعَ، وتتردى نفسه وقدراته العقلية، وتسلبها الأوهامُ القدرةَ على التمييز بين من يخالف ومن يتآمر، وما زالت الهواجس تسيطر على رجل التجسس حتى يصاب بالأوهام والأمراض المستعصية التي لا يحلّها إلا موته أو زواله.

ومن النماذج الطريفة لهؤلاء المرضى بعض الشخصيات في الاتحاد السوفيتي البائد، ومنهم رئيس جهاز التجسس في ألمانيا الشرقية الذي كان يتابع ملفات ستة ملايين ألماني، منهم أربعة ملايين في ألمانيا الشرقية ومليونان في الغربية، ثم كان يصعب عليه تقليل العدد لمّا ألحوا عليه، وازداد شكه وحاله سوءًا حتى أدرج عددًا كبيرًا من رجال الحزب الشيوعي الحاكم ورجال البرلمان. وبعد سقوط الصنم مات وحيدًا لا يثق إلا بكلبه وهو فقط الذي بقي يثق به إلى جانبه، وعندما مات بقي فترة لم يكد أحد يعرف عن موته منفردًا في شقته[104].

ولعل حديث معاوية عن إفساد التجسس للناس من أبلغ ما روى عن الرسول: «لا تفتشوا الناس فتفسدوهم»[105]، وكذلك قوله: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم»[106].

إن النقد الكبير للأكاديميين في العالم العربي يأتي من سيطرة الحكومة على الجامعات، فهي لا ترى أن للجامعة قيمة، خاصة أن القرار السياسي كان غالبًا بأيدي الأميين وأشباه الأميين، ورأوا

في المتعلمين والمثقفين والجامعيين والجامعات مركز تهديد؛ فأضعفوا الجامعات ونشروا الرعب فيها. وتغيرت رسالة الجامعة فيها فأصبحت مواقع للشلل الفكري والثقافي والانغلاق والتحيز، وأصبح التعليم أقرب إلى حالة تمثيل، تثبت فيها أنك مُوالٍ للسلطة، لتضمن بعدها العمل المناسب، خاصة في التعليم الديني والأدبي والإداري. وهذه من أبرز الكوارث التي دمرت المؤسسة الدينية والأكاديمية، وأفسدت الجامعات وحرَفتها عن غاياتها في العالم العربي.

فالجبان في الأكاديميات خارج العالم العربي يكاد يكون أشجع من شجعان الأكاديمية العربية، بسبب تطرف المؤسسات الحكومية العربية من الجامعات وضعفها وخوفها وخضوعها التام للمستبدين. وما الجامعات عند المستبدين العرب إلا مظهر وزينة لكي يقال إن عندهم جامعات لأن دول العالم تفاخر بجامعاتها. ولما سمع المستبدون بتصنيف الجامعات الدولي دفعوا الرُّشى ليتقدموا في قوائم الجامعات المتقدمة فخرّبوا نظام العالم التقييمي. وتبقى الجامعة غريبة عند المستبدين ودورها تطويع المجتمع عن طريق التعليم وتسخيره لمصلحة المسيطر، أو أحيانًا مؤسسة غير مفهومة لهم إلا أن الآخرين عندهم مثلها.

أما في الغرب عمومًا -وأمريكا خصوصًا- فنقد السياسات العامة يبدأ من الجامعات، فمثلًا كاد المجتمع يصمت خوفًا من المكارثية، ولكن البنية التحررية كانت أقوى من استغلال المستبدين والأيديولوجيين للخوف مما سببه لهم الموقف بعد المكارثية. وقد خفتت أصوات النقد فترة ولكنها عادت في النصف الثاني من الستينيات، فاستعادت مجدها ودورها بالموقف ضد حرب فيتنام، وكشفت تزييف السلطة الحاكمة للحقائق، وتهاونها بدماء الأبرياء والتدمير الشامل في فيتنام، حتى استطاع الطلاب ثم المجتمع أن يضرب غطرسة الحكومة لتنسحب من فيتنام.

ثم حصل أن وسائل الإعلام الحديثة أصبحت تقدّم أعدادًا هائلة ممن تسميهم مثقفين وهم أقل ثقافة مما يظهرون، فالذي كان مشهورًا بأنه مثقف عام أصبح أكثر عمومية أو شهرة وشعبوية وأقل ثقافة؛ لأن الحاجة له تزيد ولا تتحسن النوعية.

وفي الجامعات والميادين الثقافية العامة يسيطر على كثير من المثقفين مزاج العامة، حين يسود في الجامعة أو التخصص أو الميدان بعض الأسماء أو الآراء، ثم لا نجد في هذه الجامعة أو التوجه أو المدرسة من حسّ نقدي ولا موقف يعترف بغيره ولا بخصومه، ولا يجدد ولا يغير. وهذه الطريقة من وسائل قتل الثقافة، وإضعاف النشاط الذهني، وإغلاق الأفق أمام الفهم أو الإبداع، فالمثقف مسوق أحيانًا بأعراف وعادات مدرسية في الجامعة أو المؤسسة، أو بنوازع سياسية وتقليدية وعقائدية معيقة للمعرفة، وصادة عن الحق باسم أنه قد وصل إليه المثقف فلان أو الإمام المقلد في زمان ما.

ومن ملاحظات بعض المثقفين النشطين على الأكاديميين الباردين أن كثيرًا منهم يراقب المؤسسة الرسمية ورغبتها، حتى لا يصادَر من أحد الناقدين أو النافذين، فالمطامع تغلب رغم الحرية الكبيرة للأكاديمي هناك. وينتقدون الأكاديمي بأنه توجه إلى كتابة النثر البارد المستوفي للشروط الشكلية الأكاديمية، والذي يفيده في الترقية ولا يفيد المجتمع في الترقي، مما يجعله باردًا هامشيًّا وشكليًّا في كثير من نصوصه.

وينتقدون على الكتابة الأكاديمية أن الجامعات تغري بالكسل الفكري، ومن يخرج على دائرة الكسل الفكري في الجامعة ويصبح ناشطًا يعدونه خارج سرب الأكاديمية وبعيدًا عن العلمية، ويرونه فاقدًا للرصانة المنهجية النسقية التي يخضع لها الأكاديميون بلا وعي. وأفظع من هذا ما

انتشر في الأكاديميات العربية من لجوء أساتذة الجامعات إلى باحثين فقراء ومتفرغين يكتبون لهم بحوث الترقية الشكلية، ويتداول أكاديميون عرب قصصًا مؤلمة لواقع النشر العلمي في المجلات الأكاديمية، ونشوء مكاتب توفر نصوصًا تجارية رخيصة تحقق عبث الأكاديميين بالبحث.

وينتقد المتعصبون للشكليات الأكاديمية المثقفين المؤثرين بأنهم لا يراعون الأنماط الأكاديمية التي درج عليها أساتذة الجامعات التقليديون، مثل ترتيب المراجع والقوانين البحثية التي سنّوها. ولا يدرك الراكدون الأكاديميون للأسف أن الثقافة التي يقضون حياتهم في محرابها قد نشأت ونضجت خارج طرائقهم، وبعيدًا عن شكلياتهم وقيودهم.

ولعل ممن أحدثوا جدلًا كبيرًا حولهم في تراثنا رجال أمثال الجاحظ وأبي حيان التوحيدي، فقد كانا يعيشان واقع الناس ويكتبان من مشاهدتهما اليومية، فالجاحظ لا يأبه أن يقول روى لي فلان القصاب، أو قال البقال. وكان أحيانًا يتحدث عن كثير من عامة الناس ومنهم خادمه، ففي كتابه يعيش المجتمع وتراه وترى همومه، وأبو حيان جعل من كتاباته حياة زاخرة بكل ما حوله خصومًا وأصدقاء.

وفي زماننا نجد الشيخ علي الطنطاوي تَعْمُر كتبَه تفاصيلُ الحياة. وفي بريطانيا كان برتراند رسل نموذجًا للمثقف العام الحيوي الذي تكاد تجده في كل ميادين الاهتمام المجتمعي في زمنه. وفي أمريكا شخصيتان أكاديميتان كسرتا الطقوس الأكاديمية هما: إدوارد سعيد وتشومسكي، فالأول يرون أنه خرج من تخصصه في الأدب والنقد لجَوسِه عالمَ السياسة والفكر التاريخي، وأضعف مكانته الأكاديمية فلا يعترف السياسيون به سياسيًّا، ولا المؤرخون للأفكار يرونه من أهل ميدانهم. وتشومسكي لا يرونه إلا خارجًا على الأعراف الأكاديمية في تخصصه في اللغويات، فلم يقبل به السياسيون الأكاديميون في تخصصات العلوم السياسية رغم كتاباته السياسية المهمة، وحتى اعتراضاته على الديمقراطية الرسمية لم تُقبل في سياق النقد. وفي مجال التاريخ اقتحم مبدعون مجال التاريخ ممن ليسوا من أعضاء النسق الأكاديمي وأبدعوا في هذا المجال[107]، وهم لا يلتزمون بكثير من طقوس النصوص العلمية المتبعة في التخصص.

ويسخر بعضهم من أن المثقف الأكاديمي مركّب من ذكاء متميز وغباء واضح، وتنتج من الاثنين شخصية الأكاديمي المطلوب في الحقل، فيرفع ويضع لأسباب مدرسية خالصة، لا بسبب النفع العام والضر العام. إن هذا النمط المغلق من المتخصصين يصدق على بعضهم قول آدم سميث -عند كلامه عن فوائد تقسيم العمل ومضاره- حين رأى أن هؤلاء المنعزلين عن المجتمع والمشاركة العامة فيه يصدق عليهم نعته لهم بكونهم «حمقى متخصصين، أي رجالًا مبتورين مشوَّهين في ملكاتهم الفكرية»[108].

ومن الملاحظ أن التخصص والبراعة في جزئية كثيرًا ما تورد صاحبها موارد الكِبر، فإن إحساسه بالمعرفة الجزئية يُشعره بأهمية خاصة، فيحاول أن يلبس موضوع معرفته أو تخصصه أهمية أكبر لدورها ومكانتها العظمى في علوم البشرية ومعارفها، كما يُخيل إليه. ولعل مشاعره التي يقتنع بها نفسه ليست في الواقع بسبب الأهمية الكبيرة لتخصصه، بل بحثًا عن أهمية لنفسه بين أمثاله، أو بين من هم أقدر منه في تخصصات أخرى أو علوم أخرى. وهؤلاء يحرصون على بناء جدران بين التخصصات والمعارف تعلو بمقدار ما يكون المتخصص فيها جاهلًا ومحصورًا في علوم قليلة، وتنزل هذه الحواجز أو تغيب عند من يملك ثروة معرفية وقدرة مستوعبة ومتجاوزة لموضوع تخصص صغير.

نعم توسعت العلوم والمعارف بشكل مذهل لم يتخيله السابقون، ولكن كسر الحواجز المعرفية ضروري لاستيعاب منهجيات موازية ومعرفتها، ربما تصنع أو تعين على حل مشكلة في التخصص، أو قد تحمل حلولًا لإشكالات، وإن لم يكن فلا تقلّ عن رياضة ذهنية أو عقلية أوخطابية أو كتابية، تجدد الطاقة والخبرة في مجالات أخرى، فكثيرًا ما جرب متخصصون ميادين معرفية أخرى فأنجبوا أو أنجزوا فيها خيرًا مما كان في اهتماماتهم الأولى، التي ربما صرفوا فيها ثلاثة عقود أو تزيد من أعمارهم قبل الانتقال المثمر، وإلا فلنقل إنها قد تعطي متجاوز التخصص متعة عقلية أو أدبية بعيدة عن ميدانه.

وقد كان روبرت أوبنهايمر –وهو أحد أهم مهندسي القنابل النووية- عاشقًا للأدب الفرنسي، وكان ينصرف كثيرًا إليه، فساعده المجال الأدبي ومعرفة اللغات في فتح آفاقه الفكرية، وفي صناعة تحولات إنسانية لاحقة عمل لها ضد انتشار السلاح النووي وبقائه في العالم، بخلاف ما لو بقي في دوائره الهندسية الأولى مهما كان دوره خطرًا أو مؤثرًا في حياة البشرية حين كانوا يرونه أبًا للسلاح النووي، وكذا فعل برتراند رسل في مواجهة السلاح النووي، وقد قام بدور المثقف وليس فقط العالم الرياضي ولا الفيلسوف.

وهناك من يحترف خداع الأكاديميين وعشاق الطقوس الأكاديمية بأساليب استعراضية. مرة جاءني صديق نبيه له علم شرعي راسخ يحمل كتابًا مثقلًا بالهوامش والمراجع والتخريجات للنصوص، وألقاه متعجبًا من الجهد العلمي في الكتاب. وكنت قد اطلعت على البحث، وأعرف الرأي السقيم البسيط الذي يحمله المؤلف فقلت: عجبًا لك! كيف يغويك الشكل المبهرج للاستعراض الأكاديمي عن الخرافات والأكاذيب والأوهام التي هي حشو الكتاب؟ أما فكرته فلا تقوم على حجة، بل فكرة بالغة الفساد تنحو نحو تأليه المتسلطين وعدم نقدهم، وتضر بكل قيمة وحرية وكرامة للإنسان. ولهذا فإن بعض الأكاديميين يقعون في خطر الخضوع للشكل والإخراج من هوسهم به، ومن تشدد الجامعات فيه، وسيطرة التقليد السطحي على المضمون، ولكنهم يغفلون تمامًا عن مسألة: هل لهذا النص فائدة أو قضية أو زيادة معرفية؟ فضلًا عن أن يكون إضافة أو أن يكون صادقًا فيما يدعيه. ومع هذه السلبيات، فإن للعمل الأكاديمي بعدًا تراكميًّا يتجمع ليشكل طفرة يقطف ثمارها المبدعون العباقرة، وربما لولا التراكم ما طرأت الطفرة.

يتميز المثقفون عن غيرهم من الباحثين والعلماء والتقنيين بأن عملهم لا يسمح لهم بالغرق في تفاصيل مهنة، مثلهم مثل رجال الدولة في المواقع العليا، أو كما نصحهم معاوية بألا يهتموا بدقائق العلم. ولهذا فالتجار الحاسبون والأطباء والتقنيون المنهمكون في اهتماماتهم لا يدرك كثير منهم الحقائق العامة المؤثرة؛ بسبب انهماكهم في جانب عملي، ولولا انهماكهم فيه لقلّ نجاحهم وإنتاجهم، إذ الانهماك في جانب يصنع غفلة عن آخر، فالانهماك العقلي يضعف القدرة على ملاحظة القضايا غير العقلانية، مثل المنهمك في الخرافة يبتعد عن العقل كثيرًا؛ مما يسبب تعبًا جسميًّا وذهنيًّا يعيقه عن ملاحظة الجوانب الأخرى، والقلوب إذا كلّت عميت، والإرهاق يُنقص قدرةَ الفرد على الاختيار، ويقلل حريته وراحته، وفقدانُ الحريةِ والإرهاقُ يُضعفان الذهن وربما يؤديان إلى تبلده خارج دائرة التخصص.

يشير وايتهد إلى أنه كان يرى الأطباء في لندن بعد عملهم المنهك يلتقطون الكتاب أو الصحيفة ولا يفقهون ما يقرؤون من شدة الإجهاد، فقد تكون هذه الفئات دقيقة علميًّا وعطوفة على الناس،

ولكن لا يتوقع من أفرادها أن يفهموا مشكلات المجتمع؛ لأن كثيرًا من العقلانيين لا يعبّرون عن مجتمعهم[109].

وقد كانت لي علاقات كثيرة من العمل المتنوع والاهتمامات الثقافية مع المهندسين والأطباء لزمن طويل في بريطانيا وأمريكا وكندا، وكانوا الأغلبية من الصفوة في المجتمعين العربي والغربي، ولكن كنت أعاني مع كثير منهم غيابًا للوعي العام بما يدور في المجتمع الذي يعيشون فيه أو المجتمع الذي جاؤوا منه، وكنت أتعجب من استعدادهم لقبول الأوهام والخرافات. ورغم عقلانيتهم المهنية وعقلانية موضوعات بحوثهم، فهم في القضايا الاجتماعية غير عقلانيين وضعاف الحصافة والتجربة، وتحكمهم أوهام أو حقائق يرونها جامدة، أو حسابات رياضية غير قابلة لأن تحيا أو أن تؤثر في حياة الناس، ويتعاملون مع الشؤون الإنسانية بكَلَل، فإما أنها مادة تمكن معالجتها معمليًّا أو روحًا فوق الفهم.

وكان من نماذج ذلك ورقة تركها لي طبيب أصبح شهيرًا يسجل فيها خسائر زملائه -وأغلبهم أطباء- في مشاريعهم التجارية بكندا، وقد خسرت جميع تلك المشاريع، إذ لم يكد ينجو أحد منهم من السقوط في الاستغلال؛ لأنهم مشغولون بالتخصص عن رؤية الواقع ومعرفة من يتعاملون معه[110].

ومن مهام المثقف -وهي أيضًا من عقبات طريقه- أن يخاطب مختلف المستويات في المجتمع من المثقفين والعامة، وزادت هذه المشكلة كثيرًا بعد توفر وسائل الاتصال الكثيرة التي تصل إلى شتى بقاع العالم وشتى مستويات التفكير. ثم إن كل طرف له مطالبه من المثقف وله خطابه الذي يناسبه، وشعبية المتحدث تتأثر بالمجموعتين، ولهذا كان على المثقف أن يقوم بتبسيط الأفكار وشرحها، والترويج لما يراه حقًّا، والتنازل عن التعقيد الأكاديمي في خطابه للعامة، ويراعي ذوي المعرفة والبراعة. ولم أر واسع المعرفة وعميق الفكر إلا ناجحًا غالبًا في تجاوز هذه المحنة، خاصة عندما يكون قريبًا من حياة المجتمع ومشكلاته، ومتابعًا لما يحدث. أما من كان مختفيًا في حصون معرفته فقد لا يكون ممن نتحدث عنه هنا لضعف حضوره المؤثر، وبُعده عن النفع المجتمعي مع قلة مشاركته في الحياة العامة.

غربة المثقف

في نهاية المرحلة التعليمية المتوسطة تعرفت إلى مثقفين نشطين من المدرسين كانوا يبدون غرباء عن مجتمع مدينة أبها المحافظ رغم محافظتهم، ولكنهم يبقون غرباء، والغريب مهما اقترب من غير مجتمعه يبقى هامشيًّا، الود منه غريب، والحرص منه غريب، والتفاني في المجتمع والجوار غير متوقع، ليس لأن الناس يحبونه أو يكرهونه، ولا لأنهم يكنّون له أي مشاعر سلبية أو إيجابية مسبقة، ولكن البعد الذي يشعر به مجتمع تجاه آخرين، وحنين الغريب إلى بلده وإصراره على العودة يزيدان من غربته ولا مبالاته بما حوله، فكل ذلك مؤقت وعابر.

وصاحب هذا المزاج والقناعة لا يتكلف التعرف ولا يريد بذله، زد على ذلك انغلاق المجتمع المستقبِل ولا أقول المضيف، فأحيانًا مجتمعاتنا لا تستضيف. قد تقوم بواجب ضيافة ولكن ليست استضافة شاملة ودودة ومتكاملة، وربما يستغرب أقرباؤك صداقتَك مع من يرونهم غرباء عن

بلدتك. وكلما كانت المجتمعات مغلقة من قبل صنعت هذه الأحجبة ضد البعيدين، حتى وإن كان هذا البعيد قريب الدين واللغة والأصل أحيانًا.

ولكن غربته ليست بعيدة عن الطرافة؛ فاستقبال المجتمع لسلوك الغريب وثقافته وعمله أحيانًا أكثر استنكارًا مما يعامل هو مثقفيه وأساتذته ومظاهر مجتمعه، ليس من ناحية حق وباطل، لكن من ناحية استغراب واستنكار يندفع مع أو ضد في رد فعله مع الغريب بطريقة أكثر من موقفه من البلدي، ويندفع خصومه ومؤيدوه لتكريمه أو شيطنته أكثر.

في تلك المدينة النائية خرج علينا بعد صلاة الجمعة واعظ شديد الشقرة، فارع القامة، بقميص صيفي وردي، كان هادئًا وعميق الصوت لا تظهر عليه مظاهر التدين، وتحدث حديثًا جميلًا بقيت آثاره في ذاكرتي على توالي السنين؛ فهل كانت غرابة الشكل شفيعًا لرسوخ النص؟ أم الوعظ من غير الواعظ؟ ربما، وهذا بعض ما يقوي أثر الغريب ويضعف أثره في الوقت نفسه.

فالمثقف المغترب قد يحمل على عاتقه مشكلة غربته التي تضعفه وتثقله بأسئلة ومبررات وجود ومشاركة أكثر، ومع هذا يرى البلدي أن الغريب يأخذ أكثر لو أخذ القليل، ويستحق الخسارة في المنافسة لأنه غريب وبعيد، إذ يميل المحليون غالبًا إلى توطين قوله ونبذ ذاته، لما في الأول من إغناء وما في الثاني مما يرونه زيادة ومنافسة ونقصًا لهم.

والمثقف الغريب تقوى فكرته كلما قلّت علائقه وحساباته، وخفّت شجونه المحلية، وربما كانت أقرب غالبًا إلى المثالية لأنه خفيف الارتباط بالأرض، قليل المجاملة الاجتماعية في الفكرة؛ لأن المجتمع الغريب عنه بعيد التواصل مع فكرته، وأقل عبئًا في التزامات الوقت لبعده عن تفاصيل ضغوط المجتمع، أو لأنه يريد مهجره جنة له ولغيره ممن خفّ وطؤهم على الأرض، وكلّت أقدامهم على الدروب البعيدة. إن مشاعر البعد عن البيئة من سلبيات المثقف المغترب التي يحملها على عاتقه ويراه من خلالها المجتمع المحلي، وأحيانًا تستولي عليه وليست في الواقع كثيرة الوقع عند المجتمع، وقد يقبلونه ويقبلون فكرته وما يعرضه ولكنه هو من يصنع الحواجز وأوهامها.

المثقف الفلسطيني نموذج للمثقف المغترب، ويطيب لمريد البرغوثي أن يصفه بأنه صاحب حل مؤقت دائمًا وإلى أن تتضح الأمور، «كل ما نفعله مؤقت وإلى أن تتضح الأمور، والأمور لم تتضح بعد عشرات السنين، في نكبة 1948 لجأ اللاجئون إلى البلدان المجاورة كترتيب مؤقت، تركوا طبيخهم على النار آملين العودة بعد ساعات، انتشروا في الخيام مؤقتًا وحاربوا من عمّان مؤقتًا، ثم من بيروت مؤقتًا ثم أقاموا في تونس والشام مؤقتًا»[111].

المثقفون المغتربون نموذج متجدد عبر الثقافات، يكثر عددهم وتتحسن نوعيتهم في لحظات يقظة الأمم وأزماتها الكبرى مع أوضاعها السابقة في لحظات التغير بأنواعه والتجديد، لم يخل منهم عصر، ولكنهم في عصور الحيوية لأي أمة يعلو منهم مؤثرون كبار، وثائرون وموجهون وزعماء وعملاء وتائهون وفاسدون ومصلحون. وكثيرًا ما كان الإصلاح مرتبطًا بهؤلاء المهاجرين عبر الأمم والشعوب، خاصة من تيسرت له منهم الرحلة الفاحصة؛ فمنهم من جمع إلى جانب المعرفة والرحلة القسرية رؤية إنقاذ يولد كثير منها من الألم والمقارنة بين شعب وشعب، وبين فكرة وفكرة، وسلوك وسلوك، وحكومة وأخرى.

وقد كُتبت نصوص كثيرة حول هذه الظاهرة، مما يجعلنا نشير فقط إلى أن هؤلاء -في كثير مما سجله لنا التاريخ- قاموا بأعظم الأعمال للأمم التي خرجوا منها، سواء كانوا رحالة أو مغتربين

للمعرفة أو مغتربين قسريًّا، فقد كانوا نَقَلة للمعرفة، وكانوا مِلْحَ الشعوب، ورواد الإصلاح، وسببًا لكثير من الخير والشر لمجتمعاتهم، ولو أن مساوئهم لا تُذكر إلى جانب ما قدموه للعالم عبر الدهور.

ولعل من أظهر لوازمهم القلق الذي يحكم رؤاهم وثقافتهم، خاصة من كانت غربته قسرية، إذ تضعف علاقته بالأرض والناس، وأحيانًا حتى ببعض القيم المجتمعية، فهو يعاني من مشاعر الاجتثاث، وعدم الانتماء إلى الناس والمكان، وتكبر عنده مكانة الأفكار على حساب مكانة الإنسان والمكان ومكانة القيم، قد يعاملها بتطرف سواء كان معها أو ضدها؛ لأنه يعيد تقييمها فيضطر إلى أن يصنع لها ميزانًا مغايرًا لموازين الآخرين، فهو يراها من بعيد من خارجها أو من لا مكان.

ومن الظواهر الأكثر انتشارًا في زماننا أن أغلب مثقفي القرن العشرين الميلادي -وربما بدأت الحالة قبله- كانوا من المهاجرين، والمثقفون الكبار -مثل فولتير ومازيني وماركس والأفغاني وشكيب أرسلان وإنجلز ولينين ومحمد أسد ومرمادوك بكثال ومالك بن نبي ولويس ألتوسير وإدوارد سعيد وتيزفيتان تودوروف وجاك دريدا ويوسف القرضاوي وراشد الغنوشي ومحمد أركون- عاشوا مغتربين غالبًا.

وكما يعاني المثقف الملتزم بمجتمع وعادات وعلاقات بوعيه أو بدون وعيه، فيقدم منها اللامعقول واللامقبول واللامبرر إلا لوشائجه وأعرافه؛ فإن الآخر يعاني من عدم تقدير لها وأحيانًا كثيرة لا يفهمها، ولا يعرف ضغط العرف والعادة على المثقف المحلي المجتمعي، المأسور أحيانًا بما هو ضد عقله ودينه وقناعته، وبأعراف أرسخ مما سواها من اعتبارات.

والمثقف المنفي قد تصبح الثقافة وطنه، وكما يصنع منها المقيم منزله فهو يجعلها الموطن والبيت. ويكسبه المنفى حالًا وخُلقًا آخر. كما يشير إدوارد سعيد إلى أن المثقف في المنفى هو «بالضرورة ساخر ومتشكك.. إنك حين تترك موطنك لن تتمكن ببساطة -أينما حللت- من أن تستأنف حياتك وتصبح مجرد مواطن آخر في المكان الجديد، وإذا أصبحت هكذا فإن الجهد المبذول يشتمل على قدر كبير من الإحراج الذي نادرًا ما يستحقه هذا العناء، بإمكانك أن تُمضي جانبًا كبيرًا من وقتك متندمًا على ما فقدت، حاسدًا للمحيطين بك ممن هم دائمًا بين أهليهم وخلانهم، وقرب أحبتهم، يعيشون حيثما وُلدوا ونشؤوا، دون أن يضطروا أبدًا لا إلى اختيار فقدان ما كان يومًا لهم فحسب، بل فوق ذلك أيضًا إلى مقاساة الذكرى المعذبة لحياة لا يستطيعون العودة إليها.. ويعني التشريد الإبعادي للمثقف تحررًا من المهنة الدائمة المعتادة.. فالمنفى معناه أن تظل دائمًا هامشيًّا، وأن ما تفعله كمفكر يجب أن يُخلق لأنك لا تستطيع سلوك سبيل قضي به. إن وضع الهامشية يحررك من وجوب التحرك دومًا بحذر لأنك لم تعد عضوًا في مؤسسة، ولا تفسد على من حولك تدابيرهم؛ لأن المثقف الهامشي غير مدجّن مثل المنفي الذي ليس حوله أحد، فهو يستجيب لحال المسافر لا للحاكم، للمؤقت والمحفوف بالمخاطر لا للمألوف، للابتكار والاختبار لا للوضع الراهن المكرَّس سلطويًّا. فالمثقف الذي تتقمصه حالة المنفى لا يستجيب لمنطق التمسك بالأعراف، بل لجرأة المغامرة، ولتمثيل التغيير، وللمضي قدمًا لا للركود والجمود»[112].

يمثل ابن خلدون في ثقافتنا نموذجًا مؤثرًا وكاشفا لأثر الاغتراب على المثقف، فصدماته الذاتية صنع منها صدمات لمجتمعه وعلماء مجتمعه وأفكار عصره وأفكار العصور اللاحقة. وكان اغترابه المكاني واغترابه العملي وتشتت تجاربه رصيدًا عظيمًا في إنجاز الإبداع الفكري والغربة والانقطاع، وتمثلت فيه صورة الغريب الذي يقلّ تقديره في مواضعات رجال زمانه[113].

وكذا كان اغتراب ابن عربي المتصوف وابن العربي الآخر الفقيه عجيبًا في صنع الوعي بالبلد المغترَب عنه أو فيه، ونقل حصاد وعي وتجربة من المشرق إلى المغرب والعكس. أما في زماننا فإن الوعي يمر بالغرب، «فالمثقف العربي مهاجر 'غريب' وإلا فهو معطل عن العمل، موقوف محال على معاش مبكر... وعليه دائمًا أن يجيب عن أسئلة يطرحها الغرب»[114].

ثم إن اغتراب المثقف في لغة أخرى تجعل الغربة غربتين، وإن كانت عند المتنبي ثلاثًا:

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

فحنين المثقف إلى لغة يترك أثره فيها حنينٌ أعمق من أن يُختزل في مجرد وجود فكرة له، ولكنه يحنّ إلى أسلوب وتوقيع ومذاق يتركه في لغته، ولهذا تجد الكُتاب الذين اضطروا إلى الكتابة بلغة أخرى لا يُخفون قلقهم من فقدان ذواتهم، وهواجس هوياتهم المتمزقة بين البلدان واللغات. يصرخ بهذا الألم إدوارد سعيد في غير ما مكان خاصة في مذكراته (التي هي الأضعف من بين أعماله)، وتجد هواجسها عند العرب الذين كتبوا بالفرنسية من أمثال أمين معلوف والطاهر بن جلون.

إن معاناة المثقف مغتربًا أو عائدًا أو مشردًا دائمًا لا يمكن أن تنفصل في قلقها عن قلق أفكاره، كما أن من الإنصاف أن نرى ركود المثقف المستجيب للسلطات يحد من إبداعه، ومن لذعة التحرر والانطلاق واللامبالاة بالمؤسسة تلك التي تضع شواهدها على نصوص وألفاظ المشرد، وهي لذعة نجدها في ألفاظ وتجارب وسياقات المغتربين المشردين أو المنفيين في مجتمعاتهم أو خارجها. إن هذه اللذعة في الغربة نجدها عند أبي العلاء المعري وأبي نواس وابن حزم وسفيان الثوري وجان جاك روسو وماركس، وهي سلوك المتنبي الهارب المسافر الذي يضيق بكل مستقر مقيم:

ذَراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام

وما في طبّه أني جواد أضر بجسمه طول الجمام

تعود أن يغبّر في السرايا ويدخل من قتام في قتام

إن المثقف المغترب ملح الثقافة والمجتمع، يحمل أكثر من مجتمع وثقافة، ويقلها على منقل الوعي والنضج. فنماذج المثقفين المغتربين في القرنين الأخيرين نماذج رائعة في الوعي والنباهة وإثارة التفكير، والإشارة إلى معاناة الإنسان العاجز، ويصعب سرد قائمة هنا لغناها بأسماء كثيرة. وكذا خطاب المثقف المغترب وأفكاره لاذعة محركة وناقلة وناقدة للمتواضَع عليه، ومن ثمّ تهز الأمم المستقرة وركودها، وتغامر بعقول المستقرين فيها فيرحلون معها رغم استقرارهم ويستعذبون غربتها، على رغم كراهيتهم الاغتراب والعزلة. وفي بعض الأحيان تكون جهود المغترب الثقافية ردًّا على المجتمع الذي اغترب فيه، أو فيها أثر كبير لذلك[115].

المغترب يبحث عن مكان، وبما أنه قد نزع نفسه من أرضه أو انتزعه غيره أو هجّره من منزله؛ فإن الكتابة تصبح بيتًا آمنًا يوجد ويأمن فيه، ويجاور ويزور ويتصل ويتواصل عبر هذا المنزل الجديد.

إنه يطور قواه وتتزايد قدراته كلما شعر بمشاعر الاغتراب المكاني، فالكتابة عنده وطن وراحة وتعويض وانتقام ممن هجّره. في مغترَبه يصفو فكره أو يخيل إليه أنه يبتعد ليصفو ذهنه من المكدرات المحلية الكثيرة، وفي الاغتراب أو مسكن المثقف الجديد يرى التماثيل من بعيد، يراها

تصغر أو تتصاغر أو يصغّرها هو بخلاف ما لو كان بجوارها حاضرًا؛ لأن وارده من غيرها كثير، وأزماتها أقل حضورًا من ناحية ومن ناحية أخرى تقترب، يرى دوره مهمًّا رغم أنه قد يتراجع فعلًا، لكنه يعلم أن غربته تلفت العيون والأذهان والقلوب إليه، فلماذا يسكن خارج الأرض، خارج المكان، ومؤثرًا في الزمان؟

سؤال الناس يصل إليه مرة مضاعفًا، يضاعفه هو ويُكبّره عند نفسه، وكذا الناس يرونه أكبر من وضعه الحقيقي، مرات يرونه أكبر، ومرات يختزلونه في مجرد هارب أو مهاجر أو مُبعَد. إن الناس وقضاياهم وأماكنهم تتخذ شكلًا جديدًا عند المثقف المغترب، ولا يمكن لمثقف مقيم في بلده وبين قومه أن يرى الأمور كما يراها مثقف مغترب، ليس هذا تزكية ولا نقدًا لمواقفه بل تأكيدًا لاختلاف منظوره؛ فهو يرى الأمور مرات بالروح ومرات بالذكرى، ومرات بمِقرابٍ مكبر من بعيد يكبر بعض القضايا الصغيرة. وأسئلة مجتمعه تهبّ عليه أحيانًا أكثر من المقيم، فهل هو أذكى؟ أم أبعد مدى؟ أم أقل صبرًا؟ أم صاحب مشروع يريد أن ينبه إليه الغافلين؟

الغربة وحدها سؤال قبل السؤال، سؤال مُلحّ على المشاهدين من بعيد وعلى الملاحظين من قريب. إنه سؤال لا يكف يطارد الغريب، ويلاحق المراقب له. كثيرًا ما يرون في الغربة جوابًا، وحين يفتقدون الجواب فإنهم يغرقون في صنع الإجابات الجديدة، ومهما تزايد بُعد المثقف واغترابه فإن السؤال يطارده، وهو يحاول أن يجيب. في بعض أحوال المثقف الجواب واضح فوق جبينه، وأحيانًا الحال العام يبعثه؛ فسؤال الغربة قد يكون جوابه العيش وشروطه، وقد يكون جوابه الحرية وإلحاحها عليه، ومعرفته أن بلده أو ولاءه السياسي لا يمكّنانه من حريته. فقد هاجر كثيرون إلى الشيوعية، وإلى القومية، وإلى الإسلام، وإلى مطالب تبشيرية وسياسية مسيحية، أو إلى جاذبية مكانية أو شخصية أو تاريخية، أو موضة زمنية، وهرب منها آخرون. هذا في ميدان الثقافة ولا أعني مسألة المعيشة هنا.

والجميل أن سؤال الغربة يحيط بالمثقف، يبحث عن إجابة وقد يبتدع أخرى، فينجز أو يكتب ليجيب عن سؤال اغترابه، ولذا فإن اغترابه يصبح بداية لثقافة، أو إثراء لها، مثله مثل السجن، فالسجن سؤال يثير إجابته ويثير كتابته، ويؤسس حياته في عقول نزلائه ولقربه ولألفته يوم يغيبون، ويحضر للعالم حين يغيب، ويكبر حين يصرون على تصغيره.

أحيانًا ينعم المثقف المغترب عن أوطانه وثقافته بفائدةِ رؤيةٍ من بعيد برويةٍ وانفصالٍ وهدوءٍ وبتقييمٍ عامٍ للموقف لا ينعم به المثقف المندمج في الحدث والمعاناة اليومية، ولكن المغترب في الواقع لا يعيش المشهد التفصيلي اليومي، ومحكوم أحيانًا بظروف محيطه وثقافته وعلاقاته مع أو ضد، علاقته بالمؤسسات التي يعمل فيها وأثر ذلك في موقفه، خطورة الاهتمام الفكري وليس العملي، وهذا يسبب غرقًا في الفكر وتناسيًا للعمل. وقد شاهدت من المثقفين المقيمين في الغرب هذا الإغراق في الأفكار البعيدة عن إمكان التطبيق، إلا في المجتمع الغربي الذي يعيشونه أو المجتمع العربي أو الشرقي المتخيل وليس الواقعي.

«فكروا باستقلالية تامة، وحافظوا على المبادئ الأخلاقية الأساسية،
وأولها تحمل مسؤولية ما تقومون وما لا تقومون به من أعمال»

نعوم تشومسكي، نداء إلى المثقفين

فاعلية المثقف

هنا قصة من طريف ما نُقل من التراث إلينا، وبعضهم ساقها في سياق المدح وهي تدل على سلبية تامة، فقد قال سفيان الثوري: «رأيت في مسجد الكوفة شيخًا يقول: أنا في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي. لو أتاني ما أمرت بشيء، ولا نهيت عن شيء، ولا لي على أحد شيء، ولا لأحد عندي شيء»[116]. وهذه والله نكبة الإنسان وخسارة الدين والدنيا، أن يعدّ أحد أن السلبية والهامشية هي الدين والتقى، وهذا مخالف للمنقول والمعقول، من الدين ومن السلوك المستحسن. غير أن الإنسان تعود أن يختار ما يناسب مزاجه فيجعله دينًا، ويتنكر لكل ما تم وما نُقل بإجماع العالم كله؛ فقد كانت فاعلية المسلمين الأخلاقيين والتقاة تفوق الخيال، بينما هذا يرى أن يموت قبل الموت بثلاثين سنة!

ولا أشك أن سفيان ساقها سياق الكراهية لهذا السلوك، فقد كان الإمام سفيان فعالًا ومتحديًا وسياسيًّا ثائرًا من الطراز الأول، وعاش مصلحًا ومعلمًا محرضًا ومتخفيًا في أواخر حياته[117]. ولعل مالك بن نبي لو وجد هذه الحكاية الطريفة لأعجبته، وهو ناقل المقولة الساخرة من الكسالى والسلبيين في عصور الانحطاط: «نأكل القوت وننتظر الموت».

إن المثقف عادة ما يكون بين نثّ ونسّ[118]، ومن لا تنثه الأحداث أو تثير اهتمامه فهو سلبي ومن قوم النس، حيث ينسّ الجالسين والقضايا والمواقف، فيقضي بتهدئته على موجة فعل وتحرك.

المثقف هو من يقوم بدور صناعة الأفكار وتحليلها[119]، وكذا صناعة الإجماع على طرفي النقاش مع السلطة أو ضدها. ومن الإجماع ما يكون سلبيًّا، حين يصنع الإجماع وفق رؤية الحكومات وضد مصالح الشعوب. ومنهم من يرى أن المثقف هو القائم على صياغة التوافق الاجتماعي، وهمّ المثقف «النظام والاستمرار في الحياة العامة». ولكن إدوارد سعيد يختار دورًا آخر للمثقف وهو «الطعن في المعايير والأعراف السائدة». ويبدو أنه يختار هذا التعريف بسبب سيطرة الدولة على الثقافة، ويسمي الدولة الأمة (التي يسميها الأمة المنتصرة الغالبة)، وهذا فكر وموقف منسجم مع موقف مثقف اليسار الغربي الذي عاشه.

وقصد تشومسكي بتعريفه ما يراه من دور المثقف في العالم الغربي، وأن الدور الذي تصنعه الحكومة له هو هذا الدور، بحيث يصنع توافقًا على ما تريده، ولكن المثقف المختلف مع السلطة يهمه أيضًا أن يصنع توافقًا بديلًا مضادًّا مرة ومتفقًا أخرى[120]. فدور المثقف عنده «أن يقول الحقيقة وأن يكشف الكذب». وفي مكان آخر يقول: «إن المثقف في موقع فضح أكاذيب الحكومات، وتحليل الأفعال بناءً على أسبابها ودوافعها وأحيانًا نواياها الخفية». ثم ينتهي إلى أن قضية المثقف في النهاية «مسألة أخلاقية»[121]. فالمثقفون يقومون بـ«صناعة العقائد وتحليلها»[122]. أما الفيلسوف ويليم جيمس فيرى أن مسؤولية المثقف هي «حماية المجتمع والدفاع عنه ونقد السلطة». وللأسف فإنه كثيرًا ما تصيب الثقافة بمعناها المعرفي أهلها بالغرور والتعالي على الناس، فيغرقون في نرجسيتهم وينسون دورهم، وإنما من مهمات الثقافة ودورها التهذيبي لصاحبها، ومن أخلاقياتها العطف على غير المحظوظين من عموم الناس.

ويرى المستبدون -خاصة المثقفين منهم- أن على المثقف أن يعيد صياغة المجتمع وفق رغبة السلطة ورؤيته، أو كما يقول ستالين في عبارة له شهيرة: «الكُتاب هم مهندسو النفس الإنسانية»[123]. فهذا دور الكتاب كما رسمه لهم في ذهنه ثم نفذه بعنف وإرهاب؛ مما سبب القضاء على الثقافة والأدب والإبداع في روسيا، وأنهى حريات الناس عمومًا والمثقفين خصوصًا، بل ليست فقط حرياتهم؛ فقد قضى على حياتهم في المنافي بسيبيريا والمحاكم، والاغتيالات شاهدة على معاناة المثقف في زمنه، وتاريخه شاهد مرعب على موقف المستبد من العقل والمعرفة. وجميع النماذج الشيوعية كانت متطرفة وقاصمة في التعامل مع المخالفين وتخوينهم، ولهذا كانت نهايتها سوداء مرعبة، وفي زمن قوتها كان واقعها أسوأ من أخبارها.

ويرى هادي العلوي أن «دور المثقف مهم وضروري في ظل سيطرة السلطة التسلطية/ السلطوية على الفضاء السياسي والاجتماعي والثقافي في البلدان العربية. فالدول العربية ذات الطابع الوطني والشعبوي تقوم على منطلقات تعزيز الفساد السياسي والإداري والمالي، وتحاول دائمًا إغراء المثقف للانضمام إلى أجهزتها وأحزابها وقنوات سيطرتها السرية. هذا الابتزاز المنظم للمثقفين والإنتلجنسيا يجب أن يقابل بتمرد وعدم خضوع المثقف لمثل هذه الابتزازات أو الإغراءات؛ لأن المستفيد ليس الدولة ولا الجماهير، بل رؤوس الدولة وأزلامها الذين يمنون على الشعب أنهم حرروه وأطعموه وأوصلوه إلى مصافّ الدول الوطنية»[124].

مواجهة سلطة المجتمع

المجتمع له سلطته التي قد لا تكون سياسية ولا دينية ولا ليبرالية، لكنها سلطة ضاغطة على المثقف والفرد والجماعة لتجعل الكل منسجمًا في نسيج من أعراف وعادات ومواضعات وتقاليد، ومواقف من أنواع مختلفة. وهذه السلطة لا تقلّ إفسادًا للحياة عن غيرها من السلطات التي قد تفسد أو تصلح، غير أنها تشلّ الفرد وتضعف حيويته، وتمنعه من تمتعه بفكر وموقف سليم وصالح للفرد والجماعة. وكم نجد مجتمعات وأفرادًا يموت الوعي والعقل والحمية والخلق الرفيع فيهم بسبب الخضوع لسلطان المجتمع، هذه السلطة التي ينافقها الجميع ولا يتساءل كثيرًا عنها لأنها أبلغ في التأثير والتدمير، وأخفى من حيث الشعارات والوسائل والأفكار، ولهذا لا يراها غالب الناس لكونهم في وسطها متلبسين بها إلى أعماق قلوبهم وسلوكهم. ولا يمكن الانتباه إلى مفاسد هذه السلطة إلا بمنبّه قوي خارجي، أو صدمة من مأساة كبيرة داخلية نفذها تسلط المجتمع على الفرد، فقد يبدو بؤس هذه السلطة وشرها المستطير وهي تقبع في منعطفات العادات والتقاليد والأعراف، والتماهي مع المآسي وقبول الشرور بسبب كثرة تكرارها وتعودها، وتضعف مناعة الناس في استنكارها بسبب هذا الرسوخ.

ولو تساءلنا كم دفنت أعراف المجتمعات عبر التاريخ من عباقرة وأفكار عبقرية، ومن مصالح ومنافع واختراعات؛ لأدركنا أن تاريخ البشرية مليء بالمآسي والفرص المضيَّعة، ولوجدنا هناك براعة متكررة لتجميد العقول وتعطيل الإنسان وإفقاده لمصالحه، ولتحققنا أن كل مجتمع يدفن غنائم ويضيع فرصًا -بقدر ما تتجلى فيه منافع فينفذها- ويضطهد الأفراد بشكل أو بآخر، ولانتهينا إلى خلاصة أن كل مجتمع يسمح بنمط ثقافي أو ديني أو اقتصادي.

من أبرز تلك النماذج سلبية المجتمع تجاه ما يرتكبه رموزه من سوء، وتقبله إياها بكل صراحة وخوف أو رداءة، واستنكاره الإنكارَ عليها لأنها من حصاد السلطتين السياسية والدينية أو الفكرية، واستمرأ المجتمع ذلك حتى جعل من قبوله بالشر والسوء والرداءة قانونًا وخُلقًا، ويصبح تقبل الشر ضغطًا اجتماعيًّا خارج السلطتين ومنصبًّا على المجتمع قبولًا وتبريرًا. وقد تجد مصدر سلطة المجتمع أو تعرف بدايتها، ولكنها غالبًا تكون تطورًا أو نتيجةً لسلطة فاسدة تحولت إلى سلطة مجتمع قابلة بالبؤس والأذى.

المجتمع يهب المودة والألفة والتواصل والشعور بالمشاركة والأهمية والعكس، وكلما وهَبنا أحدٌ أو جهة أو مؤسسة أو سلطة شيئًا فإنا نبادله هبته بما يناسبها، ولهذا تجدنا نخضع ونقبل لأننا نشعر بـ«تبادلية غير مباشرة». هذه التبادلية تكون أحيانًا أعلى من الماديات أو أقل من الروحانيات ولكنها تُشعر الفرد دائمًا بقيمتها، وهذه القيمة قيدٌ أيضًا وتحتاج إلى قوة تنتزع الاستسلام لها، ومراجعة وتقييم فوائدها ومضارها، وهي بالغة الحساسية والتأثير معقدة البنية، وما لها من حلول إلا المزيد من الإحساس بالفردية أحيانًا، أو الشعور بقيم ومبادئ أعلى وأهم وأرجح منها.

ونحن نرى الأفراد ما إن يتخلصوا من سلطة المجتمع حتى يُلحّوا على ابتداع سلطة بديلة يُخضع لها أو ثمن بديل، وهذه التبادلية التي أعنيها أشبه بنقص في الفرد وحاجة للتبادل، فما إن يتخلص الفرد من الثمن حتى يرتبط بالشيء البديل له رغم أنه قد يكون أقسى عليه، وحتى لو لم يكن إلا ابتداع عادة جديدة فيها أيضًا قبول بسلطة المجتمع أولًا، ونادرًا ما تكون البدائل مُتَعًا أو أشياء أو ممتلكات.

المطالبة بمواجهة هذه السلطة ركن أساسي في تحرر الفرد من ضغط المجتمع وسلطته، ومن طاعته العمياء «للسلطة الخفية» السارية في دمه وفهمه وعقله ولباسه وخلقه، مثلها مثل سلطة شيخ أو فقيه أو فيلسوف، سلطة يخضع لها دون تيقظ لمآسيها وعيوبها. ومن هنا نلحّ على المثقف أن يواجه هذه السلطة الخفية التي توهن قواه هو قبل غيره، وتوهن المجتمع وتضلله عن غايات وأهداف أسمى تخرجه من حَجْرٍ طويل على وعيه وضميره، يعيش فيه -وكذا المجتمع- زمنًا طويلًا ربما يمتد قرونًا.

ومن أوجب مسؤوليات المثقف معرفة عيوب المجتمع ومشكلاته وتعريفه بها، ونقل المسؤولية من الخاصة إلى العامة لتكون همًّا عامًّا، فربّ مجتمعٍ غارقٍ في مشكلات لا يتنبه لها، ويقوم مثقفو السلطات المتنوعة بتخدير الناس حين تفتك بهم الأمراض، ويقدمون الأعذار للأفراد والمؤسسات. وليس هذا دور المثقف المسؤول، بل إن دوره يتمثل في التنبيه على أي معضلة -حتى ولو بالغ في عرضها- ليساعد في اجتثاثها؛ لأن مصائب المجتمعات كأمراض البدن، كثيرًا ما تبدأ صغيرة وإهمالها يعمقها حتى يصعب العلاج.

وهنا نميز بين دور المثقف والقيادي أو الراغب في القيادة، فدور المثقف التوعية بالدرجة الأولى، وعندما يخلط بين دوري التوعية والقيادة -أو الرغبة في القيادة- فإن رسالة الإنقاذ وأهدافها تختلط بالرغبات الشخصية، والمجاملات، وطاعة الأتباع، ومراعاة المصالح الذاتية. وهنا يفقد المثقف دوره مهما علا شأنه؛ لأنه لا يصبح رقيبًا بل ينخلع من دور الهداية والرقابة، ويصبح مجرد راغب في مكسب؛ لأن رغبات الزعامة تفرض ثقافة تختلف عن مسؤوليات المصلح.

وكم عرف العالم من مصلحين كبار أو من لديهم مؤهلات المصلحين الكبار، ولكن ورّطتهم الزعامة أو شهوة الزعامة في أن يخسروا أو يصبحوا مضللين في بعض ما قالوه وما فعلوه. وقد

لا يمكن الفصل التام بين المثقف القيادي أو الزعيم والمثقف المنصرف لمسؤولية التوعية، بل أحيانًا تصبح المطالب بعيدة المنال، فالمثقف القيادي قد يجمع إلى حد كبير بين الأمرين، وهنا نطالبه بالرقابة ونطالب المجتمع الحي ومثقفيه باستمرار الرقابة على مصالحه من انحراف قياداته ومثقفيه، ونجعل حس التوعية حسًّا عامًّا يُجبر الجميع على العودة إلى المصلحة العامة، حتى عندما تتضارب مع المصلحة الذاتية[125].

إن كان هناك دور لا يليق بالمثقف فهو الخطأ المتعمد والتقصير المستمر والتلهي بالمشاغل الجانبية مما لا يليق به، فهو مطالب بالإنجاز في عمله حيث كان، ويزيد على عموم الناس بأمانة الثقافة ومسؤولية ضميره تجاه هذه الأمانة، فدوره عظيم في إحياء الأمم، وإذا قامت الأمم ونهضت أسنِد إلى المثقف الدور الرئيسي، وإذا انهارت أسند له أيضًا دور خيانة الأمانة، حتى حين تُعرض الحكومة عنه وتهدده وتضايقه فإنه لا يعذره أحد، فليس الدور المنوط به هو فقط الرقابة والنقد، بل إن دور التذكير بالغايات أيضًا منوط به وهو عمل مستمر؛ فالنيات الحسنة متوفرة في المجتمعات ولكنها تحتاج دائمًا إلى تجديد وإحياء، ومَنْ غير المثقف يشحذها؟

ثم إن مسألة أمانة المثقف في القيام بدوره الاجتماعي المطلوب مطلب أممي دائم، ونعلم كم في الطريق من عوارض ذاتية ومطامع تكبح المثقف عن أن يقوم بدوره، ولكن لم يزل الخطاب -وسيستمر في المستقبل- يطالب العقلاء والنافذين دائمًا بأن يكونوا على مستوى مسؤوليتهم.

ولمسؤولية المثقف مهابة، وعليه رقابة شعبية دائمة أكثر من الرقابة على السياسي، ليكون في أعماله على مستوى المبادئ التي ينادي بها، وقديمًا تحدث الإنجيل عن القراء وأنهم مِلح البلد، وقال عربي ناظمًا لنصّ الإنجيل:

يا معشر القراء يا ملح البلدْ ما يُصلح الملحَ إذا الملحُ فسدْ؟

وعلى المثقف أن يعرف أن كلامه موقف شخصي يستحق منه هو نفسه النقد والملاحظة قبل غيره، ويجب أن يتواضع وأن يجعل فكرته وموقفه قويًّا في الوقت ذاته. فكونك تقدم فكرتك بقوة واستجماع لجوانبها لا يعني أن تقدمها بأسلوب ضعيف أو متردد، فالأسلوب شخصي والمضمون عام، ولا نربط كثيرًا بين ذواتنا وبين أفكارنا، فقد يحسن بالمرء أن يقف يومًا ضد فكرة قالها ذات يوم أو أصر على نشرها إذا تبين له خطؤها، كما أن من المعيب على المثقف غياب ضميره مع فكرة ما أو ضدها.

والمثقف وإن لم يعرف مكانته ودوره فإن المجتمع بطبيعته يتوقع منه تصرفًا، إذ لا يبحث (المجتمع) عن مثقف بعيد بل يبحث عن القريب من الحادثة، القريب من الناس، وقد ورد في وصف أحدهم لعلي -رضي الله عنه- أنه كان «إن سألوه أجاب، وإن استزاروه زار»، وكأنه يقصد أن يقوم بدور الموجه أو المعلم إلى جانب الدور السياسي والمجتمعي العملي اليومي، فهو مثقف واجتماعي، أي عملي ونظري.

ومثقفونا منذ أكثر من مئة عام كانت لهم مشاركاتهم الرائدة في نصرة المجتمع ضد الغزاة والمستبدين والمحتكرين للسلطات، من أمثال الأفغاني وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد عبده، ومحمد الطاهر بن عاشور وعبد العزيز الثعالبي، وعلي شريعتي وسيد قطب، وابن باديس وعبد الكريم الخطابي، وعلال الفاسي ومحمد كرد علي، والإبراهيمي وعباس العقاد، والغنوشي والمنصف المرزوقي، وعدد هائل ممن حرص على حماية روح أمته واستقلالها ولقي في سبيل ذلك العنت.

ومن غيرهم أعداد لا تحصى من المثقفين الذين ناضلوا في سبيل مصالح أممهم، وساعدوا في صناعة عالم أحسن من القائم آنذاك، فإن تحقق مرادهم فهذا غاية، وإلا فإنهم أناروا للناس طرق الوصول إلى ما يليق بالإنسان من حرية وكرامة على الأرض، وضحّوْا في سبيل ذلك بكل ما أمكنهم. هذا تشومسكي معاصرنا تزعّم عمليًّا وحاضر وتظاهر وناقش، وسُجن وتحمل الأذى في سبيل الاعتراض على حرب فيتنام؛ بل إنه يرى أن مسؤولية المثقف هي مواجهة جرائم السلطة[126].

وذلك إدوارد سعيد تحمّل الكثير من الأذى والمقاطعة بسبب مواقفه الثقافية والسياسية، وواجهته وسائل الإعلام الرسمية وحاولت تجاهله، حتى إن صحيفة **نيويورك تايمس** كانت تنشر مقالاته في رسائل القراء حتى لا تعطيها مكانًا ولا أهمية، وذهب ليرمي حجرًا على الصهاينة ويرجم مع الراجمين على حدود لبنان بعد عام 2000 لما انسحبوا من جنوب لبنان؛ فسبب له هذا معارضة واسعة وطُلب طرده من منصبه في الجامعة.

وكذا مواقفه مع ياسر عرفات سببت له أزمات كبيرة مع «حركة فتح»، حتى إن الكاتب الفلسطيني يحيى يخلف -الذي تولى وزارة الثقافة في السلطة الفلسطينية أيام عرفات- منع كُتب إدوارد سعيد في فلسطين! وهي تمثل الموقف الفلسطيني أو أهم توجهاته إضافة إلى وزن إدوارد الفكري العالمي، ولم يراع الوزير حتى سمعته وسمعة بلاده في مصادرته آراء هذا المثقف وأقواله وأعماله ومواقفه الوطنية وصوته في العالم.

ونجد تشرشل يهتم -إبان ضرب العاصمة لندن خلال الحرب العالمية الثانية- بكل تفاصيل قضايا مجتمعه، حتى إنهم وجدوا بين أوراقه –التي كتبها أثناء القصف- رسالة يطلب فيها إصلاح كيس يتسرب منه رمل في حديقة عامة[127]. وكان إلى جانب زعامته يكتب ويناقش؛ فألف **تاريخ الشعوب الناطقة بالإنكليزية** و**تاريخ الحرب العالمية الثانية**، بالإضافة إلى مذكراته الشخصية، ولم تغب شخصية المثقف عن السياسي ولا العكس.

مواجهة سلطة العامة

إن القضايا الكبرى لا تُسقط القضايا التي قد يراها بعض الناس صغرى. ولأن القضايا التي تُرى صغرى في زمن الحرب والأزمات ستكون مع مرور الزمن مسائل كبرى، خاصة زمن السلم مع الخارج، فالذين ركّزوا اهتمامهم على السلاح وأسقطوا ما عداه ربما انتصروا في الحرب، ولكنهم رسبوا في امتحان الحياة الشامل، كما حصل في روسيا الستالينية، أو زمن هتلر في ألمانيا. فالحياة أوسع من عنصر واحد، وكذا الثقافة ودور حاملها؛ فالمثقف يشارك الناس فيما يعرف وما يهوى وما يرى، فهو معلم وقدوة وناقد ومشير ومشارك ومتعلم.

وانظر إلى المستبدين الذي أغرقوا الناس في الحديث فيما سمّوْها «القضايا الكبرى»، فقد انتهوا إلى ضياع القضايا الكبيرة والصغيرة معًا. والمثقف الأمين منصف، يسعى لتوفير وجهات النظر الصادقة للناس، فلا يتعصب لرأيه، ولا يقضي على الحقيقة أو يكبتها إن جاءت على لسان غيره، إذ يعلم أن نموه معرفيًّا وثقافيًّا ورقي مجتمعه -إن كان مهتمًّا به- إنما يكون من خلال جوّ منفتح ومتسامح.

ومن عمل المثقف -الجاد أو دوره المؤثر- أن يشمل نشاطَه اكتشافَ أعمال الآخرين والتعريف بها، و«استكشاف إمكانات التدخل النشط، سواء أمارسنا هذا النشاط بأنفسنا أم اعترفنا به لدى آخرين سبقونا أو لا يزالون يمارسونه. ذلك هو دور المثقف الرقيب»[128]. ويؤكد إدوارد سعيد أن «دور المثقف هو أن يقدم سرديات بديلة، ومنظورات للتاريخ مغايرة لتلك التي يقدمها مقاتلون نيابة عن الذاكرة الرسمية، وعن الهوية والرسالة القوميتين، منذ نيتشه على الأقل. ينظر إلى كتابة التاريخ وتراكمات الذاكرة بطرق مختلفة على أنها المرتكزات الأساسية للسلطة.. والاستغلال المروّع لعذابات الماضي.. في رواياتهم عن استخدامات المحرقة... إن المثقف ما هو إلا ذاكرة مضادة بمعنى ما، تملك خطابها المعاكس الذي يمنع الضمير من أن يشيح بنظره أو أن يستسلم للنوم، وخير علاج هنا هو أن تتخيل الذي تناقش -... الشخص الذي تنهمر عليه القذائف- وهو يقرؤك بحضورك»[129].

ومن مهمة المثقف تسهيل تعبير الناس عن أنفسهم وآرائهم ومواقفهم، وأن يعمل جادًّا لذلك، فالمثقف تعلو مكانته ودوره في المجتمع الحي المعبِّر عن رأيه، ويضعف دوره وفكره وتأثيره في المجتمع الخامل. وفي مجتمع الصمت والاستسلام للمؤسسة الرسمية النمطية الباردة والميتة، التي تعمل على تخدير العقول والأفهام وإغلاقها، ولا يطمع في إسكات الناس إلا من يعجز عن مجاراتهم، أو لا يملك أدوات ثقافية مؤثرة، أو ليس له إلا مواقف فاشلة ومتعثرة. وهنا «يجب على المثقف أن يفترض أنه يمكن البيان بوضوح عن وجود بدائل لها.. وعليه أن يتحدى ويهزم الصمت المفروض والاستكانة التطبيعية اللذين تفرضهما السلطة الخفية[130]، حيثما ومتى كان ذلك ممكنًا»[131].

إن السلبيين المتشككين يثيرون الغبار دائمًا في وجه من يطالب بدور للمثقف تجاه أمته أو شعبه أو القضايا الإنسانية العادلة، قائلين إن حمايته لمجتمع تعني ضررًا بآخر، ودفاعه عن مصلحة تعني خسران آخرين لمصالحهم. ونحن هنا إنما نؤكد دورًا إنسانيًّا يرقى بحياة الإنسان وفكره في كل مكان، دور يتوخى العدل والإنصاف لكل الناس، ثم إنْ كان لا يرى هذا فليس له أن ينحاز إلى أنانيته ضد أي مجتمع؛ لأننا نحاول إحياء ضمير العدل والعقل والمشاعر الخيّرة عنده.

إن من المهم أن نفرق بين المجتمعات ومثقفيها، فإذا كانت مجتمعات ما في أشد الحاجة لنقد مثقفيها؛ فإن هناك مجتمعات تحتاج أيضًا إلى نقد مجتمعها وما درج عليه، ونقد سلطته العمياء أحيانًا حين تقف ضد العقل وضد المصلحة، أو تستجيب للغوغائيين الذين يستميلون عواطفها وتاريخها وأمجادها لمصادرة حاجتها للإصلاح. والمثقف حين يسكت عن المجتمع، خوفًا منه أو مجاملة له، أو لأنه يوفر له دعاية أو مالًا أو حماية معنوية؛ فإنه يقصر في حق مجتمعه بل يخدعه، وهذه الحالة تحدث مع المثقفين الذين يجدون دعمهم من الشعبية العامة، أو هم أحيانًا من اليساريين في المجتمع الغربي، أو من المشايخ في المجتمع الإسلامي.

وقد واجهت بنفسي معضلة كبيرة في حوار طويل مع أحد المشايخ ذوي الشعبية الكبيرة؛ حيث ناقشته في قضية من قضايا المرأة في مجتمعه، وسلم لي في النقاش أمام الحاضرين، فقلت له في نهاية النقاش: إنك شيخ متبوع، فأخرج ورقة أو شريطًا أو كُتيبًا تبيّن فيه حقيقة موقفك هذا. فرد عليّ بأن له تلاميذ يرون تلك الآراء المتشددة ولن يخالفهم، هذا وهو للأسف شيخ متبوع له تلاميذ؛ فبدلًا من أن يصدروا عن رأيه، أصبح هو يصدر عن موقف جماعي للتلاميذ لا يؤمن بأنه الموقف الشرعي، ولو خالفهم فإنه سيخالف ما تعودوا عليه منه أو ممن سبقه.

وقد صعقني الموقف حينها وكنت أعرف شجاعته، ولكن للأسف كما نجد رجالًا لا يواجهون المؤسسات الحكومية بالحق، فهناك من لا يستطيع مواجهة تلاميذه المتعصبين أو السذج بالحقيقة التي يؤمن بأنها هي الشرعية الدينية. وأحيانًا يكون موقف الشيخ مدفوعًا بالخوف من تفرق الأتباع المقلدين له، مما يقلل أو يضعف شعبيته التي تصبح مع الزمن غاية له وللمقربين منه.

وكنت قبلها قرأت عن هذه المعاناة في المجتمع الشيعي، قرأتها عند مرتضى مطهري في **الملحمة الحسينية**، فكان مما ذكره معاناة مشايخ الشيعة مع خطباء الخرافات في الحسينيات والبكائيات، وما فيها من شحن عاطفي يذكر لحشد العواطف واستدرار الدموع والنواح، فيذكر أن أحد العلماء نصح خطيبًا مثقفًا مَظِنَّة وعي وعقل بألا يبالغ في هذه الأقاصيص لما للخرافة من أثر سيئ يُضعف الجوانب العقلية للناس، ويصدهم عن معرفة الحقيقة، فاستجاب له بحماس. ولما حان موعد البكائية حضر الناس ليسمعوا الخطيب، فبدأ بداية حسنة وعقلانية، ولكن البكاء والعواطف لم تتحرك، فقلب لهم إلى الموّال القديم[132]. إذ الحقيقة كما هي لا تستدر العواطف، بل المبالغات والتهويشات تثير الجماهير، فيقول المشايخ الخطباء للناس ما يطلبه المستمعون، أو ما يُطرب الجمهور أو يثيره ويحمسه، أو ما يدرّ دموعه، أو يُفرغ جيبه، أو ما يوحي بأن فلانًا شديد في الحق، ولو لم يكن إلا مجرد شدة بلا حق، فكم ترك البعض من حق وكم تشدد في نشر باطل. وبهذا يصد بعضُ الوعاظ والخطباء والمشايخ الناسَ عن الحقيقة مداجاة لهم، فكيف إذا كان الشيخ يعيش على تبرعات الجماهير والتجار وصدقاتهم، ودعاية البسطاء والسذج وتهويشهم وسيرهم وراءه. ومن هنا فمسؤولية المثقف كبيرة تجاه ضعفه وجماهيريته وشهواته القاتلة؛ فسلطة الغوغاء على العلماء والخطباء خطيرة، ولا تقل عن خطورة المستبدين العنيفة وربما كانت آثارها أسوأ.

ومن عمل المثقف الكشفُ عن أطراف النزاعات، و«الجهرُ بالحقيقة في وجه السلطة، والشهادة على الاضطهاد والعذاب، ورفع صوت التمرد أثناء النزاعات مع السلطات»[133]، وتوضيح مصانع الاستعباد الإعلامي ومصانع الفكر[134].

وبعد أحداث سبتمبر 2001 سخّرت سلطات أمريكا إعلام بلادها ومستعمراتها وحكومات لمحاربة الإسلام تحت غطاء الحرب على الإرهاب؛ فاخترقت جميع الحكومات والمناهج التعليمية، وأرست مؤسسات إعلامية ضخمة بأموال عائدات النفط في مستعمراتها للترويج لنفسها وثقافتها، والانتقاص من كل موقف أو دين أو شخص أو قومية أو مصلحة محلية أو دولية تخالف مصالح احتلالها واستبدادها. وقد نشرت في هذا الإعلام مدارس تقدم مميزات مالية ودعائية هائلة تغري بالانحلال والقبول بالاحتلال، وتنشر الانحطاط الأخلاقي والعهر وتدمير القيم. وهي تقدم هذا الاحتلال في صيغ ومصالح تبدو محلية، ولكنها في الوقت نفسه لا تخفي مواقف إرهابية لمن لا يقبل بالاحتلال، أو لا يقبل باستغلال الإمبريالية الغربية للشعوب وثرواتها ومكوناتها. كما اتخذت الصهيونية من هذا الإعلام وسيلة لحرب أي موقف يخالف شهواتها ومصادرته؛ فاستطاع إعلام الاحتلال تقديم الإرهاب الصهيوني بمظهر حسن ودعاية مركزة، وشوّه الفلسطينيين وسخِر من مواجهاتهم، واحتقر شهداءهم وسماهم «قتلى»، أي مجرد قتلى في أي شيء ولا قيمة لقضيتهم، وهذا جانب من تحميل المستعمرات الأمريكية مسؤولية الدعاية والتبشير بالصهيونية والعبودية لها ولمقاصدها.

إننا نطمح حينما نتحدث عن المثقف أن يعبّر عن حاجات الناس ومآسيهم ومطالبهم وطموحاتهم، فسلطة الفن أو الفنانين أو الإعلاميين إنما تكون رسالة ذات قيمة محببة ورافعة للمجتمع، ويكون

هو أمينًا على سيادة الخير في المجتمع، عندما يكون المثقف حريصًا على إحقاق الحقوق، صادقًا فيما يؤمن به، محاولًا الخلاص من عيوبه وتحيّزاته ومن جماعات الضغط عليه.

ليس الإنسان مثاليًّا ولكنه يعرف أن هناك مثالية، وقد لا يكون منصفًا ولكنه مدعو إلى الإنصاف وأن يحسّ بالإنصاف وبكل القيم الخيّرة للبشرية. فالخير في الإنسان أعمق من الشر، ويمكنه عندما يحيي ضميره أن يوقف شره أو يخفف منه على الأقل، إن لم يكن رافعًا للقيم والخلق والإنجاز في مجتمعه. وإذا قال أو فعل الباطل فإن المجتمع الحي يأطِر الفاسدين والضالين على طريق الحق عكس مرادهم.

ولهذا كان لزرع القيم الخيرة دور عظيم في بناء الإنسان في صباه، ونشأته على تحمل المسؤولية، خاصة عندما ينشأ معتدلًا لا مترَفًا ولا جائعًا. يقول وايتهد: «إننا نحصل من الأطفال على أقصى قدراتهم إذا نشؤوا في ظروف اقتصادية بعيدة عن الترف، ظروف تقحمهم في سن باكرة في زمرة أولئك الذين يتحملون التبعات في المجتمع... ويكفي أن يكونوا أشخاصًا مسؤولين يؤدون عملًا... الطفل ينبغي أن ينشأ في وسط أفكار خلقية جدًّا أو دينية... لقد أسس أمريكا أناس من هاتين الفئتين من أصحاب المسؤولية الاجتماعية وأصحاب الحس الخلقي، وكثيرًا ما بدا لي أن ذلك هو الذي جعل القرن الثامن عشر في إنجلترا فاترًا؛ لأن الناس الذين توفرت فيهم الحيوية قد أتوا هنا [إلى أمريكا] في القرن السابع عشر، وكانت فرنسا أفضل من إنجلترا في القرن الثامن عشر، وأهم نتائج الثورة الفرنسية هي الثورة الأمريكية، وقد أخفقت الثورة في فرنسا، ولكنها نجحت في أمريكا»[135].

هذا هو الدور الذي يجب القيام به: نقد المؤسسات المسيطرة لكشف محاسنها ومساوئها. وبحكم أن الإنجاز واجبها نقول لها شكرًا عند تحقيقه، فإن العيب يجب أن يساق مفصّلًا، ليس فقط كما «الجرح» عند المحدّثين، ولكن لأن المؤسسة من المفترض أنها قامت لإبعاده وبناء سواه.

غير أن طريقة النقد والمواجهة بين المثقفين في المجتمعات الخاضعة لحالة «الاحتلال المقنّع» -أو ما هو قريب منها- قد تأتي في شكل مواجهات شديدة التوتر وغير سوية، وتحمل الكثير من الغموض والخلاف، ويربط كل من الطرفين الآخر بـ«الاحتلال المقنّع» بأساليب صريحة أو مغالطة، ومتهمة للطرف الآخر بالعكس من ذلك.

ومن الأسباب تخفّي طائفة مؤثرة من مبشري الليبرالية الإمبريالية تحت شعارات الليبرالية، ففي الليبرالية جانب من توجه بشري معتاد، يمر به الفرد في حياته سواء كان في جنيف أو في الربع الخالي، بدويًّا أو فيلسوفًا، أي حالة التخلي عن الالتزام بالأفضل كما يفسره المجتمع دينيًّا أو خلقيًّا. فنحن نرى في شخصيات محافظة في التزاماتها بقضايا تعدّ مسائل أخلاقية لا يتهاونون بها، مع كونهم ملتزمين بالخروج من الدين، أو بالإلحاد، أو بالخروج على الكنيسة في مفهوم زمانهم. أما المبشرون بالليبرالية في مجتمع الدكتاتوريات، فإنهم في الغالب باعة بضاعة غيرهم، ويرتزقون من ترويج أفكار وقوانين وسلوك معادية لمصلحة الشعب، مستندين غالبًا إلى قوة استعمارية توظفهم لهذا.

ومن واجبات المثقف تفسير الحوادث أو إعادة تفسير قديمها، وذلك بحسب ما يجدّ من حق يحتاجه الناس، أو منسي أو مجهول يحتاجون إلى معرفته. فالتعليق على الأحداث وإعادة كتابة المواقف الحالية والماضية من جوهر عمل المثقف، يستوي في هذا ما كان من تاريخ وآداب وفهم وتفسير، يجب أن تعاد كتابته بحسب ما يجدّ من أفكار واستخدامات، أو استعادة تصنيف العلاقات

في المجتمع وغيره من المجتمعات؛ لأن هذه القضايا دائمة التقلب، والمثقف مراقِب حصيف يصنع الرؤى والمواقف دائمًا، بما يجلب المنافع ويكثّرها ويقلل الآلام والسلبيات والخسائر.

التزامات المثقف

أولًا: تجاه نفسه

للمثقف التزامات تجاه نفسه، أهمّها:

1- العمل الجاد المستمر على تنمية قدراته في المعرفة والعلاقات، بحيث لا يتهاون ولا يملّ، ولا يتساهل في وقته سعيًا للتطوير كلما أمكنه. فمن علامات موت الثقافة عند الفرد شعوره بالاكتفاء منها، وهو ما يُسميه مالك بن نبي «كمال العقم»؛ لأن المعرفة والثقافة عملية مستمرة، فأنت تستفيد أحيانًا مما تحتاجه من معرفة علم وموقف وحوادث أخرى لا صلة ظاهرة بينها وبين ما أنت بصدده، أو ما يوحي لك التخصص به. وقد قيل: «لا تصل إلى ما تحتاج من علمٍ حتى تعلم ما لا تحتاجه». وليس له من نمط محدد في الخارج يلتزم مشابهته، فقد يكون واعظًا أو مدرسًا، أو صحافيًّا أو شاعرًا، أو روائيًّا أو مؤرخًا، ولكنه جادّ في التبشير بما يراه حقًّا، والتحذير مما يراه باطلًا، عن معرفة وتجرُّد قدر طاقته. أما الشاعر فمع كونه مؤثرًا فإن صوته يبقى صوت الإحساس والعاطفة والحمية والجمال، ونادرًا ما يكون لعمله صلة بالعقل، بل هو غالبًا قليل الثقافة مقارنة بأصحاب العلوم والثقافة الممارسين. وهناك من يرى ندرة الثقافة بين الشعراء، حتى ليرى أن أول شاعر مثقف في ثقافتنا هو بشار بن برد؛ لأن شعره احتوى على مسؤولية مجتمعية وأفكار سياسية وكلامية، ويغلب هذا على الشعراء العرب إلا قلة كالمتنبي والمعري[136]. لكن ثمة من يعدّ الشعراء مشرعي البشرية غير المعترف بهم (شيلي)؛ كونهم يعيشون في عالم المستقبل، في حين يعيش الباقون في عالم الحاضر أو الماضي. وهذه رؤية معظم فناني الحداثة لأنفسهم (جويس، إليوت، باوند، وولف، بيكيت).

2- الجد في تهذيب نفسه، وهذه غايةٌ تغيب كثيرًا عن المثقفين، فإنه إن قرأ كتبًا وحصّل معارف ركِبه شيطانُ غرورٍ أو جهلٍ كبير، يقول له: «يكفيك أنك تعلمت»، ثم يخرج إلى الناس مفاخرًا بمعلوماته، ولكنه نسي أن الناس يرونه في جوانب أخرق مجردًا من الخلق، ضعيف الإرادة، مستفزًا للجميع، ولهذا فتهذيب النفس -كما يقولون- يزيد زمنًا على زمن تحصيل المعرفة بعشرين عامًا، فإن كان بدأ في العشرين يهذب نفسه ففي الستين ترجو له نجاحًا خلقيًّا. ولا عبرة بالتحديد الزماني عشرين سنة (عشر للمعارف وعشر للتخصص)، فالمعرفة دائبة لا تقف ولا تكتفي بما سبق، وتحصيل الثقافة أسهل من تحصيل أخلاقها.

ثانيًا: تجاه أفكاره وإيصالها

يجب أن يراعي المثقف جوانب مؤثرة في فكرته وفي إبلاغها، مثل:

1- الحرص على مصالح المجتمع كافة، بدءًا بالمرافق العامة والأدوار الأقل أهمية في نظر بعض المتعالين، من نظافة الشارع إلى نظافة القيادة السياسة والمراكز العليا من الفساد، ذلك الفساد

الذي يسيء إلى المجتمع تمامًا كما يسيء مظهر القذارة في الشارع، التي يخيل إلى الشعوب -التي يسيطر عليها وعلى مثقفيها الجهل- أن النظافة ليست المظهر الشخصي أو مسؤولية إدارة البلدية فقط، كما قد يخيل إليها أن الفن ونشر الذوق الجمالي ليس من واجباتها. والواقع أن كل ذلك مسؤولية قيمية وأخلاقية وذوقية لعموم المجتمع، فترى بعض المثقفين لهم قضية واحدة يتشنجون لها ثم يخفتون، ولكن نظافة مجتمعهم وسعادته وذوقه لا تهمهم، ولهذا يسود البؤس والفساد في مجتمعهم؛ لأن لديهم دائمًا قضية يعتبرونها قضية القضايا يهملون لأجلها بقية القضايا، أو يرون أن المسؤولية جزئية لا تهم السياسة والأخلاق أو لا تهم البيئة.

2- ثم أن يكون قادرًا على التعبير عما لديه من معرفة ورؤية، وهي القدرة البيانية وأهم جوانبها اللغة. ولهذا فالرسوخ في الآداب سلاح المثقف. وقد بالغ كثيرون في هذا الجانب حتى توهموا أن اللغة والأدب هي السلاح والمعركة والغاية، وتهاون بها آخرون فعجزت لغتهم عن إيصال رسالتهم فلم يستطيعوا ممارسة دورهم، وكذا الاستعداد للمتابعة لما يسعى لإصلاحه، فالمعرفة معرفة بالقضية محل النقاش وما قيل ويقال عنها.

3- مجاملة المرعيات والثقافة المحلية حين لا تكون مضرة بالمجتمع ولا بالفرد؛ لأن اصطناع معارك دائمة مع المجتمعات في الأمور التافهة يقضي على جهد الإنسان، ويصرف طاقته في غير منفعة له ولا لمجتمعه، كما أنه يُفرده ويُضعفه ويوحّده، ويصرفه بعيدًا عن مهمات هي أولى.

وهناك فرق بين التنوير بما يحسن فعله ويعرف المثقف به، وبين حالة المصادمة المستمرة في صغائر الأمور، مثل التعصب لفن دون آخر، ولرياضة دون أخرى، ولباس دون آخر، وما يشبهها من مواقف جزئية في الحياة العامة، ومثل ذلك عند المتدينين التصارع على المذاهب الفقهية. فجزئيات هذه المواقف تنتهي بالعبث وحصار الذهن وقمعه، وقسره في زوايا ضيقة لا تنفعه ولا تنفع مجتمعه ولا يتطور من خلالها.

على إثر كتابةِ تغريدةٍ على تويتر قلت فيها إن المثقف هو من يحمل معرفة ورؤية ويعمل لها؛ رد علي الدكتور توفيق السيف بأن هذا ليس تعريف «المثقف»، إلا إن أردت المثقف العضوي كما يعرّفه غرامشي. واحتج بأن هناك من المثقفين من قادوا عملًا سياسيًّا تحرريًّا كبيرًا من أمثال ليخ فاليسا في بولندا، الذي أسس تضامنية العمال عام 1980 أو 1981، واستطاع أن يساهم في إسقاط الشيوعية في بلاده عام 1991 وهو مجرد عامل. وكان ردي أنه سياسي أكثر من كونه مثقفًا. وعلى رأي غرامشي أن كل إنسان هو مثقف بشكل ما، ولكن المهم عنده هو المثقف العضوي الذي له رسالة بين الناس، يعرفها ويبلغها ويعمل لها، ومن نشر شيئًا فقد أصبح مثقفًا عند بعضهم.

وهنا قد نختلف في تعريف المثقف، ولكني أختار من التعريفات أن من يندرج تحت هذا العنوان يجب أن تكون له حصيلة معرفية من موارد ما نعبر عنه بالثقافة في عرف زماننا العربي هذا وثقافتنا، وهي تشير بدرجة أولية إلى نصيب معرفي جيد في العلوم الدينية والإنسانية، وما يجاورها من رؤوس المعارف العامة، وليس بمعنى نمط الحياة والتقاليد والنظم التي تقع تحت مسار الحضارة، ولا المهن التي تقع تحت الاحتراف المهني من أي عمل كالطب والهندسة. وأحيانًا يكون الباحث الإنساني مهنيًّا لا مثقفًا عندما تقلّ أو لا توجد له مشاركة في حركة الفكر والثقافة والمساهمة المجتمعية معرفةً أو ترويجًا ومشاركة، مثل كثير من الأكاديميين الذين يبتغون بكتاباتهم الترقية المهنية وما حفّ بها.

ولعلي وجدت في نص لمالك بن نبي ما يؤيد هذا، فهو يقول: «ما يقوم به رجل الدولة ليس سوى عملية سياسية، وما يقوم به المؤرخ ليس سوى الاهتمام بعمل قائمة إحصائيات لعصر من العصور، وهذه العملية وتلك القائمة لا تدخلان في رصيد الثقافة إلا من وجه غير مباشر»[137]. ولعل في هذا ما يشير إلى وجود حِرَفٍ معرفية ومحترفين بجوار الثقافة والمثقفين، يدخلون ميدانها بمقدار مشاركتهم، وإلا فقد لا يكونون من أهلها.

وهنا دائرة لَبس لا أزعم تجليتها تمامًا لمن لديه توجه عملي يرى من خلاله أن الثقافة قد تكون مهارة أو مهنة ربما لا تكون معرفية تجريدية؛ فقد وجدت أن علي شريعتي يصف بعض الصناع والعمال المهرة المتميزين بصفة «مفكرين».

4- المثقف منفتح لوجهات النظر الأخرى، يقبلها أو يقبل سماعها، ولديه فرصة أن يشارك فيها أو يردها، ولهذا تجد أمة بهذا الانفتاح للحق والسعي لمعرفته جديرة بأن تنتصر. وقصة الشافعي مع مناظِره مشهورة، فقد كان يقول: «إني لأسأل الله أن يظهر الحق على لسانه». ومرة يقول: «قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل الصواب». والغريب أنه مرة ناظر أبا عبيد القاسم بن سلّام صاحب كتاب **الأموال**، ثم أخذ كل منهما بقول الآخر لما تبين له حق في رأي الآخر ربما خفي على مبلّغه[138].

5- التزام المثقف بوسيلة ترسل رسائله إلى المخاطبين باستمرار، كمنبر خطابة في مسجد، أو إذاعة أو تلفاز أو جريدة، أو الكتابة المستمرة للكتب والمقالات ومواقع الإنترنت، أو حتى مجالس النقاش مع الزملاء في العمل. وهنا مثال لمن لا يتكبر على الحق والرأي، فالرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية لم يستجب له الناس ولم يحلوا من إحرامهم؛ فقد شق عليهم الموقف، ولكن زوجته أم سلمة أشارت عليه بالرأي الصواب الذي غاب عن الكبار، وهو أن يبدأ بنفسه فيحلق ويتحلل من إحرامه[139]. ولما فعل انتهت المشكلة، واقتدى به الناس بالخطوة العملية، بل هو مغتنم لكل موارد الحق يجعلها من ثروته بعد أن يعرف جدواها ولا يسأل عن مصدرها إلا بمقدار عمليتها ونفعها له.

ومن عيوب المثقف أن ينصب لنفسه مكانًا ثم يقول: «أنا أصدر لكم الأفكار فقط»، وهذا غير ممكن لمفكر جاد فضلًا عن مثقف، بل يعرف أنه قد يكون في أي منزلة: مرة يصنع الرأي، ومرة أخرى في دور المؤيد والمشجّع أو المنفّذ للرؤية.

ومن الأمثلة الطريفة والمعاصرة على هذا -كما أشرنا سابقًا- أن إدوارد سعيد رأى الناس في جنوب لبنان يذهبون إلى الحدود مع الصهاينة بعد عام 2000 ليرجموا بالحجارة الوحدات الصهيونية؛ فأعجبته هذه الرمزية وذهب ليرجم مع الراجمين، وهو هنا مجرد مقلد للناس الذين وقفوا قبله.

6- القيام بالدور الممكن لا المتخيل، فمن المهم أن يدرك المثقف أنه قد يقوم بدور المروّج لفكرة، أو الشارح لها، أو المبدع لها، وليس في نفسه حرج من أن يكون تلميذًا لفكرةٍ جيدة وشارحًا لأخرى ذات نفع، أو مبدعًا لفكرة ثالثة تكون علامة صدق ونضج وتعالٍ على الذات، فهو يروّج لما يصلح لمجتمعه، ولا يسأل هل هذه الفكرة له أم لصديقه أو لعدوه.

ففي نفوس المثقفين تعالٍ وأمراض كثيرة تعوق دورهم في التنمية والإصلاح؛ ذلك أن بعضهم يتعالى ويتشامخ أن يكون مروّجًا لفكرة جيدة لأن قائلها تلميذه، أو نشرها مغمور، أو شخص بلا

اسم ولا دعاية، فيشق عليه أن يوافقه أو يؤيد فكرته أو يروج لها فتموت الفكرة الجيدة؛ لأن تحاسد المثقفين وضيق أفقهم قتلها. وبعض الكبار -وهم قلة- يترفعون عن هذه المزالق التي تعوق الوعي الفردي والجماعي، فقد كان الجاحظ يمتدح أشعار أبي نواس وهو أصغر منه، ويقول عن صديقه إبراهيم النظّام إن مثله من الرجال لا يظهر إلا كل ألف عام**!**[140].

وهكذا قدر المثقف أن يرى نفسه في دور مبدع الأفكار والمواقف، وهذا غرور ومرض؛ لأن من يبدع الأفكار نادر الوجود، فهي لا توجد ولا تعرض بسهولة، خاصة منها ما يكون بالغ الدقة والفهم والتأثير، ونصيب العباقرة منها قليل، ولكنهم يسخّرون جهودهم لنشر فكرة حق أو معروف نافع، حتى لربما عُرفوا بها ونسي العالم من كان مبدعها الأول، مع أن المروّج لم يتجاهل ولم يسرق بل أشار وكرّر، وهذه ظاهرة علمية.

أما المثقف في العالم المتقدم تقنيًّا وسياسيًّا ممن يعاصرنا فإن أغلب دوره هو الترويج والشرح لموقف شخص أو مدرسة، أو لموقف الحكومة أو الحزب أو الجماعة التي ينتسب إليها، وهو في شرحه مبدع غالبًا، يحشد الأدلة والقناعات، ويجمع الملاحظات ويتعب في تحصيل المعلومات، حتى يصبح بحق مبدعًا فيما يروّج له، فصاحب الفكرة والمفهوم -من حزب أو غيره- يرى التوجه ببعض الدرس والمدارسة والمعلومات.

ولكن مفكري التوجه هم من يصقلون الموقف ويعيدون عرضه، ويتلقون النقد ويجيبون عنه. وهذا الدور خطر في فائدته وفي انحرافه، ولكنه يبقى من أسس التفكير في العالم الحديث، بجانب ثقافة المعارضة السياسية التي تكون أحيانًا فجة، ولكن هذه الفجاجة تعود بالإصلاح والانتقاد وعملية التصويب المستمر.

جمود المثقف

مرونة المثقف ذات صلة بعمره الزمني وتكوينه وبيئته التي نشأ فيها والتي يعايشها. عندما قرأت كتاب محمد أسد **الطريق إلى مكة**[141] لفتت انتباهي -وأنا أعيد قراءة مقاطع منه بعد سنين مديدة من القراءة الأولى- هذه المرونة والبراعة، والاستعداد لتغيير الفكرة عن الناس والمجتمعات، والخلاص من ميراث القومية اليهودية والقيود الراسخة على عقول كثير من الغربيين؛ لأن هناك قيدًا ومرضًا لا يتفطن له كثير من الناس، وهو قيد التفوق التقني، وهو في حد ذاته عائق عقلي وعنصري وجغرافي للغربي عن أن يرى في الآخرين وثقافتهم شيئًا ذا قيمة، فمحمد أسد منذ الأيام الأولى يفتح ذهنه ويتأمل -بلا حواجز- فيما يرى ويحاول أن يفهم.

وسواء رأى قومٌ منا في عمله تغريبًا للإسلام أو تحديثًا أو وعيًا به، فإنه كان يتحرك في الإسلام بوعي من داخله ومن خارجه، ولم ينفعه لدى جمهوره المسلم إلا القدر الذي رأوا فيه من صدق داخل المنظومة، وإلا فهناك مستشرقون ربما أنفقوا أكثر مما أنفق في معرفة الإسلام، ولكن أفكارهم وجهودهم وحصاد محاولاتهم كانت هامشية وقليلة الأثر، بل كثيرًا ما كانت ضعيفة الصلة به، مدانة عند المسلمين من قبل ومن بعد بسبب راسخ عندهم، وهو الشك وعدم الثقة بالنوايا.

ومع أن النوايا مما لا يليق التعلق به كثيرًا فإن هذا واقع الناس. فكم من خطأ عبر عليهم لأنهم يثقون بقائله وكم من حق هجروه أو خالفوه لخلافهم مع قائله. ولأن التحدي المسيحي الغربي وعدم التسامح الغربي وإرث الصراع الدائم يُضعف قبول قول الغربي لكونه خصمًا، وإن لم يكن الفرد

منهم خصمًا فإن الموقف العام المسبق كذلك. فمحمد أسد شاب لم يأت بعقلية المراقبة الثقافية، بل ربما كان الرصيد العبراني اليهودي حاضرًا فوجد ما هو أكثر منه، بخلاف دارسين كثيرين كانوا جاهزين مسبقًا، وعارضي رماح محددي الجبهات والأدوار، فتجد السن غائب الأثر لعمق الدور الجاهز الموكل إليه، فهو جندي في الميدان مكلّف بعمل في الثقافة، مثل ذلك الذي يستعد لضغط الزناد وإطلاق الرصاصة الحسية، وتجد الإعلامي والدارس الجاسوس مثله تمامًا أعمى عن كل جاذبية يشاهدها.

إن مرونة المثقف شيء يَفقده المجند الثقافي مبكرًا، فتجنيده فكرة أو عدة أفكار في صغره أشبه بمن يدخن صغيرًا، إذ يصبح الإقلاع عن عاداته الفكرية أصعب ممن جُند متأخرًا، مع أن للعامل الفردي والاستعداد للتنويع أثره الذي يظهر. وإن بقي المجند صغيرًا في بلده ولم يهاجر كثيرًا ويخالط أفكارًا وثقافات أكثر فسيكون تصلبه أعتى، وقلة مرونته تتعمق بالأدلة، وتكثر عليها الشواهد، ولا يصبح قادرًا على الفصل بين المعارف والعادات. كما أن الزيارات العارضة للبلدان قد لا توصله إلى روح الأمم ودوافعها، وليس مطلوبًا منه دائما ذلك، ولكن مرونته في ثقافته ووعيه بمقاصد معرفته ومصيرها أخطر من مجرد المعرفة، وكثيرًا ما نجد متعمقين في ثقافتهم تحول معارفهم الواسعة دون وعيهم بها، فاستهلاك التفاصيل يضعف أدوارهم.

صحيح أني قد أكون في تقييمي لمثقف مثل محمد أسد منحازًا بحسب نتائجه، ولكن صهيونيًّا معاصرًا له -وأعني برنارد لويس- لم يجعل من معرفته وذكائه وتحليله رافدًا يليق بمثقف عالمي، بل بقي في خلاصة ما وصل إليه كاتب وصفات تكتيكية للغزاة[142]. بل بلغ به ضيق أفقه أن يراجع حماسته اليسارية -و«العلمية» كما كان يُقال عنه من عرب فرحوا به في أول أمره- ويعيد تحريف أفكاره الإيجابية عن العرب ليمحضها سلبية، منسجمة مع الانحراف الصهيوني الجارف الذي انساق له في ثلث حياته الأخير. وهو بهذا لم يحقق مرونة بل عاد إلى أصل التعصب الصهيوني الاستشراقي بلا جديد، واستخدم كل هذه المعرفة والتحليل والركام لمهمات عنصرية وصغيرة أو تافهة، يمكن لمتعصب أقلّ منه جمعها من التقارير وإعادة عرضها، وما كان للمعلومات الواسعة إلا أن تكون هامشًا شكليًّا على نصوص ومتون ومواقف سالفة أو لاحقة لغيره، فجعل من علمه تأييدًا للتقاليد لا نجاحًا معرفيًّا.

نعم إن كثيرًا من العارفين عندنا يسخّرون المعرفة لتأكيد المواقف القديمة، واستمرار رسالة الأصل والتنكر للجديد مهما نفَع أو ضرّ، ولكون معرفتهم هي نفسها القديمة فعذرهم معهم، ولكن سيكون هذا التصلب الأعمى ضررًا بالمعارف والعارف والمجتمع، ويُفقد المعرفة وحاملها رسالته التي منها المواءمة وصناعة الطموح، والانتقال إلى عالم أكثر مرونة وعملًا ونتاجًا من سابقه.

خمول المثقف

هل هناك مثقف يمكن وصفه بالخامل؟ أم إن خموله يخرجه من دائرة وصف مثقف؟ هناك مخاطر ينشرها المثقفون الخاملون وما أكثرهم! والمقصود بالمثقف الخامل ذلك الذي ألغى موارد الفهم إلى عقله، إما باسم الدين أو باسم الإلحاد. فالمثقف بالغ اليقين بثقافته مثقف خطر عندما يسحب مسألة اليقينيات إلى كل شيء، فلا يتساءل عن شيء، ولا يعطي دورًا لعقله ولا ضميره في تقدير احتياجات الناس، وكذا الملحد الذي قطع بأن الله لم يوجد لأنه لم يره، أو كما قيل لن يستطيع

أن يجعله تحت مجهر الفحص في معمله، أو كما طاب لآرثر شوبنهور أن يقول عنه: «كلما انحط الإنسان في القوة العقلية قلت مساتير الوجود في نظره، فكل شيء عنده يحمل معه تفسيرًا لكيفية وجوده وسبب حدوثه»[143]. وهذه النوعية الخاملة من الناس تتغافل ضمائرها لشدة قسوتها في قناعتها، ولهذا فهو العاقل الوحيد، ولا يقدر أولويات حياة الناس في مجتمعه، ويذهب دائمًا إلى الجدل الكلامي مدْبرًا عن الحاجات العملية اقتصادية كانت أو سياسية أو اجتماعية.

وسبب خمول هذا النوع من المثقفين جاذبية القضايا التأملية وغير العملية وسهولتها، وقلة الخلاف -فيما يرى- بشأنها، ولأنها محسومة، فهو يستمتع بها ويترك الأولويات أو أولويات أخرى للحياة الإنسانية، فالموحد والمثلث والمثبت والنافي كلهم يحتاجون في نهاية الأمر إلى ضرورياتهم الأخرى، ضروريات الحياة الكريمة من سلامة العقل وتوفر الأمن والعدل والحرية والغذاء.

ولهذا وجب التخفيف من غلواء هذا النوع السلبي من المثقفين، ذلك الذي يرى المعارف كلها في ومضات وإلهامات وكرامات، أو يراها فلسفات أو طفرات علمية غير مفسرة، أو مجرد مادة وعقل يغلق عليه كما أحب، ثم يرتكس في مادية قاتلة لا ترى للضمير ولا للإنسان وإنسانيته مكانًا إلا وفق عقيدته المغلقة مسبقًا. فقد تكون الفلسفة والتحجج بها غطاء على مغادرة العقل كما تكون علة لعبادته، أو كما يقول ديكارت: «إن محترفي الفلسفة هم غالبًا أقل حكمة وأقل اعتصامًا بالعقل من غيرهم»[144]. ولذا فالحياة عند المثقف الفاعل ليست كما قدمت لهؤلاء أو كما رأوها، بل كما يجب أن تصبح بعد تأثيره فيها. ولذا فالمثقف حقًّا يعمل على تشكيل نمط الحياة المستقبلية دائمًا، ولا يقبل أن يتركها كما جاء إليها أو كما مرّ بها أول الأمر.

إن المجتمع الديمقراطي الحر يسمح للمثقف بممارسة دور كبير في مصير مجتمعه، بعكس المجتمع المغلق الذي يهيمن عليه الاستبداد؛ فالمجتمع المستبد يجبر المثقف على التطرف باتجاه الخروج الحاد على السلطة أو العبودية لها، ويجعل هذا المجتمع يضيع بين تطرفين ومجتمعين وصورتين متضادتين. هذا الحال لا نجده في المجتمع الديمقراطي الذي يصنع أحيانًا إجماعًا سيئًا موافقًا راضخًا ومنسجمًا مع المؤسسة الرأسمالية ومصالحها[145]، ولكنه –في المقابل- ليس فرديًّا، أي ليس الولاء لشخص أو أشخاص بل لسياق مصلحي عام يشعر أهله بحريتهم، ثم هو يسمح بوجود معارضة تبني وجهة نظر أخرى عملية أو إصلاحية، ومنها ثورة الستينيات في الغرب الأوروبي فيما يتعلق بتمرد الشباب، وصعود تيار «الحقوق المدنية» في أمريكا، وحركة المرأة في أوروبا.

تلك الموجة الثقافية التي أسسها مثقفو التمرد بعد الحرب العالمية الثانية، ثم موجة المحافظة والتدين في السبعينيات التي أثمرت وصول زعماء محافظين، أولهم وأهمهم الرئيس الأمريكي رونالد ريغان وأتباعه ورجالات الكنيسة في «حزام الإنجيل»[146]، الذين صنعوا تحالفًا بين اليهود التائبين من الشيوعية التروتسكية (المحافظون الجدد) والصحوة الدينية الكنسية بسبب جهود الرد على موجة «الخنافس/ الهيبيين»، التي كان من زعمائها مثقفون من أمثال ويليام بكلي[147] وجورج ويل، وصولًا إلى صعود تيارهم الثقافي في التحالف المسيحي و«نادي سبعمئة»، وكذا في بقية دول أوروبا الغربية التي تتلبس أحيانًا نزعات عنصرية في فرنسا -وإلى حد ما في بريطانيا- بسبب كساد الدين، وليس كذلك في أمريكا؛ فقد كان بلير يخفي تطرفه الديني في مجتمع أكثر علمنة، وكان الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن يُظهر تطرفه ويكشفه هو وحزبه، وحتى يهوده

عملوا على إنتاج صيغة وتقارب كنسي مسيحي مع تطرف صهيوني يهودي، في بلاد للدين فيها سوق مالي وإعلامي كبير[148].

ثم إن للحال المحيط بالمثقف أثرًا كبيرًا في فاعليته وقيامه بواجبه، ومن ثمّ لا نحمل المثقف الخائف ولا من يعيش في مجتمع مقموع مسؤولية مماثلة بمثقف حر وفي مجتمع حر، فالمروءة والشرف والكرم والترفع عن الصغائر قرينة لحال الإنسان الحر، وتقل هذه الأخلاق والمروءة بمقدار ما يسفل المجتمع ويُستعبد. ورغم هذا فإن المثقف الحر يبقى متطلعًا ومصممًا على تحرير نفسه وأخلاقه وضميره، ورفع ذاته بالإلحاح على رفع الآخرين.

فالمثقف الحر يحرس فضائل الإنسان في مجتمعه أصالة وفطرة لا تصنّعًا، أما في المجتمع الهابط في حريته أو أخلاقه فقد يقوم بحراسة أي فضيلة ربما مخافة لا اندفاعًا وطبيعة وفطرة[149]؛ لأن الفطرة مقموعة والمروءة مُهانة في المجتمعات الخاضعة، وتبقى في الإنسان نوازع خير تحارب نوازع الهبوط والضعف والأمانة، وتفرض على المثقف أن يصر على رفع الإنسان ومجتمعه فوق نقصه وضعفه.

ومن ضعف المثقف إهماله جانب الجودة في فهمه القضايا المثارة، فهو يشارك ويكتب ويتحدث أحيانًا مع قصور معرفي كثير في حقيقة ما يحدث، خاصة أن الدكتاتوريات ما زالت تمارس احتكار الرأي بعد فشلها في احتكار المعلومة، وهو يسعى لكل نتيجة سهلة سريعة لا تكلفه معرفة ولا فهمًا ولا وقتًا، وهذا من أسباب كون أثره ضعيفًا والثقة به ضعيفة في مجتمعات تحب الإثارة السريعة، ولا تقدم لها ثقافتُها توازنًا بين طرفي المعرفة والإثارة.

ووجود المثقف السريع المثير المستغل طبيعي، ولكن تسيّده المشهد الثقافي يحدث غالبًا حين تتراجع المعرفة الجادة ولا يوجد أو لا يُسمح لذوي المواقف والمعارف الجادة بالمشاركة، ولا يتحرك أصحابها بحرية، ولا يوجد في الحكم ولا في المجتمع من يعطي أهمية للأعمال الجادة الراقية؛ فتسود البضاعة السيئة السريعة وتكسب الحشود التي لا خيارات كثيرة لديها. فمع وجود إعلام تجاري غربي كبير في السوق يبقى الإعلام العام المنفَق عليه من تبرعات الناس ومن الجمعيات المدنية موجودًا ومؤثرًا، فيراقب وينتج ويحاسب وهو ليس حكوميًّا ولا شعبويًّا. فمثلًا «بي بي سي» في بريطانيا ليست مؤسسة تجارية ولا هي حكومية، و«بي بي أس» الأمريكية كذلك، ويحظر القانون البريطاني توجيه الحكومة للإعلام وكذا في أمريكا.

ولكن الإعلام الاستعماري الخارجي تُنفق عليه هذه الحكومات، ويحظر نظامُهم استغلالَ الحكومة للشعب بينما يسمح لها في المستعمرات والخارج بدعاية الدولة ضد الشعوب الأخرى، مثل قناة «بي بي سي» العربية التي تتبع وزارة الخارجية البريطانية، وكذا قناة «الحرة» الأمريكية تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، للدعاية لسياسة الحكومة ضد الشعوب في الأراضي التي احتلتها أمريكا كالعراق وغيره.

في هذه الحالة يكون هذا الإعلام الدعائي والموجَّه -مثل إذاعة «صوت أمريكا» أيام الحرب الباردة- ممنوعًا من تضليل الشعوب الحرة في أرضها، ولكنه مطلوب لتوجيه الرعاع في الخارج، أو للدعاية للسيطرة الغربية أو ضد خصومها يوم كانت روسيا، قبل أن تحتل الشعوبُ العربية والإسلامية موقعَ روسيا في الإعلام الموجه.

ومن المعروف قديمًا وحديثًا أن المستعمِرين عادة لا ينشرون ولا يحملون فضائلهم إلى الخارج، بل يحرصون على نشر الرذيلة الممزِّقة للمجتمعات الأخرى والتي تلغي إنسانيتها. ويوم يرجع الغازي أو المستعمر نفسه إلى بلاده فإنه يحاول رفع فضائل بلاده والحفاظ عليها، ولكن هذه الطريقة ليست على إطلاقها؛ فكثير من الغزاة المستعمِرين دمّروا بلادهم بعد جلب رذائل مارسوها في المستعمرات والأقطار التي غزوها وأفسدوها، وأصبح هؤلاء الغزاة رسل تدمير مضادّ وإفساد عريض لإمبراطورياتهم؛ لأن الأرباح الهائلة التي عادوا بها من فساد رعوه ونشروه لم يعودوا قادرين على التخلي عنها. وأبرز الأمثلة تلك العصابات التي غزت العراق ودمرته ثم عادت إلى بلادها بفساد شنيع وجعلت من الفساد نظامًا قارًّا.

بعد أحداث سبتمبر 2001 تعرض المسلمون الأمريكان لهجمة حكومية رسمية شرسة، ومن كان له أدنى مشكلة مع الحكومة أو مخالفة تضاعف ضده العداء والسجن والعقوبات. وأشيع وقتها وروّج لهوس نائب الرئيس تشيني وكراهته المسلمين. كما أشار وزير العدل جون آشكروفت مرة إلى أنه في الماضي كان يُعتقل الإنسان -خلال وقت الأزمات- بسبب البصق على الشارع، ليجعل ذلك سببًا قانونيًّا لاعتقاله. وكان يعني استغلال للقانون بأي طريقة ضد المسلمين ومخالفي توجه سلطته. وكثير من المسلمين اصطلوا بنار الحكومة الأمريكية بعد أحداث سبتمبر 2001 من العامة والخاصة، فقد لقوا ضنكًا وتمييزًا عنصريًّا في كثير من مواقعهم، وطرد بعضهم من أعمالهم بسبب أسمائهم.

غير أن ما أشير إليه هنا أن الطبقة المثقفة من المسلمين هي من تلقى المحنة بأسوأ صنوفها، فأصبح مطلوبًا منهم -دون غيرهم- أن يستنكروا ما حدث وقد فعلوا. وكانت المبادرات الشاملة لاستنكار ما حدث وتعزية ذوي الضحايا منذ الساعات الأولى، وطلب من المثقفين أن يتخذوا مواقف متطرفة ضد أمتهم ودينهم، ومن لم يفعل ذلك فقد لقي أحيانًا مضايقاتٍ كثيرة، خاصة بعد رفع بوش الشعار الإنجيلي: «إما معنا أو ضدنا»، وكاد يُفسر عند طائفة بـ«إما أن تهجوَ الإسلام والمسلمين أو تُسجن». وبعضهم انساق في هذا السياق، كيف وقد كان المسلمون قبل هذه الأحداث الهدف لقانون خاص بهم تقريبًا هو «قانون الأدلة السرية»، وكانت العين على المثقف المسلم حارّة وكارهة وناقدة ولائمة. ومن المعروف أن مسلمي أمريكا لا يعرفون شيئًا عما حدث، ولكن أصبح عليهم أن يكونوا متهمين وأن يكونوا لسان التجريم والاستنكار، ولما فعلوا لم يسلموا من عين التهمة والملاحقة، ثم فُتحت لهم أبواب السجون لمجرد الشبهة.

وقد خرجت مرة مع المحتجين المتظاهرين ضد سجن أحد المسلمين من سكان المدينة الصغيرة التي نسكنها (آن آربر) وذهبنا إلى مدينة ديترويت، وحيث كان العرب والمسلمون الأكثر عددًا ضمن المتظاهرين -رغم وجود غيرهم من المناصرين- فقد شد الانتباه وجود عجوز أمريكية معاقة يدفعها أحدهم على عربة، والثلج يسقط فوقها وعلى الجميع وهي تتظاهر لفك أسر مظلوم مسلم. وقد شكرناها خاصة من بين العدد الكبير من غير المسلمين الذين تضامنوا مع المسلمين في محنتهم. وتحدثنا عن السبب الذي أخرجها رغم فقرها ومرضها، وكونها تدفع عشرة دولارات أجرة في الساعة لمن يدفع عربتها، لأجل أن تصرخ في وجه السلطة المتجنية على المسلمين الظالمة للأقلية الضعيفة. وعندما سألناها عن اهتمامها هذا قالت إنها تعيد السبب إلى محاضرة حضرتها في كندا لمفكر يساري اسمه تشومسكي، فأخرجها من غفلتها ومن عدم اهتمامها بالمضطهدين في العالم، وقالت إنها كانت من قبل تحضر الكنيسة وتهتم بالمواعظ، ولكن تلك

المواعظ لم تكسبها هذا الاهتمام. ثم علمنا فيما بعد أنها بعد حضور المظاهرات ترجع إلى بيتها وتكتب على الإنترنت في مدونتها، وتهيج الناس للاهتمام بالمستضعفين من المسلمين وما تهددهم به حكومتها من مخاطر.

إننا كثيرًا ما نعرف الحق والباطل والعدل والجور، ولكننا لا نعرف كيف نساهم في إنجاز الخير وتنفيذه، ولا نعرف كيف نرد الشر ونتخلص منه، ولهذا فإن للعارفين والأذكياء دورًا مصيريًّا في تحقيق المكاسب الخُلقية والمعنوية والعلمية لمجتمعاتهم، وعليهم مسؤولية رد الشرور والتنبه لها، وعلى القيادات الفكرية والثقافية تقع المسؤولية الكبرى في هذه القضايا.

أنماط المثقف

نلاحظ الفرق الكبير بين المثقفين من حيث التحصيل المعرفي ومن حيث الوعي بالحال، ولو تساهلنا في التفريق بين مستويات المثقفين من حيث التحصيل المعرفي والوعي، فإن هناك فروقًا كبيرة تميز بين المثقفين من حيث الأداء، فقد يكون التأسيس المعرفي عميقًا ومتسعًا، ولكن أداءه يقتصر على التأثير في دوائر صغيرة من العامة أو الخاصة، وهناك من يوازيه أو يتفوق عليه معرفيًّا وأداء ويؤثر في مختلف الطبقات الخاصة والعامة، وهذا هو «المثقف العام».

وهناك «المثقف الشعبوي» وهو صاحب الجماهيرية الواسعة، والاستجابة لصوت الجماهير وإن لم تكن على صواب، فيقول ما يسر المستمعين ويطربهم ويهيجهم ويريح أعصابهم أو يصنع مواقفهم، من تأليب أو تغرير، أو حتى هداية أحيانًا لموقف خير، ولكن المثقف الشعبوي قد ينفع مرة لكنه قد يضر مرات.

والشعبوي بهذا التعريف قد يكون واعظًا أو صحافيًّا أو خطيبًا من أي نوع، خاصة ما يجود به الإعلام الجديد من شخصيات متنوعة الوسائل للوصول إلى الجماهير. وهنا كأننا حددنا «مثقفًا» و«مثقفًا عامًّا» و«مثقفًا شعبويًّا»، ونمتدح الأول ونطالبه بالدور العام، ونأمل الكثير من الثاني، ونحذر من الثالث «الشعبوي» بسبب تقلبه، وكونه يميل إلى الصوت الدعائي أو يستجيب للقوة الموجهة أو المستغلة للفكرة، وليس لصحة الفكرة ولا لعدالتها.

والكاتب الرسالي الأمين والمؤثر منسجم مع نفسه، لا يصطنع ما ليس له، لا من حيث الأسلوب ولا الوسيلة، وكلما كان أقدر كان غالبًا أكثر تواضعًا. وتعجب لفيلسوف كبير مثل برتراند رسل يكتب أسلوبًا سهلًا جدًّا لقرائه، وهذا في كتابته وحياته، وهو الذي ترك منبر الأستاذ في جامعة كامبرج ليطلب من تلميذه أن يقدم المحاضرة بدلًا منه؛ لأن تلميذه كان أعلم بالموضوع منه[150]. فمثل هذا يمكن أن يرفع نفسه ومجتمعه بلا تكلف، ويسهم في صياغة العقول الجمعية لمجتمعه بلا صعوبة، وسبب فعله ذلك هو الثقة والتخفف من الغرور، أو محاولة التخفف من الغرور ولو مؤقتًا، فإن الواعي بنفسه وإمكاناته يجاهد على جبهتين: جبهة المصالح العامة وجبهة مواجهة «الأنا»، وما تزرعه الذات من اعتداد بالنفس قد يُضعف الوعي الذاتي، ويغرر بالجماعي، أي المصالح العامة.

ولبرتراند رسل مواقف كثيرة محمودة منها مواقف إنسانية عدة، كمواجهته انتشار السلاح النووي ودخول بلاده السباق النووي[151]، وكذا مناصرة المقهورين والمثقفين المنافحين عن القضايا الإنسانية بقطع النظر عن مذهبيتهم السياسية، وأحيانًا رغم بعدهم وتكاليف ذلك في زمنه. وقد ذكر طارق علي في كتابه **سنوات حرب الشوارع: سيرة الستينيات** أن رسل أرسله مع بيري

أندرسون وروبن بلاكبورن لشهود محاكمة اليساري الفرنسي الشهير ريجيس دوبريه في بوليفيا عام 1967 [152]. وتشومسكي طلب من محامي الأستاذ سامي الحصين أن يسمح له بالشهادة في المحكمة ضد دعوى الحكومة الأمريكية عليه؛ لأن الحكومة إن كسبت الدعوى ضد سامي —وهي لم تنجح- فستكون سابقة في كبت حرية التعبير أو حرية وسائلها.

والمثقف ليس محصور الدور كالقاضي في قضية، ولا المطلوب منه ذلك، بل الحاجة تلزمه أن يكون شاهدًا مرة، ومدعيًا أخرى، ومدافعًا في موقف ثالث، وجنديًّا مرة، وقياديًّا مرة أخرى، وغالبًا هو أقرب إلى دور المفتي وأمانته فيما يعلم. ويقوم بدور الجندي فيما عليه أن ينفذه، فعليه أن يقول الحق فيما هو بصدده، وهل يجرؤ أن يقول بغير مصلحته الشخصية عندما تتعارض مع الحق؟ ذاك هو النداء المستمر للمثقف بأن يتجرد للحق، وأن يقاوم ضعفه الشخصي فيضحي من أجل المصالح العامة، لا أن يبرر ضعفه ويجعل من هواه ومصالحه الذاتية مصالح عامة. وقد يمر على ضعفه وإقناعه لنفسه أن يتخيل ثم يؤمن بأن شهواته ومصالحه هي مصالح الأمة، وتلك فرية وخديعة لا يعلو فوقها إلا النبيل الشهم الذي يكون نجمًا في ظلام الفتن، فيبقى مصدر النداء والتطلع والأمل والحشد للارتقاء.

وما أعظم ما ألحق الاستبداد بالمثقف العربي والمسلم في زماننا، فهو لم يضعفه ويكبله ويضيق سبل عيشه وينكّد حياته فقط، بل أضعف قدراته الذهنية، ودمّر أخلاقه، وأوهن حميته، واستتبعه في دروب الهزيمة والسلبية، وجنده للزيف والباطل إلا من رحم الله، ثم يبرر المثقف ورطته بهجاء أمته وقدح تاريخه وتسفيه قضاياه، واثقًا بنفسه وبما يقوله، وهو لم يعلم أنه قد أصبح مزيّفا إلى درجة غياب الوعي عنه، والطريف أنه لم يزل يرى نفسه ناشر الوعي ورائد التوجيه.

إن تواضع المثقف وقلة غروره من أهم مميزاته، ومن أنفذ أسلحته وأكثرها تأثيرًا في هدايته إلى العدل، وقد كان قول أبي العلاء المعري مؤثرًا:

ماذا تريدون؟ لا مال تيسر لي	فيُستـماح ولا علم فيُقتـبس
أتسألون جَهولا أن يفـيدكمُ	وتحلبون سفيًّا ضرعها يبس؟
أنا الشقي بأني لا أطيق لكم	معونةً وصروف الدهر تحتبس [1]

[153]وقد قام المعري بأدوار عديدة كالوساطة والتعليم والنقد، وعده ناصر خسرو في كتابه **سفر نامه** حاكمًا لمعرة النعمان -مع أنه لم يكن حاكمًا- ربما لكثرة حضوره بين الناس.

فإذا تواضع المثقف اقترب من أن يقدر المواقف، وأن يفهم المراد، ويحسن وضع نفسه وتمثلها طرفًا في القضية المعروضة، ويفتح له الباب للاهتداء إلى الحقيقة بغض النظر عن مصدرها؛ لأن المثقف والزعيم معرضان أكثر من غيرهما للغرور، وتتولد عندهما مشاعر فخر وتعالٍ. وقد يفهم المثقف خطأ أن مكانته تعني صوابه المستمر، وهذا ليس صحيحًا، بل قد يكون صوابه في وقت ما مهواة به إلى أخطاء فاحشة في أوقات أخرى، عندما ينسى أسباب الصواب السابقة، فالصواب قريب جدًّا من التواضع؛ لأن من الصواب التخلي أحيانًا عن موقف ذاتي وعن غرور التفرد بالرأي. أما بيت الشعر الشهير المغري بالاستبداد والقائل «إنما العاجز من لا يستبد»[154]، فحيلة شيطانية ذكية لاستغلال الغرور ليخدم صاحب القضية، وهو من الأمثال السخيفة المضرة، ومن منتجات ثقافة الاستبداد.

وفي حال الغرور والاستبداد يصبح المثقف ضحية لغروره، مفسدًا لعقله وهاويًا بدوره من الإرشاد إلى الإفساد. والتعالي يصنع كراهية للحق الذي يحمله المثقف، فكلما شعر سامعوه أو قارئوه بهذه العلة نفروا منه. وقد يتمادى في غيه وغروره فيضر قضيته ونفسه ومن يمكنه أن يستفيد من عمله، فبدلًا من أن يستفيد من القارئ والسامع يصبح في شغل بالتوقي والبعد من هذا المغرور. ولكن مشكلة الذكاء والتفرد التي قد تركب رأس المثقف الشهير تسبب له فتنًا أخرى، وقليل من الناس يسلمون من هذه العلل عندما يصبح لهم جاه وصولجان، ولهم أتباع ومنابر، هذا إذا سلموا من علل نفسية عديدة مواكِبة لتلك الحال.

وممن وضع يده على أمراض المتعلمين كثير من أدباء الإسلام وعلمائه قديمًا، ومن أبرزهم التوحيدي في كتابه **مثالب الوزيرين**[155]، والجاحظ في رسالته المعنونة بـ **ذم أخلاق الكُتّاب**[156]. وهو وإن كان يقصد في الرسالة كتاب السلاطين والدواوين (الإدارة) وليس تمامًا ما نتحدث عنه هنا؛ فإن بعض الجوانب يشترك فيها معهم المثقفون أحيانًا. فهو يصف تكبر بعضهم وصفاقته بقوله: «ثم هو مع ذلك في الذروة القصوى من الصلف، والسنام الأعلى من البذخ، وفي البحر الطامي من التيه والسرف، يتوهم الواحد منهم إذا عرّض جبته وطوّل ذيله، وعقص على خده صدغه.. أنه المتبوع ليس التابع، والمليك فوق المالك»[157].

والغريب جدًّا مما ذكره الجاحظ من عيوب الكتاب في زمنه -إلى جانب تكبرهم وتعاليهم- هو ميلهم إلى البعد عن الدين وتسفيه أهله، وطعنهم في القرآن والحديث، مع تقديسهم دائمًا المصادر الإلحادية والوثنية، من نتاج أمم غير مسلمة وإن كانت غثاء. يقول عن نماذج من هؤلاء: «إنّ سِنْخَ الكتابة بُني على أنه لا يتقلدها إلا تابع، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخدم، ولم نر عظيمًا قَطُّ تولى كفاية نفسه، أو شارك كاتبه في عمله...؛ فيكون أول بُدُوّه الطعن على القرآن في تأليفه، والقضاء عليه بتناقضه، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الأخبار، وتهجين مَن نَقَل الآثار، فإن استرجع أحد عنده أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتل عند ذكرهم شدقه، ولوى عند محاسنهم كشحه، وإن ذكر عنده شريح [القاضي] جرّحه، وإن نعت له الحسن [البصري] استثقله، وإن وصف له الشَّعبي استحمقه، وإن قيل له [سعيد] ابن جبير استجهله، وإن قدم عنده [إبراهيم] النخعي استصغره. ثم يقطع من مجلسه بسياسة أردشير بابكان، وتدبير أنوشروان، واستقامة البلاد لآل ساسان. فإن حذَر العيون وتفقده المسلمون رجع بذكر السنن إلى المعقول، ومحكم القرآن إلى المنسوخ، ونفى ما لا يُدرَك بالعيان، وشبه بالشاهد الغائبَ، لا يرضى من الكتب إلا المنطق، ولا يحمد إلا الواقف، ولا يستجيد منها إلا السائر. هذا هو المشهور من أفعالهم، والموصوف من أخلاقهم. ومن الدليل على ذلك أنه لم يُر كاتب قَطُّ جعل القرآن سميره، ولا علمه تفسيره، ولا التفقه في الدين شعاره، ولا الحفظ للسنن والآثار عماده، فإن وُجد الواحد منهم ذاكرًا شيئًا من ذلك لم يكن لدوران فكّيْه به طلاقة، ولا لمجيئه منه حلاوة. وإن آثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث والتشاغل بذكر كتب المتفقِّهين، استثقله أقرانه واستوخمه أُلاَّفه، وقضوا عليه بالإدبار في معيشته، والحرفة في صناعته، حين حاول ما ليس من طبعه، ورام ما ليس من شكله. قال الزهري لرجل: أيعجبك الحديث؟ قال: نعم. قال: أما إنه لا يعجب إلا الفحول من الرجال، ولا يبغضه إلا إناثهم. ولئن وافق هذا القول من الزهري فيهم مذهبًا إن ذلك لبيّن في شمائلهم، مفهوم في إشاراتهم.

وسُئل ثمامة بن أشرس وقد خرج من عند عمرو بن مسعدة [أحد الكتاب زمن المأمون] فقيل له: يا أبا معن، ما رأيت من معرفة هذا الرجل وبَلَوْتَ من فهمه؟ فقال: ما رأيت قومًا نفرت طبائعهم

عن قبول العلم، وصغرت هممهم عن احتمال لطائف التمييز -فصار العلم سبب جهلهم والبيان علمًا على ضلالتهم، والفحص والنظر قائد غيهم، والحكمة معدن شبههم- أكثر من الكتاب... ومن الدليل على نذالة طبعهم، والعلم بسفالة رأيهم: تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه، حتى إنهم يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل، ويحكمون له البصيرة في الأدب، على غير معاشرة جرت بينهم، ولا محبة ظهرت له منهم، ليس إلا أن هممهم صغرت عنهم، وامتلأت قلوبهم منهم، فصار المحفوظ من أقوالهم، والذي يدينون به من مذاهبهم: كيف لا يأمن فلان الخطأ مع جلالته، وكيف ينساغ لأحد تجهيله مع نبله. فإن وقفوا على تمييزه هابوه، وإن دعوا إلى تفهمه أكبروه، وقالوا: لم ينصب هذا بموضعه إلا لخاصة فيه وإن جهلناها، وفضيلة موسومة وإن قصر علمنا عنهم». [ونُسب إلى الجاحظ] قوله عن الكتاب: «خُلقٌ حلوة، وشمائل معشوقة، وتظرف أهل الفهم، ووقار أهل العلم، فإن ألقيت عليهم الإخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاء، وكنبتة الربيع يحرقها الهيف من الرياح، لا يستندون من العلم إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقة؛ أخفر الخلق لأماناتهم، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم، الويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون.. لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يَجْرون في ذلك إلى غاية محمودة، ويأتون منه آية مذكورة، إلا الكُتاب فإن أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله، ويسترجح رأيه إذا بلغ في نكاية رجل من أهل صناعته... هم كالهرمة من الكلاب في مرابضها، يمر بها أصناف الناس فلا تحرّك، وإن مرّ بها كلب مثلها نهضت إليه بأجمعها حتى تقتله... معاشر الكُتاب، ما أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم، ثم إنكم في غاية التقاطع عند الاحتياج... وإنكم لتناكرون عند الاجتماع والتعارف تناكر الضِّباب والسلاحف... إن للكُتاب طبائع لئيمة.. وأنتم لأشكالكم مذلّون ولأهل صنائعكم قالون»[158].

وهنا نرى قول الجاحظ وهجاءه المرّ لهذه الطائفة، فهو لا يرى نفسه في دائرتهم، إذ هم طائفة تختلف عن الأدباء والعلماء، هؤلاء الكتاب يختلفون عنه، فليس هو كابن المقفع المسكين الطامع ولا عبد الحميد الكاتب ولا من جنسهم؛ فحسبه أن يقصد ويلوم كتاب الدواوين والسلاطين.

وقد ظهروا في عصرنا مختلطين -أعني اختلاط كتاب الدواوين- بالمثقفين، وكم من مثقف بدأ ديوانيًّا أو مثقف انتهى ديوانيًّا، ليس هذا فحسب بل إن كثيرًا من المثقفين بدأ جاسوسًا أو انتهى جاسوسًا، ومن عرف بعض كبار الكتاب -من كتّاب الدواوين أو الكتاب للعامة وللمتخصصين- في عصرنا وجدهم عملوا زمنًا في الجاسوسية خاصة في زمن الحروب. فالفيلسوف البريطاني الشهير إيزايا برلين عمل جاسوسًا لبريطانيا والولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية ضد روسيا بسبب نشأته في لاتفيا وروسيا. وكذا الفيلسوف الألماني هربرت ماركوز. والمؤرخ الخبير السياسي المحافظ الجديد برنارد لويس عمل جاسوسًا في الحرب العالمية الثانية على بعض العرب بحكم إجادته العربية، ثم عمل منتميًا نشطًا للصهيونية ومصالحها.

ومن كتاب السلاطين من انتهوا في زمنه وفي زماننا إلى أسوأ الحِرف؛ لأن بيع النفس وفكرتها ينتهي بهذا النوع من الباعة إلى ما هو أسوأ. وإذا كان صعبًا الحديث عن هؤلاء، فإن أممًا تبحث عن طريق لنهضتها وحياتها بعد الخمول تحتاج إلى معرفة الشر والهوان وأهله، كما تحتاج إلى معرفة دروب الرقي والفلاح.

المثقف مُصغَّرًا

لعلك عرفت أو لقيت مثقفين تحولوا إلى كائنات صغيرة جدًّا، وقد كان أحدهم يحمل معارف وآراء وإمكانات هائلة تؤهله لأن يكون كبيرًا، ولكنه لم يستطع أن يقاوم نزعات عنصرية أو إقليمية أو قومية أو عقائدية صغيرة، وكأنك تتمثل بقول المتنبي التعجبي:

ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا   كنقص القادرين على التمام

إنهم يملكون ولا يقدرون أو لا يعرفون كيف يوائمون بين مطالب العلوّ ونزعات الصَّغار، ويتوقعون أن استجابتهم لدوافع الصَّغار المريحة للذات وللعشيرة وللدوائر الضيقة هي الغاية، ولكن الحقيقة أن هناك توازنًا يجب ألا يؤدي إلى تنافر بين الرغبة في المدى القصير للحياة في عشيرة أو مجتمع صغير مريح ومؤنس، وبين الحياة لرسالة ونفع أعم تجعل المثقف في محيط واسع أحيانًا، وأقرب إلى العراء الذي لا يكاد يحمي من شيء.

فبعض المثقفين يعاني أحيانًا كثيرة من مرض الحسد والغيرة من أمثالهم، ممن تميز عليهم أو تقدم، فيستهلكون جهودهم في التقليل من أقدار منافسيهم سواء كانوا صغارًا أو كبارًا. ولعل النكتة الطريفة التي صنعوها للمفكر الروسي جورجي بليخانوف تختصر الكثير من المقصود هنا، إذ تزعم الطرفة أنه حين قدِم ليون تروتسكي هاربًا إلى لندن وحاول لينين ضمه إلى فريق مجلة **أيسكرا** (الشرارة) التي يحررها نخبة الشيوعيين، قدمته فيرا زاسوليتش إلى بليخانوف قائلة له عنه: «لا شك أن هذا الفتى عبقري»؛ فغضب بليخانوف وأشاح بوجهه قائلًا: «لن أغفر له ذلك ما حييت»[159]. نكتة تختصر عقدة مثقف من آخر شاب عُرف بتطرف في ذكائه واطلاعه وتفاؤله واندفاعه، من رجل كان من جيل والده، فكيف به لو كان قرينًا له!

عندما يصغِّر المثقف من نفسه واهمًا أنه يعظم مكاسبها فإنه يضع نهاية لدوره الشمولي ولريادته للتوجيه العام. إن للمثقف العام واجبات إن لم يحققها فإنه لا يستحق هذا الوصف. ومن واجباته ترفّعه عن شهوات ضعفه وعن ضغوط السلطات المختلفة عليه، وهو يسلك بهذا طريقًا يخسر فيه دون ريب ولكنه يكسب روحه وضميره وصدقه، كما يكسب ثقة الناس وتعاطفهم من كل مكان، خاصة الذين يدركون صدقه والثمن الذي يدفعه جراء ترفعه على عوامل الصغر والسقوط.

ليس هناك من مواصفات سحرية نقولها لك عن المثقف الشمولي، فلا يمكن لأحد أن يكون هو بمجرد قراءة مواصفات له، ولا المحاولة في تلك المواصفات. إنه جهد وبراعة واستمرار ينتج عنه ما لا تدريه. ولعل ما أقصده بهذا المثقف الكلي أو الشمولي أو المفكر العام هو ما أشار إليه بيير بورديو وهو يتحدث عن سارتر «المثقف الكلي الشامل، المفكر والكاتب والروائي والميتافيزيقي والفنان والفيلسوف، الذي ينخرط في الصراعات السياسية للحظة بكل قدراته وقواه الموحدة في شخصه»[160].

وقد لاحظت في الغرب وجود مثقفين يدأبون زمنًا على أن يتخلصوا من دمجهم في دوائر صغيرة، وربما غيروا أسماءهم الدالة على مكانهم أو عشيرتهم أو عنصرهم الديني، ثم يعملون وفقًا للمجال العام ومطالبه ومزاجه، ولكن أكثر هؤلاء لأسباب عديدة يرجعون إلى دوائرهم الضيقة فتمتصهم وتنهي دورهم العام؛ لأنهم كانوا ممثلين غير صادقين لشعارات رفعوها، أو لأن حاجاتهم المادية أو هممهم الصغيرة ومذهبياتهم الضيقة كانت أكبر من أن يتجاوزوها، وبقي الكبير منهم كبيرًا، لا يضره أنه خرج إلى العالم من حيّز صغير فهو لم يعد يمثله، وهذا ما يؤمله المجتمع دائمًا: أن يجد المثقف الذي لا تبتلعه شهواته الصغيرة ولا نوازع ضيقة له ولا لبيئته. وهذه مأساة

للمثقفين تظهر أكثر في مجتمعاتنا لأسباب أهمها تركز المال والقرار في أيدٍ قليلة، وقلة الخيارات البديلة، فيعيش المثقف مراقبًا لرضاها متجنبًا لسخطها فيفقد ذاته ويقتل بنفسه فكره ويُضعف حيويته.

المثقف نخبويًّا

يقدّم المثقف في مجتمعاتنا على أنه حامل الأوراق والكتب والأقلام والمتكلم في التلفاز والراديو، وأستاذ في مكان ما أو كاتب في صحيفة ما، ذلك العاكف فقط على مهنة ذهنية، وهذا ما قدمته في بعض ما سبق. غير أن هذا الحصر قد يضره ويضر مجتمعه، فإنه كلما قلّت مشاركته العملية في المجتمع وقلّت مشاركته في الحياة اليومية، بل أحيانًا كلما بعد عن جهد يدوي، قلّ استيعابه لحياة المجتمع، وتنكر لذوي العمل، ووقع في انفصام دائم عن الحياة العادية للناس وبعد عن همومهم.

وكانت هذه المعضلة مشكلة عند الثوريين فتطرفوا أو أغربوا في محاولة علاجها. ومن التطرف الذي أفسد على الناس حياتهم -بحجة إلحاق المثقف بالحياة- ما فعله ماو تسي تونغ بالمثقفين عندما حوّلهم إلى مزارعين، وألحقهم بالحقول والمصانع. وكذا فعل معمّر القذافي عندما تنصت لأخبار الصين، ثم حاول تقليد ماو فطلب من طلاب الجامعة ضرب أساتذتها، وكانت نحو عام 1977 مهزلة ضرب الطلاب أساتذة الجامعة وتكسير سياراتهم[161].

إنها صور خيالية متعسفة نعاني منها ونحن نقدم المثقف أو ننتقده، فنحن أسرى نماذج وصور في مجتمعات أخرى، أو لحظات تاريخية من تراثنا، وقلّ بيننا الموقف العملي في هذه الجوانب، وبقينا ننظر إلى ماضينا بقداسة تاريخية (علماء الإسلام وأدباؤه)، أو تهويل دور المثقف الغربي وتكبيره، أو لأن بلاده تبالغ في تكريم كتابها كما في مجمع الخالدين في فرنسا (الأكاديمية الفرنسية)، أو تعطيه مكانة حزبية وحكومية كما في مجتمعات الشيوعية الروسية والصينية سابقًا، وكذا تعطي الدكتاتوريات من غيرها مكانًا لمثقفيها ضد الناقدين والمصلحين، مكايدة واستبعادًا من التأثير العام.

لذا فنقد المثقف مهم؛ لأنه هو مَن يرى المجتمع والسلطة بعينيه اللتين يجب أن تكونا كعيني الصقر، لكن بقلب حيّ عطوف، ولأنه يتاح له أن يعبر أكثر من غيره، ولا يترفّه فيفسد، ولا ينعزل فيمارس شذوذًا فكريًّا. أما المتعلم والمطلع على عصره لكنه منفصل عن مجتمعه ولا يشارك ولا يفعل خيرًا ولا يرد شرًّا، أو ما يُسمّونه مثقف البرج العاجي، فليس واردًا الاهتمام به هنا لصعوبة قبوله تحت وصف مثقف، كما شرحت في الكتاب بإسهاب، بل يمكن وصفه بمتعلم أو أديب أو فقيه أو عالم؛ لأن معارفه سكونية وغير عملية.

المثقف منبهًا

سبق القول إن من مهمات المثقف التنبيه للقادم ولما يُتوقع بناء على رصد ومعرفة، أو ملاحظة ومقارنة بين ماضٍ وآتٍ، وهي الرؤية، وهذا مفهوم لا يغيب عن كثير من الناس، ولكن المثقف يوظف ذلك في سياق يوضحه ويؤيده ويكشف بعض لوازمه ونتائجه. وكان لمثقفين عديدين هذا الحس المتقدم على عموم المتحدثين. ولعل بعض النماذج هنا ليست بالغة البراعة لأن معالم ذلك

حاضرة للعيان، مثل استقبال الشاعر عبد الرحيم محمود الأمير سعود بن عبد العزيز في القدس بقصيدة بالغة التنبيه وشديدة التحذير القريب، يقول فيها:

المسجد الأقصى أجئتَ تزوره أم جئتَ من قَبل الضياع تودّعه؟[1]

[162]ونجد الشيخ سفر الحوالي ينبه لأن الخليج سوف يؤخذ، بناءً على معرفة بتوجهات القيادة الأمريكية وترويج اليهود لأهمية السيطرة على منطقته[163]. كما نبّه لذلك غازي القصيبي وهو يلاحظ أن الخليج سيُقتطع:

بالأمس قد قطع اليهود يمينها أيرى الخليج غدا ضياع يسارها؟

ثم كان أن أيد هو نفسه للأسف -وفي غمرة دوخته بالسلطة ونسيان الدور- وجود الأمريكان، وكرر القول بتكرار نظرية العسكر الأمريكيين بأن «أمريكا بوليس العالم»، وكأنها شرطة تحمي العالم «لوجه الله طبعًا لا لرغبة»، لكن الغضب والتقرب يُعمي ويُصمّ، ونشر مقالات بهذه الفكرة.

والشاعر تميم البرغوثي قال قبل ظهور الحوثيين في اليمن:

إذا ما أضعنا شامها وعراقها فتلك من البيت الحرام مداخله

وفي محاضرة عُقدت في الكويت عام 1956 قدم أمجد طرابلسي محاضرة شيقة عن «تأملات وذكريات في حرم المسجد الجامع في قرطبة». وبعد تعريج على ذكرى الأندلس وسحرها والإبداع والجمال في نواحيها ختم بقوله: «أيها السيدات والسادة، لقد حدثتكم عن المسجد الجامع في قرطبة كما رأيته، وقد مضى على خروج العرب من الأندلس أكثر من خمسمئة عام. فادعوا الله معي ألا يرينا في حياتنا -وألا يري أبناءنا وأحفادنا من بعدنا- يومًا يأتي فيه رجل مثلي فيحدثكم بقلب موجع عن المسجد الأقصى، كما حدثتكم اليوم عن مسجد قرطبة»[164].

ومن الطريف أن محمد الرميحي تحدث عن رأي لسعد الدين إبراهيم يرى فيه تجسير العلاقة بين المثقف والسلطة. والطريف أن الاثنين معًا اقتربا من السلطة وابتعدا عن الأمة، بل وقف سعد الدين إبراهيم والرميحي موقفًا واحدًا ضد الشعب المصري وضد الديمقراطية، مؤيدَيْن للانقلاب العسكري في 3 يوليو 2013 ضد الديمقراطية والرئيس المنتخب وضد حكومة منتخبة، ووقفا مع القمع وقتل الشعب؛ لأنهما اقتربا من السلطة العسكرية المتظاهرة بالعلمانية، وهي سلطة متعصبة ضد الدين الجامع للناس على استنكار الاستبداد، وضد الشعب بشكل متطرف. وأصبح سعد الدين إبراهيم يعادي زميله في السجن خيرت الشاطر ويرضى بسجنه، رغم أنه اعترف بمكانة الشاطر وأثره وخلقه وخدمته المساجين يوم كانا معًا في السجن. ولكن لأن الحكم والموقف السياسي الدولي المعادي للإسلام ولأن التطرف العلماني تمكّن منه؛ فلم يعد يرى إلا تطرفه المعادي ضد الشعب والمصالح، ولْينتصر أسياده في الحكم ضد الشعب فلا بأس بذلك، إذ لم يعد الأمر تجسيرًا للعلاقة بل قهرًا للمستضعفين يوم لم يقم هو بدور التجسير، بل كان جسرًا للطغاة.

وكذا نجد أحدهم عند صعود التيار الإسلامي يقوم بدور المعادي المتعصب ويؤيد أعداء الديمقراطية ويقف معهم ضد الشعب. وقد كتب ذات يوم -وهي كتابة لا تخلو من احتقار الرأي

العام، وتعالٍ فوق الناس، إذ يرى نفسه من القلة الفاهمة ضد الأكثرية التي تؤيد الإسلاميين- تحت عنوان: «الرأي العام أم رأي العوام»؛ فرأى أن رأيه ورأي بقية المتطرفين الحكوميين العلمانيين يوم كانوا نافذين كان رأيًا عامًّا صوابًا، أما يوم هُزم حزبه وأصبح أقلية -بعد تطور التعليم وزيادة الثقافة ووعي المجتمع لنفسه- فإن الناس أصبحوا عوام!

هنا يقوم المثقف بدور التغفيل والتجهيل عن معرفة وبصيرة، فهو لا يريد الشعب ولا يريد الدين ولا يواليهم، بل يوالي طبقة يرى أنه حقق الانتصار بالانتماء إليها، ولا يريد في النهاية من يخالفه، ومن خالفه فهو عدو، ولا يليق وصف المخالف بالعمالة لأنه خالف، لكن لأن هؤلاء انتموا إلى معسكرات مضادة للمصالح العامة، فقد أصبحوا يرون من الواجب شتم المصالح العامة وتشويهها وتشويه من يدعو إليها. يخفون أنانيتهم وعبادتهم لذواتهم بزعم أن ما يقولونه هو المصلحة العامة، ولا يملكون مروءة الصدق في التعبير عنها كالأعرابي حين سألوه: «أتحب أن تُصلب في مصلحة العامة؟ فقال: لا، ولكني أحب أن تُصلب العامةُ في مصلحتي».

الاستشراف المبني على شروط صحيحة ومعلومات ورصد توجهات هو الذي يعطي لتوقع المثقف صحته ودوره وأهميته، ويبقى دوره في تنبيه الأمة على خطر استبداد السلطة في قلب مهمته دائمًا، وهذا فقط للمثقف الأكثر استقلالًا وبعدًا من أن يكون بوقًا لمتنفذ أو لطاغية. فالذين كانوا أبواقًا للطغاة وللهجمات الهمجية العامة والشعبوية هم الذين وصفهم المخلصون بالخونة، فالخيانة يمكن أن تكون لمصلحة طاغية، أو لمصلحة شعبوية عامة سمجة ضد عنصر أو قبيل أو دين أو جغرافيا، أو ضد مكون يختلف عن السياق العام أو الهوى المنتشر، فكرًا أو عرقًا أو لونًا أو جهة، أو لأنه يبدو ضعيفًا أو لا حامي له.

وعبث السلطة بالمثقف يبرر موقف بعضهم ممن لا يعدون المثقف القريب من السلطة مثقفًا؛ لأنه منفذ لرأي السلطة أو مبرّر له، ولا يحمل عبء المثقف ولا مسؤوليته، بل مجرد منفّذ إن لم يكن بوقًا يستخدم وسائل الثقافة ويستغل مظهرها، ويملك كأي منفّذ وسائل التنفيذ أو إمكان تنفيذها؛ فالثقافة عبء ورسالة قد لا تجتمع مع السلطوي المستغل لموقعه، والذي يتظاهر بالثقافة بينما هو مجرد سوط بيد من غلب.

المثقف نقيًّا

قد يرى بعضهم أن استخدام كلمة «شفافًا» مناسب هنا، ولكني فضلت «نقيًّا». وقد قصدت في السياق أنه يحاول أن يكون صريحًا نقيًّا قدر طاقته، متخففًا من شهوة القول في الناس بغير حق، أو المبالغة في تقدير المقصر، أو التماهي مع موقف عام يجد في نفسه عليه ملامًا وحرجًا. وهنا نوع راقٍ من المشاعر قلّ من بقي من الكُتاب يستطيع استحضارها؛ فالنقاء وتهذيب العبارة وصفاء النفس وتقوى العبارة ونقاؤها يعمل الصحافي كثيرًا والمثقف أحيانًا على طمسها، حتى إذا شوه مادته الخبرية أو المعرفية أو التوجيهية فإنه يكون قد فرغ من قصة النقاء وقتلها منذ زمن. فلا يشعر بها ولا بالحاجة إليها، ولا بعتاب النفس عند تقصيره فيها.

وقد قرأت كلمة لأحد النابهين الأتقياء وهو شقيق البلخي الصوفي يقول فيها: «كنت شاعرًا فرزقني التوبة»[165]؛ لأن الشعر له عالَم يرفض الحقيقة الصارمة، ويعبث بالعبارة ترقيًا لمراد الشاعر ولغير مراده من وارده الكبير، حين لا يصمد أمام متعة القول والتخيل، وهذا مطلب عالٍ

بعيد جدًّا عن غمار المثقفين. غير أننا ذكرنا هذه العبارة لنستجد الوعي بالأطراف، فهي تحدد إلى أين ذهب المركز وأين الطرف، وهل هناك من يستيقظ ضميره فيتذكر الخوف حتى من زهو الشعر بالخيال، وبالعبارة التي لا تصف الواقع كما هو، أو لا ترفع الإنسان في مراقي الحق والتحرج من الباطل.

ومتى تراجعت أهواء الإنسان ومطامعه رُزق قوة وتأثيرًا فوق ما تخيل هو من نفسه، وأثّر في الناس فوق قدرة النفوس المثقلة بالأهواء والرغبات، وأصبح وقد مال إلى قوله وتأثيره من خالفه ومن جافاه عن غير هوى؛ لأن القوة في المعنى وليست في المظاهر والهالات. قال ابن الفارض في التائية:

هي النفس إن ألقت هواها تضاعفت قواها وأعطت فعلها كل ذرة

المثقف تابعًا

قالوا إن كتّاب النثر العربي بعد الجاحظ مجرد أتباع له، بمن فيهم الكاتب الكبير أبو حيان التوحيدي. وبالفعل فقد سنّ الجاحظ سُنّة تبعوه فيها ولم يستطيعوا الخلاص منها زمنًا طويلًا. ومثله كان الأديب الإيرلندي جِيمس جويس ذا شخصية نافذة ومؤثرة في زمنه وفي أتباعه ومقلديه، وكان أبرز مقلديه صموئيل بيكيت وقد بلغ من حبه وتقليده لجويس أنه كان يلبس مثل ملابسه، وحتى الحذاء يشتري نفس اللون والنوع. ومرة شاهده أحدهم يمشي وهو يعاني من ضيق حذائه، ثم تبين أنه يصر على تقليد أستاذه في كل شيء حتى في مقاس الحذاء الذي لا يناسبه لأن قدمه أكبر من قدم جويس. وبقي بيكيت ظلًّا لأستاذه دهرًا طويلًا، وساعده في كتابة روايته الأخيرة فكان جويس يملي على بيكيت النص. وذات مرة طرقت زوجة جويس الباب فقال: «ادخلي»، فكتب بيكيت لفظة «ادخلي» في نص الرواية، وعند مراجعتها كانت نكتة فضحك وقرر جويس بقاء الكلمة في نص الرواية. صحيح أن جويس شرع طريقًا للرواية استتبع بها الآخرين، إلا أنه أغلق على مقلديه باب التفكير في البدائل. ولما أراد بيكيت مفارقة طريقة شيخه أدرك أنه من الصعب عليه الخلاص، فقرر حتى مفارقته في اللغة فاتجه إلى الكتابة بالفرنسية بدلًا من الإنكليزية، وكان يترجم أعماله بنفسه إلى الإنكليزية بعد أن يصوغها بلغة غير لغة جويس، أملًا في الخلاص من تقليد أستاذه في فنه[166].

وإذا كان نفوذ الفن والأدب بهذه الطريقة، فكيف ببقية مواقف المثقفين والطموح لخلاصها من نفوذ المتنفذين السياسيين وقوى القسر الأخرى في المجتمع والثقافة، والناس عندهم ميل طبيعي إلى التبعية حبًّا أو مهابة، فروح الفريق والجماعة أكبر من القدرة على الخلاص منها. وهذه أظهر في الثقافة من أي أبواب الحياة الأخرى، خاصة أنه كلما ضعفت الموهبة وتراجعت القريحة، فإن التقليد ينتصر بقوة، ويبقى بعض المثقفين المساكين ينفقون أوقاتهم في إثبات منهجية من سيطر عليهم.

أما سياسيًّا فبعض المثقفين يعيش شخصية التابع سياسيًّا طوال عمره، ويجد في شعارات الوطنية مبررًا لفقدان عقله وفقدان حرية الاختيار لنفسه، فضلًا عن زعمه بقاء حرية للآخرين فيما يسوقه لهم من آراء، فهو مجرد شرطي قمع متستر، وأفضل منه ذلك القامع المعلن المعروف الصريح؛ لأنه لا يكذب على نفسه ولا على الناس، بل يقول: «عبد مأمور». أما العبد المغلوب

على ضميره وعقله فلا يجرؤ على عبارة عبد مأمور، ويبقى تابعًا سياسيًّا لحكومته، فضلًا عن التابع لعقيدة ومواقف موروثة وما أشبه.

المثقف قاسيًا

بسبب بُعد بعض المثقفين عن عموم المجتمع، ولزومهم عتبات السلطة أو اندماجهم غير الواعي في أيديولوجيتهم القاسية وغير الإنسانية؛ تجدهم قد انحازوا إلى الظلم والفساد، وانحازوا إلى من يشبههم لا يهمهم أن يموت الناس، ولا تحيا ضمائر بعضهم تجاه المآسي، ولا يشعرون بالشعور العام، وموقفهم غير الإنساني ليس بسبب الغفلة ولكن بسبب الرّان على قلوبهم، وهيمنة العداء للعام والشعبي والحق، وفهمهم الحق بأنه قول أقلية متطرفة هم معها أو تنسجم في سياقهم.

ولا أذكر أني شاهدت غيابًا للوعي وللإنسانية ولكرامة الإنسان كما مارسها عدد هائل ممن نسميهم مثقفين؛ إذ انحرفوا عن كرامة الثقافة لنصرة الاستبداد، أو لنصرة الظالم الذي تمثلوه قريبًا منهم أو محققًا لمنافعهم. وإن كان من نموذج لهذه القسوة والمفارقة للإنسان ولضميره فهو رضا من نسميهم متعلمنين أحيانًا بتجاوزات السلطة بل بجرائمها المستمرة، وهذا حصل في كل العصور كما يسجله التاريخ. أما في عصرنا فإن المثقف المزيف -إن صح أن يطلق عليه وصف مثقف- هو أكثر فحشًا وفجاجة في تسويغ جرائم حزبه أو سلطته أو أنصاره.

وذلك ما يبرر الخوف من المثقف القاسي الذي أشار إليه مهاتما غاندي حين سأله رجل دين أمريكي قائلًا: ما أكثر ما يُقلقك؟ فأجاب غاندي: «قسوة قلوب المتعلمين»[167]. ونحن هنا نجرد هذا المثقف المنتمي إلى السلطة من ميزة المثقف طالما أنه لسان السلطة وجلادها العمومي، وإن كان إريك هوفر وكذا غاندي يخلطون المتعلم بالمثقف.

المثقف صحافيًّا

لا تبدي المجتمعات راحة لـ«جماعة المثقفين» أو كما تسمّيها أحيانًا «عصابة المثقفين»، فهي مثار ريبة ليس في المجتمع العربي فقط، بل في شتى المجتمعات، فوساطتها الدائمة بين الأطراف وبين القضايا، وترويجها لما يحب المجتمع أو يكره، واستغلال السلطة لها، وجعلُ مهنة العلاقة -مختلطة بالمعلومة المستفزة- وسيلةَ عيش يجعل جماعة المثقفين محل ريبة دائمة، ويُضعف الثقة بها؛ فقد نطقت بسبب أن فلانًا دفع لها، أو سكتت لأنه فعل لها، أو كشفت لأنه كُشف لها لتهجو أو تصمت، وهذا غالب في دوائر الصحافة. كراهية عالم المثقفين —وبالأخص الصحافيين- ليس فقط من قبل الشعوب بل من قبل الحكومات كلها، فالمثقف قوة وصوت يجب استتباعه أو إسكاته، إغراؤه أو التخلص منه.

وتعبير «النباش النهاش» ينسجم مع كثير من جماعة المثقفين، فهو يعرف وينبش عن المعلومات، ولكنه ينهش من جهات مختلفة، يعيش على هامش المجتمع ينهش جهات عديدة للترويج لها، أو يفضح ويرتزق من نبشه الفضائحي.

وفي بلدان يوجد فيها مجال أكثر حرية كأمريكا، نجد الحكومة تخاف من المثقف وتخشى نبشه، وكذا الشعب يشك فيه وفي ولائه وقربه أو تقربه من الحاكم أو الأحزاب أو المال، فهو سلاح ذو

حدين لا تدري أيهما يُسل عليك. ومن هنا جاءت الكلمة الساخرة منه (culture-vulture)، وهي تشير إلى النسر أو طائر الجيف. وربما كان السجع والولع به وراء صياغة هذه العبارة التي قد لا تبعد أحيانًا عن الواقع.

وإذا كان السجع مكروهًا فكذا الإغراب اللغوي؛ ذلك لأن المجتمع يطلب من المثقف عملًا رساليًّا مباشرًا ينفع المجتمع، ولهذا يتوقع منه الناس أسلوبًا راقيًا لا يوغل في العامية ليرفع الناس، ولا يتعالى ليبحث عن الأقلية أو النخبة النادرة التي قد تصفق له، أو ليتعالى به وليقل لا يفهمني ولا يهمني إلا الخاصة، وهذه طريق خاسرة، فالخطاب الرسالي غالبًا مُدْرَكٌ ومفهوم من «العموم» وليس «العامة»، ويعمل لرفع مستواهم الثقافي والتوعية بقضاياهم، وتفيد منه الخاصة والعامة على السواء؛ لأنه يبني وينشر، ويصوغ أو يؤثر في صياغة التوجهات الكبرى.

المثقف فاسقًا

ألا يفسق كل الناس أو أغلبهم؟ فلماذا ينحي الجاحظ على الكُتاب بالفسق؟ ألأن بعضهم مُغرم بالترويج للفسق وتأسيسه في المجتمع؟ سؤال لا يجيب عنه الجاحظ في رسالته **(ذم أخلاق الكتاب)**، بل غالبًا يصف تصرفاتهم وأفكارهم كما ذكر سابقًا. غير أنه يمكن تأمل ذلك والقول إن الكتاب في الدواوين يشعرون بأنهم يرتفعون فوق عامة الناس، وفوق كثير من الخاصة. فأما أنهم فوق الخاصة فهم يرون أنفسهم أعلم من السياسيين الذين يخدمونهم. والسياسيون قديمًا كانوا أحيانًا يتفطنون للقضايا الكبرى في مصير سلطتهم ويتجنبون عمدًا أو تربية وعرفًا دقائق العلوم، كما في وصية أحدهم: «لا ينبغي للسلطان تتبع دقائق العلم»، فنشأت ظاهرة الحاكم الجاهل المغرور بجهله والمثقف المغرور بمعرفته.

وهذه الحالة، حالة الحاكم البعيد عن المعرفة، تُشعر الكاتب بتقدمه على الجميع وتصنع له من الغرور فوق طاقته. فينظر في الشعب فيراهم يأتون إليه في سيماء ذوي الحاجات وناقصي الهيئات ومتلطفي ذوي المناصب، فيزيد علوّه وتعاليه ويهلك في ثوب غروره. ويرى العالم والسياسي والغني والفقير يحتاج إليه وإلى رأيه وقراره، فيُصاب بعلة كبيرة وهي أنه فوق هؤلاء جميعًا، فوقهم ثقافة ومعرفة، فيبالغ في غربة ثقافته وتكوينه عن ثقافتهم وتكوينهم. وهذا الإغراب يدعوه إلى التسلق على ثقافة أمم أخرى، ويفسر عبقريته ونفوذه بما حصله من قوم بعداء مكانًا أو زمانًا، فكل ثقافة قريبة ميسورة متداولة فهي دون ما حصل له وحصل عليه، فتراه يحفر في تراب الفرس والروم والشرق الأقصى والغرب الأقصى، ليقال إنه قد أبعد التعرف إلى عميق غريب ناله بفحولة وفكر وعلم وبُعد في الزمان والمكان، مما لا يفهمه ولا يناله أهل حيّه. وتراه في مثقفي أوروبا في العصور الحديثة، وقد كانوا يرون التنوير عربيًّا فيما قبل القرن الثامن عشر، ثم فيه وفي القرن التاسع عشر مع الشاعر الألماني غوته وأمثاله، بل حتى زمن نيتشه حيث كان الاستشراق يملأ فضاء العلوم. وكانوا يرون التحديث والتنوير من خارج منظومتهم إما من قبل فارس –كما في **الرسائل الفارسية** لمونتسكيو- والصين والعرب، أو يغربون فيما قبل زمانهم وزمان العرب ويربطون كل شيء باليونانية.

وهكذا وجدنا كُتابًا في الثقافة العربية يحتجون ويترفعون عن قومهم بهذه الطريق، فمثلًا يقولون القرآن لا يفسر كذلك، والحديث فيه زلات وشكوك، والقوانين فيها آراء أخرى. ولأن كاتب الديوان عرف الناس فيجب أن يرتفع عنهم، ويُعلي من وضعه أو ذاته فوق أمته، بسبب منصبه السياسي أو

الوظيفي وإن كان أميًّا أو شبه أمي، ويتصنع الاغتراب عن ثقافة قومه ودينهم وكل ما لهم ليبني ثقافة بديلة أعلى ويروّج لها، وهو لا يدرك انعكاس أمراضه النفسية في التعالي ونفي الذات، وإلا فإنك لو خبرته وجدته سطحيًّا بسيطًا وخاصة كتاب زماننا، إذ ليس منهم كابن المقفع وأمثاله.

والغريب أنهم يصرون على أن ما عندهم من مواقف ضد الدين والثقافة العربية والإسلامية هي بمحض عبقريتهم وفهمهم وفهم أقرانهم لو اعترفوا بهم. وهم ضحايا تعال وتكبر وجهل وتقليد وتغطرس، يصبّونه في مصب العلم والفكر والثقافة والرُّؤى العابرة للزمان والمكان.

وقد أصاب مرض التعالي بعضَ الذين في المؤسسات الدينية في زماننا، وكان الناس يلمزونهم بالهروب من العصر وثقافته إلى الماضي وأهله، وينفون مكانة المعاصرين وتمكنهم، ليربطوا أنفسهم بسلف بعيد. وليس هذا فحسب، بل إن أحد وزراء العدل -جاء من إحدى كليات الشريعة وكان يرى نفسه شيخ دين- عرض على سفارة استعمارية مسيحية أن يفتح لها مكتبًا في وزارته ليثبت ولاءه لدولتها[168].

هؤلاء وللأسف يضعون من قدر أنفسهم وأممهم بوعي وبدونه، ويسوقون شعوبهم ومدارسهم وثقافتهم لتتجه متلصصة تسترق السمع من غيرها، فلا تقلد قويًّا بجدّ، ولا تترك آفة الآخرين بشجاعة، فتبقى أجيال تتطفل بلا شجاعة، وتتبع بلا وعي، ويمارسون خنوعًا يبررونه، خاصة حين يرون أنفسهم قد جاوزوا عُقَد الشكل للاندماج في شكل من هزمهم وسلوكه وفسقه ووثنيته، ويبقون يلهثون ويقدسون لهاثهم دون إبداع لمخرج، فالتقليد والاستسلام هو المخرج، والذات ميتة في صراع طرفين. داء المفاصلة قديم، والالتصاق بالمختلف القديم الباهر أو القوي المخالف المعاصر يعطي للمنفصل أو الراغب في الانفصال مبرر الخروج التابع، والمتشكك في نفسه وتراث قومه كيف يصل وهو عريان من القوة والقدرة الثقافية؟

المثقف والسياق العام

يأمل كل مجتمع أن يكون المثقف صوته المعبّر عنه، ولكن ماذا إن كان المجتمع تسيطر عليه قوى أخرى بجانب الأهواء والشعبوية أو الأخطاء والجهل من أمراض المجتمعات، أو كان المثقف موظفًا في خدمة مجتمع آخر أو سياسة أخرى، أو يعمل لمصالح غير مصالح أمته ووطنه؟ هنا تتداخل الأمور ويحب كل طرف أن ينتصر بالحق أو بالباطل.

ولنبدأ بالموقف الأول عندما يرى المثقف الخير والصواب بخلاف ما يراه الصوت العالي في مجتمعه، فإنه يصطدم بالناس أو بالسلطة أو بهما معًا. وخلاف المثقف مع السلطة له موضعه الخاص في البحث، ولكن خلافه مع المجتمع عقبة كبرى، ولذلك يتجه المثقفون والعقلاء إلى تجنب هذا الخلاف بأي شكل؛ لأنه خلاف شامل قد يقضي على المثقف وقضاياه في المهد، ما لم يكن قادرًا على إنشاء مجموعة مؤثرة، أو منخرطًا في حزب ولو من باب الحماية والتضليل لهم، بحيث يأمن من العامة أو من جور السلطة.

ولكن أي مثقف تشغله حماية ذاته أو التعصب لفكرته قد يتنازل عن حقائق يؤمن بها، إما من أجل السواد الأعظم وسيطرتهم على الفرد والوعي الفردي، أو من أجل الحماية من سلطة الحكومة وما يلحق بها من سلطات كالسلطة الدينية أو العلمانية، أو من أجل الرغبة في الشهرة والانتشار العام.

والشهرة تنقل الفرد من مجتمعه الفطري والطبيعي إلى مجتمع آخر، لكنه حينها يدفع ثمنًا باهظًا للاشتهار من شخصيته وسمعته، ومن وعيه ومعرفته ونزاهته، فيتنازل عن مبادئ، ويهوّن من قضايا مهمة، ويترهل وعيه ويقل نقاؤه. ولعل من أقل شرور الشهرة «الوحدة» التي تنصب سياجها حول المثقف المشهور، ثم لا يخترقها إلا قلة، وتسجنه هذه القلة في ثقافتها ومفاهيمها وعلاقاتها.

ولذا كان من أسس تقديم المثقف ورفع شأنه أنه ذلك الذي يحاول جادًّا النجاة من آفات هذه الثقافة والتوجيه العابث للمعرفة، وما يسببه من أثر ذاتي شخصي، كضعف وعي أو نقصان معرفة، أو جلافة طبع وثقل روح، وما تجلبه عليه المعرفة نفسها من آفاتٍ، فجهاد المثقف للتعالي فوق ضعفه ونقصه وبيئته عملٌ عظيم قلّ من تَخفّف منه.

إن كثيرًا من الشهرة يعادي الحق، ويعمل على تزويق المظهر وإفساد المخبر، مما ينتهي بالترويج للباطل. كما أن الرغبات أو الشهوة المالية الكبرى التي تذل طالبها تحرم المثقف من الحفاظ على الحق، وعلى استقلالية الرأي، وتمنعه من الدعوة إلى الحقيقة التي يؤمن بها.

ولهذا فإن المجتمع والسلطة تشترطان على المثقف الموالي لهما القيام بجهد مستمر لملاحقة رغباتهما، وللإبقاء على الاتصال الدائم بأفكار السلطة عن المجتمع وثقافته، فإذا تغيرت هذه الأفكار أو تغيرت السلطة يكون جاهزًا لأن يتحول توجهه وقناعته، وفي هذا التحول معاناة للمثقف الذي له رأي وقناعة، ولكن التحولات لا تمثل مشكلة للمثقف السطحي والنفعي، فكلما هو مطلوب منه سهل التحقيق وهو عقلنة الموقف، وشرح المصلحة من التغيير أو التحول، أو بذل الجهد في شرح عيوب السابق وتبيين محاسن الرأي الجديد. والأشق من ذلك أن يقوم بمسؤوليته تجاه هذه التحولات، فالمطلوب منه أولًا متابعة معلومات ومواقف وآراء غالبًا ما تكون غير مرغوبة لدى السلطة ومجتمعها الإعلامي، وقد تكون مخالفة لشهوة الجمهور، فعليه مسؤولية جمع المعلومات والتفكير في سياقها، واتخاذ رؤية أو الاندماج في رؤية يراها صحيحة وافقت الجمهور أو خالفته، علمًا بأن الصدق وجلاء أدلته كفيل بصناعة مجتمع بديل ولو كان صغيرًا.

لما قررت الكنائس في عصور الظلام إبادة المسلمين والهراطقة، ويوم قرر هتلر عبادة الجنس الآري وتقديسه واضطهاد من عداه، أو حين قرر القوميون إبادة الشيوعيين، أو لما قرر البعثيون قتل الإخوان المسلمين في القانون رقم 48 في سورية؛ فإن المثقف -الذي ليس من هذه الطوائف المتحاربة وعليه القيام بالأمانة- يحتاج إلى شجاعة ومروءة بل مغامرة كبرى لأن يقول أو يعبر عن موقفه المخالف، أما الموافق فليست له قيمة في هذه الأحوال؛ لأنه أحد أقدام السلطة التي تسير عليها لتحقيق هذه الرغبة.

المثقف شعبويًا

الشعبويون ومن باب أولى مثقفوهم يرون أنفسهم أنهم الشعب، وأن الشعب يذوب فيهم، ويذوبون فيه، فهم ممثله الحقيقي والوحيد، ويلغون غيرهم مكانًا وفكرًا ورأيًا وانتماء، فيرون أنهم من يمثل الشعب الحقيقي وبقية الممثلين لا يمثلون الشعب الحقيقي «نحن فقط من يمثل الشعب»[169].

المثقف الشعبوي قد يكون يمينيًّا أو يساريًّا ولكنه متلون، غير واثق بموقف ولا بقضية؛ ذلك لأن «الشعبوية فلسفة حربائية متلونة بقلوب فارغة تربط الشعب بوطن أصلي [لعرق]، و[تردد] مدحًا ملحميًّا معاديًا للسياسة وفارغًا من أي مضمون وحربائيًّا لقيم البلد الحقيقية ويتغنون به في زمن الأزمات»[170]. ولا يعترف الشعبويون بحقوق المواطنة لغيرهم كموقف ترمب من المسلمين[171].

وكما أن مقتضى النقد للمثقف الشعبوي السلبي الذي يحمل ضررًا لمجتمعه، فإن هناك مثقفًا شعبويًّا صالحًا وصادقًا جدًّا، وهو الذي يجعل من مكانته وسمعته وعلاقاته وأفكاره وقودًا لإصلاح مجتمعه، والمنافحة عن الحق والخير في أمته. وكما هو متضح في النقاش فإننا نعدّه شعبيًّا، أي معبرًا عن ضمير الشعب فعلًا لا تصنعًا وكذبًا، وليس شعبويًّا.

يحب المستهلكون للثقافة ذلك المثقف الذي تظهر على خطابه المعلومات، ومن يتمتع بالرأي، ومن يعبر عن آرائهم، وهم لهذا لا يحبون من يصادم قناعاتهم، ويحبون من يؤكد لهم، وليس من يجعلهم في حال تشكك من شيء، فهم كائنات تحب التأكيد، أو كما يشرح تشارلز بيرس: الإنسان كائن لا يرتاح في وضع الشك، ولا لمن يتحدى قناعاته، بل ينسجم مع المفكرين المشابهين لقناعته أو لعقله ومزاجه[172]. ذلك أنهم بهذا يشعرون بأنهم في جماعة وليسوا شاذين بآرائهم، وكذا يعطيهم ثقة، وبهذه الحالة يبحثون عما يؤكد آراءهم وشواهدهم، وبعد أن يعيشوا حالة الطمأنينة لموقف أو رأي، فإنهم حتى حين يجدون آراء وأدلة أخرى فإنهم ميالون إلى عدم الاتفاق معها وبالتالي الشك فيها، مما يجعلهم حتى في حال البحث منحازين لما ارتاحوا مع أنصارهم إلى تأكيده من قبل[173].

وهذا السلوك والعقلية تصب في مصلحة المثقف الشعبوي، إذ يختار طيفٌ من المثقفين الأذكياء الشعبويين القربَ من الناس على حساب الكثير من قناعاتهم الشخصية، ويتظاهر الشعبوي بأنه المعبر عن أفكار الشعب ومواقفه ومصالحه، هذا في المجتمعات الديمقراطية التي تذهب إلى الكاتب وتتابعه متحدثًا أو كاتبًا أو مناقشًا أو سياسيًّا.

وكذا في المجتمعات الدكتاتورية يذهب المثقف الشعبوي إلى منابر السلطة، يتملقها ويصعد في سلّمها مستفيدًا من لباقته في جلب المنافع له، وكأنه يمثل الحكومة عند الشعب، وربما تظاهر أيضًا بأنه يمثل الشعب في معسكر الحكومة المغلق، والحكومة تأنس به وتطرب لتملقه وتبعيته، ولتظاهره بالخلاف معها، غير أنه في النهاية شعبوي، ومهما تملق السلطات فإن هذا النوع من المثقفين المراقبين للشعبوية عند الحكومة أو عند الناس يشعرون في قرارة قلوبهم بما يجرّونه من مأساة للطرفين، مع أن طول الامتهان للدور الشعبوي يُكسب صاحبه المران عليه والقبول به.

وهذه النوعية كثيرًا ما تكون إشكالية ومخيفة ومزعجة، وتكمن إشكاليتها في كلمات حق أو أفعال خير تقولها بحكم ذكائها أو قناعتها، أو شعورها في بعض اللحظات بالواجب أو ضرورة حماية الكرامة، وهذه المواقف تصبح إشكالية ومضطربة ومشكوكًا في إخلاصها؛ لأنها تصدر من أشخاص يراهم الناس أصحاب تسلق وتملق، لهم دوافع أنانية حادة ضد المستضعفين ومن لا تحميهم قوة أو سطوة النُّظُم المغلقة، وإزعاجها -بل وخيانتها أحيانًا- أنها -في سبيل مكسب شخصي تافه- لا تقف عند مبدأ ولا تراعي حقًّا.

ولهذا يعاني المثقف الشعبوي من الصراع بين عقله وقلبه، وبين رغباته واقتناعاته، أكثرَ مما يعاني لص أو مجرم؛ فهو يتبنى نمطين من الحياة: نمط الإخلاص، ونمط تبني سلعة النفاق والكذب

بسبب مطالب السلطة ومطالب الجمهور. إنه يعيش بين مطالب الشهرة وتملق العامة وبين مطالب الحق الصعبة عليه.

المثقف مجددًا

بعد أن قص القرآن قصة الأنبياء أو الرجال الذين كان شغلهم الشاغل رفع مجتمعاتهم، ورد قوله تعالى: «فبهداهم اقتده»[174]. وهنا ينصّب النبي قدوة لمجتمعه وللمتعلمين وأصحاب الآراء، فالاقتداء حشد وبناء للهمم. وعندما تحدث أبو الأعلى المودودي عن مسألة تجديد الدين وعن ختم النبوة، بيّن أن المجدد هو الذي يقوم بدور أشبه بدور النبي في الإصلاح وتلمس جوانب الخلل وإصلاحها.

وقد يستغرب بعض القراء من حشد التجديد تحت مسؤولية المثقف، غير أن من يستوعب مطالب هذا الكتاب سيجد صلة وتلازمًا بين ما نتحدث عنه، وبين العالِم الذي لا يمكن أن يجدد في الدين وهو غائب عن عصره، والخروج من عالَم معرفي مغلق إلى مكابدة المعاصرة هو نقلة وممارسة لدور خطر ومؤثر وريادي، فلا شك سيطل على حالة من حالات التجديد، تجديد في مسائل الدين، وإدراك تحولات فهم الدين ومعايشته لتحولات العصور.

كما نجد عند علي شريعتي شيئًا من المبالغة في كتابته وخطابته عن دور المثقف في مجتمعه، وقد تكون هذه رغبة في إثارة المجتمع، وقد نجح هو في ذلك أيما نجاح وإن كان جاء في سياق تصاعد دور الشيخ والمثقف في المجتمع الإيراني؛ فقارن دور المثقف في المجتمع بدور الأنبياء في مجتمعاتهم، وأنهم يقومون بدور النبوة حيث لا يكون هناك من نبي، ووصفهم مرة بأنهم «نظراء الرسل» وأن دورهم هو دور الأنبياء والرسل وأئمة المذاهب[175].

وهو قول تجده عند تشومسكي لكونه ملحدًا، فقد زعم أن من المثقفين من يكون صادقًا مخلصًا منقذًا، ثم قارب بينه وبين أنبياء بني إسرائيل، وهناك طائفة أخرى كاذبة ومتملقة أو خائنة لدورها وألحقها بالمتنبئين الكاذبين. وهذا التوجه في ربط النبي بالمثقف وجهة نظر لدى الملحدين حيث لا يؤمنون بالنبوة كما يرها المؤمنون، ولذا يرون المثقف النبه أو المفكر اللمّاح المصلح أقرب إلى أن يكون هو النبي.

ولعل شريعتي وتشومسكي قد قلدا فيما قالاه الكاتب اليهودي إسحاق دويتشر عندما ألف كتابه الرئيسي عن تروتسكي وسماه «نبيًّا»، فرتب أجزاء الكتاب الثلاثة على النحو التالي: النبي المسلح، النبي الأعزل، النبي المنبوذ. ومن الطريف أنه كانت لدويتشر بعض النبوءات الخطيرة، كتوقعه الإضراب والاحتجاج العام في روسيا قبل وقوعه بنحو نصف قرن، ورتب للاستفادة منه، وهو ما أكد وقوعه وضرورة استثماره يساريون ثم إسلاميون لاحقًا في بعض البلدان.

ولم يجد الإمام أحمد من وصف لشيخه الشافعي إلا أنه «كالشمس للدنيا والعافية للأبدان». وقد كنت أسمع وأرى المجتمعات الغربية تتحدث عن رجالها فتصنع منهم أشياء فوق البشر أحيانًا، ويغلون فيهم غلوًا كبيرًا[176].

ومن مظاهر بؤس جيل ألا يجدوا لهم مثالًا ولا قدوة، أو أن يجعلوا قدوتهم فوق إمكان الاتباع والتقليد، ولا يقدر أحد منهم على تكرار دوره، بل الأصل في التاريخ والاقتداء تجديد الفعل الحسن.

وكان مالك بن أنس رحمه الله يستشعر حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة كأنه معهم في الطرقات، ومنهم من لم يكن يلبس الحذاء في المدينة لعل قدمه تقع على موضع قدم رسول الله.

والمثقف المنصِف بركةٌ على مجتمعه حتى في جوانب غير ثقافته وفكره وعقله، وعلى من كان حوله، تأكل وتشرب بذكره وتاريخه ومجده جموع لا تنتهي. وشيوخ الصوفية في تاريخ المسلمين لهم ذكر عاطر، وأحيانًا مزيَّف ولكنه حافز، وكم اغتنت في زماننا أمم بسبب ابن تيمية وابن القيم وأحمد بن حنبل ومحمد بن عبد الوهاب وطه حسين والعقاد.

في ستراتفورد -حيث وُلد الشاعر الإنجليزي شكسبير- استفادت المدينة منه، وفي فرانكفورت تجد تقديس غوته والاهتمام ببيته، وأهل فايمار يقولون إن غوته كان بركة عليهم. والسياح في إيطاليا يتقاطرون على مدينة بها لوحة العشاء الأخير، وقائمة الانتظار لزيارتها في الصيف تزيد مدتها على شهر. وفي بلد الفيلسوف الصيني تشاو تسي يحذِّر السكان بعضهم بعضًا من الخطأ؛ لأن الفيلسوف قد يعلم فيغضب عليهم، فأصبح المثقف رادعًا، وما كانوا يهابون الإمبراطور مهابتهم الحكيم. وفي بغداد كان هناك خليفتان: عبد القادر الجيلاني، والخليفة العباسي[177].

وكذا عالم الغرب اليوم هو جنة المثقفين، كما أن عالم المتخلفين جحيم المثقفين المستقلين. وقد كان البيت الأبيض في منتصف القرن العشرين ينتظر نشر مقالات الصحافي المؤثر والتر ليبمان ليعلق على الأحداث بعد معرفة رأيه فيها. وإن كانت فرنسا هي الأعرق في هذا بسبب أنهم يرون أن الثورة وعلمانيتها كان للمثقفين دور كبير في صنعها.

وهذا جعل حتى المثقفين والمؤرخين المهتمين بفرنسا وتاريخها يقعون في جاذبية المثقف الفرنسي ودوره، حتى إنهم كادوا يجعلونه من أهم محركات التاريخ في فرنسا والمناطق التي يدرسونها. وبشيء من هذا علق تيموثي آش في رثاء توني يوت المؤرخ الشهير لأوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، بسبب غرقه في الكتب، فهي تملأ بيته وتملأ حياته وحتى تسير معه في الشارع في جدل مستمر إلى النهاية. لذا فإنه نظر إلى دور المثقفين في العالم -خاصة في تاريخ فرنسا- بأكثر مما كان لهم من دور في التاريخ[178].

المسافة بين الشعوب في الغالب لغوية وثقافية وليست جغرافية فحسب، والفوارق في نمو الثقافات وطريقة تواصل الناس أغرب مما نتوقع، وهكذا نجد قربنا في المشرق من المغرب العربي وبعدنا عن إيران مثلًا؛ فمع أهمية اللغة الواحدة هناك تقارب كبير تصنعه الثقافة بجانب هذه اللغة، فتقرب المفاهيم الدينية والسياسية والاجتماعية والأعراف، والدين رابط يوحد الناس أكثر مما توحدهم عوامل عديدة أخرى كالجغرافيا. انظرْ كَمْ مزّقت الشيوعية العالم في زمانها وقاربته أيضًا بحسب الولي والمفارق، وصنعت هويات متخيلة عبر العالم هزمت الجغرافيا والتاريخ السابقيْن لعهدها، وكذا هزمت التصورات الواقعية السابقة أحيانًا، حتى جعلوا موسكو وكوبا أقرب إلى برلين الشرقية من برلين الغربية.

المثقف ناقدًا

المثقف ليس حمّال طبل للسلطة، ولا منومًا للمجتمع يبشره دائمًا بأنه أنى سكت وتبع قادته فهو على الصراط المستقيم، ولكنه يراقب الانحرافات ويمتدح الحسنات، فتصيبه عاقبة النقد للناس

وللسلطة وللمتنفذين، وهنا يكون أمينًا وموثوقًا حين يكون بصيرًا ومنتقدًا، ومؤيدًا لما يؤمن بأنه حق، حي الضمير في الاعتراض على المظالم، ويذكّر الناس أفرادًا وجماعات بمسؤوليتهم تجاه حياتهم، أما إذا حمل طبل الوزارات والمتنفذين فلا شك أنه سيصبح وسيلة دعائية مضرة بالمجتمع.

المثقف مرن، والمرونة رفيق الوعي وتقدير الاختلاف، والمتصلب لا يرى في المخالف إلا مفسرًا مبتدعًا ضالًا. والمرونة أهم وسائل النجاح والبقاء، وهناك فرق بين المرونة والميوعة في المواقف، المرونة تكيف ظروفها وهي تصعد إلى الأمام، كنبتة تصعد إلى السماء تتغذى وترتفع، ويوم تعترضها صخرة فإنها تلتوي عليها، وقد تنبت في جنبها، أو تنبت في بقعة من الطين في قلب الصخرة، وقدرتها على التكيف تجعلها قادرة على البقاء والحفاظ على مكوناتها ورسالتها، أما الميوعة فهي فقدان الذات في أشكال غير معروفة مسبقًا، ومجرد ملء للفراغ بالغثاء.

ومن المرونة التخلص من عُقَد الخصوصيات الصغيرة الشخصية والمذهبية، فمن المهم أن ينهي المثقفون في المجتمع تقسيم أنفسهم إلى متدينين وغير متدينين؛ لأن المطلوب منهم يفوق عددهم، ويفوق تجمعاتهم، والعدد القليل من المتدينين أو غير المتدينين يصعب عليهم أن يقوموا بواجبات مجتمعهم الكبيرة، وهذه الواجبات هي مصالح عامة نشترك في تحصيلها، ونتفاوت في العمل لها، ولكن التغييرات الكبيرة دائمًا في مصلحة المجتمع لا يقوم بها الجميع، وقد لا يفكر فيها الجميع، ولكنها عبء الأقلية الواعية.

إن مراقبة سريعة وقصيرة لوضع المثقفين العرب والمسلمين وعلاقاتهم وصراعاتهم بسبب فكرتيْ الليبرالية والإسلامية، أو التغرب والتأصيل، تكشف بوضوح أن جزءًا كبيرًا من أسباب مآسينا تكمن في عيوب علاقة هذه النخبة المثقفة القليلة وطبيعتها، فهي مع هامشيتها وعددها القليل متنافرة. وقد تحارب مصلحة المجتمع لأن الطرف الآخر أيّد أو دعا إلى موقف أو طريقة ما لم يوفق الطرف الآخر في الدعوة إليها ولا في العمل لها، فتحسده للأسبقية أو تهاجمه بسبب جهلها لفكرته، أو تهدم مشروعه بسبب جزئية ليست محل اتفاق.

هذه النخبة المثقفة في مجتمعاتنا تظهر فيها مظاهر الأمراض المجتمعية بطريقة متطرفة، من عداء للحق بلا مبرر، إلى ولاء للفساد بلا مروءة، أو قطيعة ومنافرة لبرامج الإصلاح المجتمعي إن جاءت من فصيل مخالف، أو من مثقف لا يحوز رضا هذه المجموعة أو هذا الإقليم أو ذاك، وبهذه الحدة والعمى في المواقف أمكن لشعوبنا أن تبقى خارج مسيرة التأثير والإصلاح، وكلما نهضت وجدت من يكسر سيقانها، ويفتّ في أفكارها، ويشكك في نواياها.

إن التدين من عدمه يجب ألا يكون عائقًا عن التكامل وعن الصعود، في زمن نرى فيه أمثلة إحباط كبيرة حدثت بسبب الغفلة والسطحية، واستغلال الخصوم للخلافات التي كان بالإمكان معايشتها والانتصار لحاجات المجتمع وللمصالح العامة، لا لمثاليات وتسرّع في رؤية إمكانها وليست أبدًا كذلك؛ فليست سريعة التحقق وليست بالغة المثالية، وعندما تتحقق فإن المثقف يبقى من الناس يحمل ضعفهم وانتصارهم، والانتصار على الضعف الكامن في الطبيعة البشرية هو غاية في ذاته مطلوبة دائمًا، وكذا التخفيف من الضعف وعلله مكسب كبير للإنسان أينما كان.

المثقف سلعة

قالوا قديمًا: القارئ يشتري الجريدة والسياسي يشتري رئيس التحرير. هذه الحقيقة لم تتغير بل زادت في زماننا بطريقة موحشة وتوسعت، فقد كانت المواقف الثقافية في زمن الحروب والمواجهات تستخدم المثقفين والصحافيين للحشود الأممية، ثم كانت الحرب الباردة وحُشد المثقفون بين المعسكرين، ثم كانت معركة شراء الإعلام في العالم الثالث الذي لم يكن منحازًا، وصاحَبه شراء المثقفين في أعلى نماذج الشراء، ووصل الأمر إلى شراء المكتبات، فعرفنا في العالم العربي مكتبات كانت تنشر ضد اليسار الروسي وتروج اليسار الغربي المهادن للغرب، ثم اشتُريت مكتبات وناشرون وكتاب لمواجهة صعود الإسلاميين، وقاموا على قضية التحذير من الإسلام ومن الإسلاميين. وكانت مؤسسات غربية تنفق باسم رعاية الديمقراطية على مكتبات وأشخاص ومؤسسات لا دور لهم إلا مهاجمة الإسلام وتشويهه. وقد وكّلت بعض المؤسسات التجسسية دور نشر وأشخاصًا ومؤسسات إعلامية، ظاهرها أنها تحارب الإرهاب ولكنها كانت مموّلة رسميًّا من مؤسسات غربية لتشويه الإسلام وأهله، وتقوم على هذا عصابات منتفعة ترفع شعارات محايدة، بينما هي في أحسن أحوالها تمارس خيانة ثقافية للأمة ولدينها ولهويتها، حتى جعلت بعض المسلمين يكرهون أنفسهم وجلودهم التي تكسوهم لكثرة التشويه وشدة الحملة وقذارتها.

وقد سادت عمليات المقاولة الثقافية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، حتى إنني أذكر أن أحد الإسلاميين المتحولين كان قد فتح مكتبًا يروج لناتان شارانسكي -الذي تولى رئاسة الوكالة اليهودية في القدس لاحقًا- ونظرياته المعادية للإسلام باسم الدعاية للديمقراطية، في الوقت الذي يظهر فيه نصيرًا للسلفية ليقبض من الجانبين.

ولم يقف الأمر عند هذا بل سخّروا مشايخ وطرقًا صوفية ومتفقهة سلفية، وتقدميين وليبراليين ويسارًا ويمينًا وكل ألوان الطيف، ليقضوا وقتهم في عداوة الإسلام وأهله واستعداء العالم على المسلمين. وقد انتهوا إلى بيع السياسيين وشرائهم على المحطات الإخبارية مثلهم مثل بقية المبيعات، كأعمال الفنانين والكتب وبقية السلع، حتى إن بعض الثوريين العرب كان يبيع مشاركته بثمن بالغ الغلاء لمن يستضيفه في الحديث عن ثورته، ولا يقبل إلا من يدفع له أكثر، وهو يزعم أنه ثوري.

كان ذلك قبل أن تباع شعوب في سوق النخاسة، وقد فاوض على بيعها عساكرُها وساستها وبعض أغبيائها، ممن لم يدرك أنه في سوق نخاسة يبيع أمته ودينه ووطنه لساخطين ومعارضين في الظاهر، ولكن تبين للأغبياء أن المشتري لأوطانهم ومدمرها ومفقرها وسفاحها لا يخلو أن يكون صنيعة بأيدي أعدائها.

المثقف زينة

يشق على بعض الوجهاء غِنى أو منصِبًا أن تكون مجالسهم بلا مثقفين، فيصطنعون المثقف الزينة، وهو شخص يُتزين به في مجلس، كما تتزين القنوات التلفزيونية بهم، وكذا بقية وسائل الإعلام. يجب أن نعترف بالحضور الكبير للمثقف زينة المجالس، فهو لا يهم شارك أم لا أو قال حقًّا أم باطلًا، فيكفي أن مجلس فلان يحضره المثقف الفلاني، ويكفي القناة الفلانية أن من ضيوفها ومتحدثيها علّانًا. ولا نلوم الناس على حاجتهم أو مجرد رغبتهم في وجود أسماء رنانة في مجالسهم أو صداقاتهم أو محاضراتهم وندواتهم، غير أن المشكلة أن المجلس يصنع عقل المثقف

ولغته وفكرته وضميره. وأذكر مرة أن ضيفًا في برنامج ديني سأل بكل جدية مستضيفه في البرنامج قبل خروجه على الهواء: هل تريد أن أقول يجوز أم لا يجوز؟

وهذا الأمر عند المثقفين أسوأ منه عند المشايخ، فإن كان ذلك يخاف من نظرائه والمتعلمين في الصنعة نفسها، فإن المثقف أكثر اقتحامًا وعدم تقدير لسوء قوله أو هزيمته لضميره لو بقي له ضمير؛ لأن المثقف -كما سبق ذكره- تغلب عليه نزعات بعيدة ومختلفة عن نزعات المشايخ، وطريقة محاسبة كل منهم لنفسه ولقوله ولجمهوره تختلف.

زينة المجلس من المثقفين بمجرد حضوره عند صاحب المجلس يلبس ثوب تبعية وطاعة واعية أو مأخوذة بالعقل الجمعي، وبطقوس المهابة المصاحبة، ويشكل نفسه بما يناسب صاحب المجلس الطاغي أو المنافق لجهة ما، وهنا يقتل المثقف نفسه ويقضي على وعيه وإبداعه. وفي بعض مجالس الأغنياء جدًّا أو الحكام يصنعون طبقة من المُسافِهِين عنهم كالطبقة القديمة تمامًا، وهؤلاء لهم إيجابية أحيانًا في تحريك النقاش حين يهمد، ولكنهم غالبًا يقومون بتسفيه المتحدث حين يخرج على مزاج صاحب المجلس الثقافي. ولأن غالب أصحاب المجالس من صغار المثقفين أو من الأثرياء والمتسلطين، وبلا مكانة معرفية ولا عقلية لائقة، ويحتاجون إلى هذه الوجاهة؛ فإنهم يصنعون لأنفسهم وللناس أزمات معرفية وثقافية مزعجة، وينشرون ثقافة من النفاق والمجاملة ثقيلة ومضرة بالجميع.

حضرتُ قديمًا محاضرًا في مجلس غاصّ بمثقفين كبار منهم ذوو مناصب[179]، وتحدثت عن الموضوع المقرر الحديث عنه، ولاحظت أن أحد الجالسين يثير أسئلة بعيدة عن الموضوع ويثير شغبًا في غير مكانه. وقد وقعتُ في خدعته من أول موقف أو موقفين، ولكن صاحب المجلس أوقفه علنًا، وقلت في نفسي هذه شخصيته وطبيعته، وعند خروجي من المجلس حدثني الشخص نفسه معتذرًا بأنه يقوم في المجلس بمجرد الإثارة وتحريك النقاش وهز المتحدث والسامعين. أسفت لهذه الطرق السخيفة في الترويج للمجالس ولأهلها، وتعلية شأن المجلس بما يكون فيه من سخافة، وبالمعقول وغير المعقول من الأسئلة وبقضايا قد لا يفهمها مثيرها. وهذا التحريك الحيوي -كما زعم صاحبنا أنه كان دوره- قريب من دور المُسافَهَة قديمًا، إلا أن المُسافِهَ المعاصر يتم تحريكه طوال الوقت بأساليب مختلفة أكثر تقنية وتطورًا من المسافه القديم. هذا يسمونه محرك المحاضرة، والآخر يسمونه مسافهًا عن ذي منصب أو علم، وهناك فرق بين محرك مزعج ومسافه يرد البذاءات على ذويها بمثل فعلهم أو أسوأ. وهذا كثير عند الحكومات والأحزاب وعند المتسلطين على الثقافة والعلم.

مثقف الزينة ينقل المواقف المضرة للمجتمع ويصنع منها مواقف وآراء ورغبات عامة، بينما هي في الحقيقة شهوة شخص أو موقف يستفيد منه أهل مجلس أو طبقة أو قرابة.

يمكن أن يحاول النقاد والمخلصون تخليص المجتمع من داء مثقف الزينة وشيخ الزينة، بمواجهة مواقفهم أو أفكارهم ومنشوراتهم، والتعريف بظروفها، وبحاجاتهم التي تسوقهم لصناعة ثقافة رياء وسمعة ونفاق، مع تجريد كل هذه التضحيات من أي مكاسب جماهيرية. فلو شاهدنا مثقفًا قدّم رضوخًا ولكنه حقّق لمجتمعه خيرًا مما خسره لقلنا ربما نفع هذا الثمن، ولكن غالبًا للأسف يدفع ولا يجني مجتمعه شيئًا من نتاج عمله، وعائدات ذلك كثيرًا ما تكون فردية وذاتية تضر بالمصالح العامة للمجتمع.

مثقف الزينة الذي يزين به المستبدون أنفسهم، أو مثقف الطبقة الذي تزين به طبقة مهيمنة نفوذها، يعزز أمراضًا اجتماعية وسياسية في النفوس والممارسات، ويعيد الثقافة العربية إلى العصور المشوَّهة، كالذي كان يحدث في نوادي الطبقات العليا في فرنسا قبل نجاح المقاهي، إذ ينتج طبقة مخملية التفكير والممارسة بعيدة عن واقع الناس ومصالحهم، ترسخ سلوكها وتبرره وتفند المخالف، وتؤسس طبقية متعالية فاسدة تكرر لها أمراضها وترسخها. وفوق هذا تخدع نفسها ومجتمعها بقولها إن الحاجات الضرورية للناس هي حاجات مسحوقين وفقراء ودراويش لا قيمة ولا أهمية لها.

ويتحول مثقف الزينة -الأشبه بأدوات الزينة- إلى مناصر للباطل غافل وبعيد عن العدل، ويفقد حتى الكثير من المروءة والتواضع مع الزمن. ولا يعود قادرًا -حتى ولو حاول- على تفسير حاجات المجتمع وفهم ضروراته، إذ تصنع منه ثقافة الطبقية حالة من السلبية والتبعية للمصالح في الخارج، أو لشهوات جهات الطغيان في مجتمعه، وتتبلد مشاعره ويقل وعيه، ويتكبر حتى على مصالحه فلا ينفذها؛ لأنه لو قام بها لاتُّهم بالتواضع وبأنه من طبقة أقلّ مكانة وسيادية، فيكلفه الترفع فوق ما يكلفه الواقع، ويفشل ويضيّع مصالحه ومصالح مجتمعه، بحجة أن المصالح العامة وحاجات الناس دون مكانه ومكانته التي رقاه إليها الذين يحبون التزين به.

وأذكر أني رأيت رسمًا كاريكاتوريًّا قديمًا طريفًا، كان ينادي فيه عاملٌ بعضَ كبار الشخصيات من الساسة والتجار أن يفعلوا كما فعل حزب العمال في بريطانيا بفوزه بالمقاعد، ومن ثمّ عليهم أن يطالِبوا بحقوق الشعب، وبانتخابات وديمقراطية، فيرد عليه ذوو الكروش الكبيرة والطرابيش بقولهم: «دُولْ عمالْ وِاحْنا بَشَوَاتْ»؛ فيحقرون حزب العمال ربما بسبب التسمية، ويحقرون التحرر والكرامة لأنها من بضاعة حزب العمال وليست من سلوك الباشوات الكبار.

وفي مقال «لماذا يخسر العرب الحروب»، المشار إليه سابقًا[180]، يزعم كاتبه أن مجموعة من الضباط العراقيين كانوا أسرى في خيمة واقتلعتها الرياح، فبقوا في العراء والرمال ولم يحاولوا إعادة بنائها؛ لأن على مقربة منهم عددًا من الجنود الأسرى ومن غير اللائق أن يقوموا بعمل يَدَوي في مرأى من الجنود الذين يجب أن يكون هذا عملهم. فهنا طبقية معرفية وتعالٍ بالجهل، وربما صحبها أنه يعاف التعامل اليدوي والعملي أن يمارسه وقد يعطي قوة لمن دونه لو عرف، فيحافظ على جنوده جهلة ثم مهزومين ليحافظ على منصبه ومكانته، تمامًا كما يفعل الدكتاتور الأعلى المعصوم من الجهل والخطأ وسوء التقدير والتصرف.

المثقف ساخرًا

السخرية من نماذج الحرية، وهي سلاح ثقافي مؤثر جدًّا، قادر على هدم مقدسات الأمم وهدم قدواتها وأشخاصها. فقد كانت سخرية أبي نواس من ثقافة الأطلال بالغة الأثر في نشأة أدب المحْدثين[181]، ولولا مشكلة التصاقه بالشعوبية لنال كثيرًا من المجد والتأثير. وكان للراوي الساخر الإسباني سرفانتس في كتابه **دون كيخوته** أثر كبير في التهوين من غرور المحارب الإسباني، بل عد بعضهم سخريته مما حطّ لاحقًا من مكانة الجيش الإسباني.

وللمثقف الساخر فولتير أثر هائل في المؤسسة الدينية وفي السلطوية، إذ مهدت أعمالُه للثورة الفرنسية. وقد أشار منظرو التغيير والثورات إلى أثر السخرية في هدم وضع وبناء بديل له؛ ذلك

أن المتهكم بحكم مؤدى عمله يهدم ما تهكم به، كما يصف أوسكار وايلد هذه الحالة: «العيّاب المتهكم يعرف ثمن كل شيء ولكنه لا يعرف قيمة شيء»[182]. وبسبب عدم معرفته بتلك التقييمات في رؤوس المعتنين بالقيم فإنه يهدم دون شعور بحرج، ولا يفكر في قيمة المهدوم.

وقد اعتنى الإعلام الحديث بالهزل الجاد، ولو أن هذا المثقف الهزلي كان غالبًا يعبِّر عن مدرسة عدم المحافظة والالتزام، وسخريته غالبًا ضد المحافظين عبر العصور، منذ من نعرفهم في أدب الحطيئة إلى ما بعده، ومن أبي نواس إلى فولتير إلى أكثر الرسوم المتحركة الساخرة اجتماعيًّا وثقافيًّا، وهذه الرسوم لا تقل -في جرأتها النقدية للقيم- عن أعمال المفكرين التي قبعوا عليها سنين لتأكلها رفوف المكتبات.

وكان للشعر العربي الساخر في عصرنا دور كبير في إثارة الناس وفتح أعينهم على عيوب حكامهم ومسؤوليهم وموظفي حكوماتهم، فأحمد مطر وغيره من الشعراء والأدباء الساخرين -كمظفر النواب وأحمد فؤاد نجم وإبراهيم المازني ومارون عبود- وأصحاب الريشة الكاريكاتورية في الرسومات الساخرة، وأصحاب الأفلام والمسرحيات الساخرة؛ قد أدّوا جميعًا دورًا في تجْرِئة الناس وقبول ثقافة السخرية من المتسلط.

وفي الثورات العربية استدعيت مسرحيات ومشاهد ومحاكمات للدكتاتوريين، لإيقاع العدالة في مشاهد تمثيلية وكأنها تحكي ما يراد أن يحدث، فحدث بعضه بعد زمن قصير. وهذه أعمال -مهما يكن لها من طابع بساطة قد يراه قوم- فإنها تصنع في نفوس المشاهدين تغييرًا كبيرًا يسهل الحقيقة على من شهد الملهاة، ويقتل قلب المستبد بما ينتظره من مأساة.

ولعل الحكومات التي خططت لإسقاط الديمقراطية في مصر زمن الرئيس المنتخب محمد مرسي كانت تدرك خطورة السخرية منه ومن الديمقراطية، لتسقط الديمقراطية والنظام وتعيد القبضة الحديدية العسكرية على المجتمع، وقد فعلت، ثم رمت بالساخرين إلى الخارج وحرّمت على الجميع أي نقد للاستبداد العسكري.

المثقف حاكمًا ميتًا

الاستهانة بموقع الثقافة والمثقف ميراث المجتمعات الجاهلة أو المتجاهلة، ومبالغة الفلاسفة وكبار المثقفين في دورهم كبيرة جدًّا، فهم كثيرًا ما يتمنون أن لهم وجودًا في تسيير الحياة من حولهم، ولما يرون تلاميذهم يقدسونهم ويسمعون قولهم يركبهم شيطان الغرور، ولكن هناك حقائق قابعة في الطريق، وهي أن الفلاسفة من الحقائق المنتشرة في هذا العالم والكثير من أوهامه، والمثقفون في ميادين التحرر وحكوماته يعظُم شأنهم كما يبور في المجتمعات الجاهلة، أو يُفهمون على غير ما أرادوا.

ونحن نرى منطقة شمال إفريقيا تقول إنها «مالكية»، فأي حكم للإمام مالك بن أنس في هذا العالَم، وهو الذي أقر له العالَم في حياته بأنه كان سلطان المدينة، وكان والي المدينة يتسلل لِواذًا إلى دار مالك مأخوذًا بهيبته وجلال شخصه ونفوذه. وكذا حكم على سلوك الناس وفهمهم كثير من الأئمة المتبوعين في العقائد والشرائع وهم كثيرون عبر الدهور. وكثيرون دُعُوا بالمهديين أو ادعوا المهدية (كما فعل المنصور العباسي مع ابنه المهدي، وكالمهدي بن تومرت)، فعلي بن أبي

طالب حكم مرات عديدة عالَم المسلمين من خلال مَن ادّعى إليه نسبًا أو فكرًا يطبقه له وإن لم يحقق ما وعد به.

وكذا عاد ابن تيمية ليحكم الجزيرة العربية على يد ابن عبد الوهاب وأتباعه. ويطيب للفيلسوف كارل بوبر أن يعقّب بأنه «نعم.. حكم فلاسفة العالم كما تمنى أفلاطون» ولكن غالبًا بعد موتهم، فيرى أن ماركس تولى الحكم بعد موته بنحو ثلث قرن عبر «الثورة الشيوعية»، وقد صنعت له الدولة الطبقة التي كان يقودها، طبقة المثقفين التي قامت بالحشد العظيم للثورة، وقد نسيها ماركس نفسه أو لم يرها في كتاباته ولا حياته –لشدة قربها وعظيم تأثيرها ربما- ولم يرها تقوم بشيء، مع أنها هي من قامت بأغلب العمل. وجون ستيوارت مِلْ اعتلى السلطة بعد موته باثنين وسبعين عامًا، من خلال برامجه للعمل في أجور العمال، وإيمانويل كانط أسس فكرة عصبة الأمم في كتيب شرح فيه فكرة السلام.

وهكذا قال هنريش هاينه عام 1837: «انتبهوا يا رجال الفعل المزهوين، أنتم لستم إلا أدوات لا واعية لرجال الفكر، إنهم يحددون المهمة الأثيرة لكم وغالبًا في انعزال وتواضع، ألم يكن ماكسميلان روبسبير ذراع جان جاك روسو؟»[183]. وكذا نجد هتلر والفاشيين، وتسلم السلطة العاملي في إيران 1979 بعد وفاته بأكثر من أربعة قرون، عبر تطبيق تلاميذه اللاحقين لفكرته تلك «نيابة الفقيه» عن الإمام الغائب (ولاية الفقيه)، وهي الفكرة التي أصبحت قضية وتنفيذًا عملًا خطرًا مؤثرًا في زماننا، وعمل لها مثقفون وناشطون.

ومثل ما حدث في زمن جورج بوش الابن ممن كانوا استجابات تنفيذية لأفكار سابقة، هي أفكار مدرسة المحافظين الجدد ومدرسة شتراوس في جامعة شيكاغو، فكان يؤسس -بهدوءٍ وعملٍ ظاهرُه أكاديمي- حركة يهودية متطرفة في مواقفها من العالم، إن لم يكن حتى من أمريكا في داخلها، وانتهت بدكتاتورية ولو مؤقتة وبهيمنة على القرار السياسي والاستراتيجي والعسكري.

ولهذا كان التحذير من فساد المثقفين واستبدادهم الحاضر مهمًّا، وأخطرُ من الاستبداد المباشر لهم تلك الأفكارُ التي يزرعونها ألغامًا دائمة في طريق الأمم بحسن نية غالبًا، زاعمين أن أقوالهم هي ما أوصل إليه الفكر والثقافة، وكم دمرت هذه الاجتهادات وعاقت الإنسان عبر الدهور. فما أضر بالإنسان عبر مسيرته مثل المثقفين. وربما كان في النقاشات التي كانت بين ميخائيل باكونين وماركس، وانتصار أتباع رؤية ماركس في الدولة وتطرفهم في رد فعلهم ومواجهة المتهم باكونين، ما قام حجر عثرة في حياة الإنسان خلال القرن العشرين، وقيدًا من القيود التي دمّرت روح الإنسان وسجنته عبر الزمان والمكان في سجن حكومات حمّلته فوق طاقته.

المثقف متغربًا وإسلاميًّا

هناك جانب من الخلاف الشديد الذي نعانيه بين المثقفين من ذوي الميول الإسلامية والمثقفين ذوي الميول الغربية يحسن أن نفهمه في أسس تكوينه، ونقبل نتاج هذا التكوين أو نفهمه. فالمثقف الإسلامي يعيش على تراث أمته، وهو تراث واسع وعميق ومتنوع، وهو مخالف للثقافة الغربية ويعطي المتعامل معه قدرًا كبيرًا من الثقة بالذات، والعزة المدرسية الداخلية التي يسكنها المثقف زمنًا طويلًا، ويعيش متعة اللغة العربية بقوتها وجمالها وإغوائها اللفظي، والتي يخاف منها خصومها وما تسببه للعربي من ولع بذاته وغرور واعتزاز بماضيه.

وكان شمعون بيريز (رئيس وزراء إسرائيل ووزير دفاعها ورئيس جمهوريتها، وهو من أهم عقولها البانية لعدوانها) يرى أن العربي فيه غرابة وشاعرية، وثقة وتعلق بالجمال المغروس في لغته ذات الشكل والسجع والتكلف المثقل بغرور كبير، يجعل العربي لا يلين أو يعترف بخصومه، وهي أفكار طالما دندن حولها برنارد لويس. إن هذا المخزن الثقافي الهائل يستولي على المتعامل معه ويجذبه بشغف، ويحدد له طريقة في التفكير بحسناتها ونواقصها تسبّب انفصامًا أحيانًا عن الزمان. وكان ممن اعترف بهذا الإغواء الهائل زكي نجيب محمود في رؤيته لتجديد الفكر العربي، فقد سمح لنفسه أن يعود من غربته الثقافية إلى تراث أمته، وما قصة الكتاب إلا إضاءة لمن ضلوا في الدروب.

يقابل هذا أولئك الذين عاشوا انفصامًا آخر وعاشوا داخل الثقافة الغربية وهي كيان مختلف، وإن كانت قراءاتهم باللغة العربية فإنهم يقرؤون ثقافة غربية، وكان يناقشني أحدهم يومًا في أن اليسار العربي تيسرت له ثقافة أكثر أحيانًا من كثير من الإسلاميين، وقلت له إن السبب هو أن اليسار - الذي ثقل عليه آثار الدين وفاصل الاختلاف - يشعر بسهولة وجوده داخل معسكر الثقافة الغربية. فالانحلال أو البُعد الغربي -بعكس ما يراه الإسلامي- لا يمثل له عقدة ولا فاصلًا ينفر منه، ثم إن الغرب هو الممسك بثقافة العالم منذ خمسة قرون أو يزيد، فهو يعيش هذا المنتج الآخر بينما يعاني الإسلامي من الاندماج، ويعاني من كثرة المطلوب منه من الثقافتين ومن المواءمة، فهو مغترب على أي حال، ويجد قبولًا أكثر وثقة أكثر في ثقافته الأصيلة والممتحنة في الوقت ذاته، بينما ثقة المتعلق بثقافة الغرب مرتبطة بقوة الغرب لا بإقناعه.

من كان فقيرًا في معرفته بثقافته وبإبداعها، فإن من المسلم به ألا يكون واثقًا بها، ولا بمشاركاتها في ثقافات العالم، كيف وهناك ثقافات غلّابة أخبارها منتشرة، وأنتجت حضارات عالمية كبيرة وقاهرة للمنافسين، ويحييها ورثتها بكل وسيلة. وبهذا فإن هذا المثقف الجاهل بثقافته لا محيص له في زماننا أن يعيش تابعًا في ظل سلطة ثقافة أخرى غريبة عنه، تستعمله في تبعيته لها والاقتناع بها ونشرها بوعي وبدونه، فللثقافة سلطة يقل من يقاوم نفوذها من الأفراد، هذا إلى جانب أنها في زماننا غلابة بكل الأسلحة ومثقلة بمتعة وتسلية ومن ثمّ الذوبان فيها، وتصبح هي الذات والمتعة والمعيشة والتجربة، وتغدو جزءًا لا يتجزأ من النفس الواعية وغير الواعية. هذه المتعة -التي تجرّ الناس أفرادًا وجماعات للعيش في الثقافة الغالبة والتفكير عبرها- أشبه بداء المجتمعات الأقل تنموية والغارقة في مصطلحات الآخرين، والآخرون هنا قد يكونون أجدادنا أو أجداد غيرنا، وكل من غلب فجده أغلب. إنه خضوع لسلفية الثقافة الحاضرة الغالبة التي يحارب بها الليبرالي والسلفي والخلَفي في مجتمعاتنا، حيث لا وعي في الحاضر يكسر سياقها، أو هو ضعيف أمامها، وهذا يمنع الإبداع والتجديد ويحدو للتكرار والتشبه وقتل الرؤى الجديدة. ولأن الثقافة الغالبة توحي بأن الغلبة دليل صحة الثقافة فإن هذا يعود على الوجوه الأخرى الآملة بنوع جديد من الثقافة بيأس وتبعية واستسلام لأنماط مجتمع معين وإن كانت خطأ وتقليده، إذ الاتباع أسهل دائمًا من الإبداع.

ومن هنا كانت أهمية البراعة الثقافية التخصصية، لإنشاء ما يخدم الإنسان المعاصر عندنا من جعل ثقافته العربية الإسلامية والغربية تعالج باستمرار قضايانا وفق حاجاتنا، مراعية لنا بيئة وشخصية ومستقبلًا مستقلًا، وتُخرج لنا ما نحتاجه دون انحياز أعمى لثقافتنا ولا لثقافة غيرنا من الشعوب. ومهما تتلمذنا على غيرنا واستفدنا منه فنحن مسؤولون عن بناء ذات ثقافية يومية

معاصرة، أي متجددة وغير متحيزة عاطفيًا بلا جهد ولا صياغة وإعادة فهم وإنجاز عملي، وهذا يحتاج إلى توسع ثقافي وتنوع وإدارة قادرة على صنع التواصل والانفصال بحسب الحاجة.

المثقف موظفًا

أستطيع القول إن كبار المثقفين المؤثرين أبناء فكرة رسالية صهرتهم في شبابهم حتى نسوا متعتهم زمنًا واندمجوا في رساليتهم ثم عادوا، وربما يفضل بعضهم أنهم هبطوا من سماء المثالية في عُمرٍ «ما» إلى الأرض ليكونوا من أهلها، وربما أكمل بعضهم طريقه المثالي الرسالي إلى نهاية الحياة، وهذا يفسر دعوة كبار الرساليين والمثاليين إلى الثبات حتى الممات، إن وسّعنا معنى الثبات ليَدخله أهلُ الرسالية والمثالية.

إن الحرفة لدى الفنان والمثقف موجودة، وهو يرقى في سماء الفن حتى يتجاوز كونه مصمم أعمال سريعة وديكورات منازل ومحلات وقاعات ولوحات سريعة بلا روح إلى أن يكون إنتاج فن متعة، ورسالة تأمل ورسم وصوت وصورة. إنه ينقل المستمتع به إلى فضاء الشغف والتأمل، وراحة العقل والضمير أو قلقه، وصناعة عالم جديد له.

ويرى تودوروف أنه إن كان ينظر إليه كصانع أشياء بديعة أو صناعة طريفة فهو مجرد محترف ينُتج أشياء عالية الجودة، ولهذا سيجد الحرفي نفسه مختلفًا ومصطدمًا مع الفنان الذي يصنع أشياء نتأملها ونغرق في جمالها، ونصاب أمامها بفقدان النظرة الحرفية إلى حالة أعلى روحًا وذوقًا، وقد لا نحرص على اقتنائها فهي فوق الاقتناء. وهنا فالفنان القدير يترفع عن عقدة المحترف للمعيشة من خلال صناعة مكررة.

وكذا المثقف هو موقف في النهاية، وليس موظفًا لإنجاز موقف رسمي أو حزبي ينال عليه تأييد الحكومة والجريدة والتلفاز ومسؤوله في عمله، المثقف له مسؤولية وأمانة رأي قد يخالف مصلحته، ولكن المثقف الذي يرى الرأي وظيفة ومعيشة فهو مجرد محترف، لا يعاب في أن تكون الثقافة حرفة له، ولكنه ليس المثقف الذي يتحدث عنه الناس وتحترمه الأمم بسبب رأي صادق ورسالة مخلصة، قد تتفق مع أسباب معيشته يومًا وقد تخالفها أخرى، وكذا يتفق مع حكومته أو جريدته أو حزبه أو لا يتفق.

وهؤلاء المثقفون الذين نقصدهم كثيرًا في خطابنا هذا لا يذوقون لذة عمل، وتجدهم في صراع بين ذواتهم وبين استخدام إنتاجهم، إذ يريده المستغل حرفة ووظيفة ويراه الفنان أو المثقف طريقًا لترقي ذاته، فجانب يرفع الروح وآخر يُسفّ بها، وكثيرًا ما يسقطون في صدام ما بين الذي يريدونه وما يراد منهم.

في خلاصة هذا القول نجد أن المهنة غالبًا عمل حرفي لا علاقة له بالأفكار والمواقف من الثقافات، وله طابع مكرر لا يحتاج معاناة تفهم وعواطف، فالطبيب المحترف لا ينظر إلى مذهب وعقيدة وموقف سياسي وهو يعمل في مهنته، وكذا عامل المطابع، ولا موظف المراسم الحكومية، ولا أغلب عمل رؤساء تحرير الصحف في نظم تمنع التفكير والتفهم وتلغي المصلحة المضادة، ولا حاجة لشعبها في أن يفهم بخلاف رؤية حكومته الملزمة في كل شيء. وفي هذه الحالة يخرج المحرر من مثقف إلى حرفي، أما من كانت له رؤية من المطّلعين وممارسي العمل الثقافي،

ويسمح له بموقف حر أو مختلف، أو سمح لنفسه بفعل ذلك، فهو مثقف ذو مسؤولية تجاه ضميره ومجتمعه مع كونه صاحب حرفة يعيش منها.

علمًا بأن مصطلحي المثقف والحرفي من المصطلحات المتحركة والمتلونة، ويعانيان من إشكالية هذه التحولات كلما تغيرت الظروف السياسية، وتعددت الوسائط الإلكترونية للتعبير. وهنا تحرك بسرعة ميدان الصحافة والثقافة حتى خلط الوسيلة بالمضمون، واستقل المتلقي عن الوسائل القديمة. ومع هذا فإن مستهلك الثقافة لم يزل إلى الآن يرى في المثقف مرشدًا، ولم يزل المثقفون يشعرون بهذا الشعور وتستعملهم الحكومات بناء على ذلك لتبرير الناس وحشدهم وراء مواقفها، ويستوي أن يكون المثقف يمارس مهمته باسم الدين أو باسم العلمانية؛ فالحكومات تطلب منه أن يحمل طبله وعصاه ليهش على السامعين أو القراء.

يقول سلامًا على التابعين — وويلٌ لمن لم يَسِرْ في الركاب[1]

[184]فهل نسمِّي المتعلم الذي احترف مهنة جلد المخالفين للسلطة «مثقفًا خائنًا» أو مجرد ممتهِن للقمع باسم الثقافة والمعرفة؟ أيًّا سُمّي هذا فهو أدنى منزلة ممن سُمّي «خائنًا للثقافة»، أو الذين اشتهروا بالخيانة من المثقفين؛ لأنهم أصحاب قناعات ومواقف خدموا فيها السلطات والمزاج العام المنحرف وهم يعلمون انحرافه، ولم يقمعوا كالظاهرة الرديئة التي سادت في خدمة الدكتاتوريات أو خدمت الصهيونية في العالم العربي؛ لأن هذا النوع ليس في حسبان الثقافة ولا يعبّر عن موقف ثقافي مبني على قناعة أو مشاعر ذاتية أو رسالة إنسانية أو دينية، بل هو مجرد جلاد مثل السجان لا يحتاج إلى استعمال عقل ولا ضمير ولا مسؤولية له أو عليه؛ فهو أحد جلادي السلطات في أردأ ممارساتها وأدنى طبقاتها المعادية للعقل وللضمير وللمصلحة العامة.

المثقف مغفلًا

يستسلم أحيانًا بعض المثقفين لمصطلحات ونظريات وشعارات ومواقف عامة يلوح من أولها أنها صحيحة وجميلة وعميقة ومؤثرة، وهي بمقدار ما تلوح صحتها كثيرًا ما تخفي جوانب عديدة من حقائق هذا العالم، فمثلًا يطرب أحدهم لقول البعض: «دعنا نتحدث عن الأفكار ونتجنب الأشخاص»، أو يقول: «الحديث عن الأفكار أرقى أو أفضل من الحديث عن الأشخاص» فيقع ضحية لجزئية الفكرة وابتسارها، أو يغيب عنه تداولية الدور فيها بين الطرفين الشخص والفكرة، أو مع طرف غائب عنه كالظروف المحيطة بالحدث.

وهناك أيضًا من يوهمه قوم أنه أعمق حين يجرد قوله ويسلبه روحه ويغرق في تجريده، فيسوق كلامًا رمزيًّا بلا لون ولا طعم ولا رائحة، يلمح فيه لزيد وعمرو، ثم يقول في مجلس خاص إني رمزت في مقال كذا إلى فلان، وفي مقال كذا إلى فلانة، وعليك أيها الذكي تفكيك رموز السيد المثقف ثاقب الرأي واضح الرؤية! ولو قلت له هذا نمط بارد من القول ومن الحديث الممل البارد، فلا يليق أن نضيع أوقاتنا واهتمامنا في تفكيك رموزك، ولا ندري هل تستحق هذا التفكيك، بل ندعك ورموزك هناك تقرأها بنفسك حتى يمن الله عليك بشجاعة أو صراحة في القول والتعبير عن النفس، أو بوعي ومعرفة تخرجك من خدعة التجريد البارد، وحين تحقق ذلك فلك أن تطلب منا قراءة كتابتك أو سماع قولك.

إنها الرغبة في حماية النفس من اللوم ومن المستبدين ومن القوانين التي قد تجرم بعض المواقف، وإذا اتفقنا أن حماية أعراض الناس ومقدساتهم من مسيء القول، فإن مما أضعف مجتمعاتنا وجعلها ضعيفة تابعة وخانعة أنها لا تمارس حرية التعبير، ولهذا فإنها حين تجد فرصة فإنها تنفلت بالإساءات، فهي بين صمت مصدره الذل والهوان وبين انفجار عبارات عارية من الأدب ومن الحصافة وكلا الطرفين لا يبني وعيًا، وأيضًا فإن هناك مسافة بعيدة بين القول الذي يمارسه المثقف الجبان، بكل رمزية مغرقة في التجريد والهروب من المسؤولية، وبين القول الحصيف الذي يقلل فرصة المفسدين على مطاردة كلمة الحق. وأعترف بصعوبة التمييز غير أن ذلك مطلوب لنشأة حياة حرة مختلفة عن العقول الكليلة والشفاة المرتعدة.

أما أحدهم فيحتج كثيرًا بأن أسلوب «ما بالُ أقوامٍ» هو الأصلح والأنفع؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم اتبعه أو فعله مرة ونقل عنه، ولكنك محتاج أن تحاججه بأن الإسلام قام على صراحة كبيرة وخطاب شديد الوضوح والنقد للفاسدين والمفسدين. وماذا تقول والرسول نفسه نقل لنا عن الله «تبت يدا أبي لهب وتب»، وقنت على قوم في الصلاة وهم قبيلتا عكل وعرينة، ولم يُكَنِّ. ونحن نجد القرآن والكتب السماوية والأرضية مليئة بالأسماء، الممدوحة والملومة، ثم إن ذكر الأسماء مرضيًا عنها أو مغضوبًا عليها هي ملح الكتابة، وشرح الفكرة، ووسيلة الإبلاغ الأقوى توصيلًا. ولا نعترض على الحكمة وعلى الحاجة في بعض الأوقات أو أندرها إلى أن تقول: «ما بال أقوام»، خاصة حين تكون هذه العبارة كافية للإصلاح والتغيير.

إن حمولة الخوف الثقيل، وقت ألا يستطيع المتحدث أو الكاتب مواجهة شخص ولا جهة ولا فئة بعيبها، ولا يستطيع تحمل عبء ولا مسؤولية الموقف، أيا كان، فيلوذ تحت شعار ضعيف آخر يرى أنه هو واقيه ومنقذه من تبعة الرأي. وهذا أسلوب يلوذ بتعمية الفكرة ضد وضوحها، مما يسبب سوء الفهم بل فساده، ولأنه لم يقلها كما يجب أن تقال، فإنه قد يعمي غيره لحظتها، ولكنه ينتهي هو عميًا فلا تتضح له أفكار ولا يتخذ مواقف، وهنا ينتج المجتمع أعباء ترى نفسها مثقفة وهي مجرد أعباء على الثقافة والمجتمع منزوعة الدسم.

كلنا نعاني من مشكلة الخوف من الشجاعة ونختلف في اجتراحها، ونجبن عنها كثيرًا، ولكن عندما نجبن ونسكت سكوت الذل، أو نتحايل على الحق بالتخفيف من وقع العبارة السيئة والموقف السيئ، ونتجنب العبارة المعبرة، فإننا ننتج كلامًا مظلمًا يزيد الظلام عتمة، ولا ينير لأنفسنا ومجتمعاتنا الحق، فلا طاقة لبشر أيًّا كان أن يقول الحق كلما احتاج أو أراد، إنما الإقلاع عن امتداح الغموض والقول الجبان مرحلة علاج أولى، ثم إن زماننا وفر وسائل هائلة للتواصل وللتعبير، ومنها تستطيع نشر عقلاء الناس وتحريضهم على تبني مواقف جيدة مشروحة، سهلت توصيل ما يجب قوله، فضلًا عما يحسن قوله، وخير لنا أن نتبادل القول في مواطننا وفي قضايانا بأي طريقة خاصة، فهذا أصوب وأولى من الصمت، وما من حق إلا وله من يستطيع قوله، وما من باطل إلا وهناك من يستطيع التشنيع به مع بقاء رأسه وعرضه مصونًا وجاهه محترمًا.

فلو تبادلنا قول الحق كل بحسبه وبمكانه صلحت مجتمعاتنا، وأصبحت لائقة بأن تعاش وتتطور وتنمو خلقيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، وهذا خير من الهروب والتولي وقت الزحف الدكتاتوري بأعذار تمنع قول الحق وتتآمر على ترسيخ الباطل، ومن ترسيخ الباطل عدم تسمية الأشياء بأسمائها، ويصبح بعد ذلك من تبنى فكرة التعمية على الآخرين أكثر عماية وضلالة.

ويلاحظ السياسي على المثقف غفلته عن السياسة، وهذا واقع ولا بد، حين لا يفهم المثقف سبب قرارات السياسي، وهو فعلًا قد يجهلها. غير أن المثقف لسان الأمة، وإن لم يستطع السياسي إقناع الشعب فلأن خلافه مع الشعب من أجل مصلحته الذاتية، أو من أجل سلطته وتمسكه بها أو عودته إلى السلطة في جولة أخرى، أو من أجل ماله، أو من أجل علاقاته أو صلاته الشخصية، وما عدا هذا فإن الشعوب الحرة قليلًا ما تخشى المثقف، بل تهابه وتعلي من قدره وتراه عينها على الشعب ويراه الشعب عينه على السلطة. وكما ينتشر بين المثقفين النابه الذي له عينا صقر على تلمح قضاياه، وتجد وتعالج، فإن من المثقفين جمعٌ أذاهم أكثر من نفعهم، ولا بد لكل نار من دخان ورماد.

«إن الناس الذين يطبقون أساليب أي ثقافة مستوردة يصبحون دائمًا عبيدًا لهذه الثقافة.
إنهم لا يسهمون بشيء في هذه الثقافة، ولا يضيفون إليها شيئًا على الإطلاق،
بل ينبغي لهم أن يقتصروا على محاولتهم مسايرتها وتطبيقها.
أما سحر هذه الثقافة وجمالها فإنهما أمران لا يمكن أبدًا أن ينغرسا فيهم أو ينتقلا إليهم...
إننا في موقف تحاولون أنتم الوصول إليه»[185].

آرثر ميلر

قضايا ثقافية

الثقافة بين التدين والعلمانية

غلب على وصف المثقف بمعناه الغربي أن يكون علمانيًّا، ولكن ليس هذا في كل الغرب ولا في كل الأزمنة. واختيار علي شريعتي القول إن المثقف الغربي علماني كان بناء على مهاد تاريخي فرنسي في أغلب الأحوال؛ لأن الثقافة الفرنسية هي مورد شريعتي المعرفي الثاني بعد الثقافة الإسلامية عربية وفارسية[186].

وبعضهم يعرّف المثقف في المجتمع العربي بأنه العقلاني في مواجهة الديني، فيهرب من كلمة علماني ويقول عقلاني. غير أن عددًا كبيرًا من مثقفي الغرب أنفسهم كانوا متدينين ومصلحين مؤثرين، عبر ما اصطُلح عليه بالثقافة العامة التي ليست ذات مرجع ديني معلمن ولكنه مستبطن، وإن كان بعضهم من كبار المؤثرين، ويطلق عليه إما مفكر أو فيلسوف وليس مثقفًا فقط[187]. وقد كان عدد من كبار المفكرين -بل من الفلاسفة- أقوياءَ في إيمانهم -فيما يظهر- بل دعاة إليه.

وكذا نجد في المجتمع المسلم -كما في المجتمع الغربي- أن مشكلة الدين واحدة في وجه الثقافة؛ فمنهم من يعرّف نفسه بأنه مثقف خلاصًا من قسوة المدرسة التقليدية الدينية. فمثلًا خلع أحمد أمين زيه الأزهري ليلتحق بمدرسة طه حسين، المتغربة، وكذا فعل هادي العلوي وكان شيخًا شيعيًّا مجتهدًا أو مقاربًا للاجتهاد، كما تحوّل حسين مروّة إلى الشيوعية بعد تمشيخه في الحوزة الشيعية، وكذا خلع محمد مجتهد شبستري -بعد خروجه على المدرسة الدينية أو الحوزة- عمامته حتى يكون مثقفًا عامًّا، لا تحاكمه المؤسسة الدينية بالانحراف عنها، ويحتج في مواجهتها بالعقلانية.

وكذلك غير المسلمين في المجتمع الإسلامي كان مهربهم إلى العلمانية أو العقلانية في مواجهة نفوذ الإسلام المجتمعي والإسلاميين. وفي بدايات القرن العشرين احتدمت في المشرق -خاصة مصر والشام- الصراعاتُ بين المؤمنين و«الملحدين» وكانوا يُسمَّوْن أحيانًا «الدهريين»، ورد عليهم علماء الإسلام المصلحون والعقلانيون الإسلاميون ردودًا كثيرة، مثل كتاب **الرد على الدهريين**[188]. وكان الدهريون –وغالبهم من النصارى- امتدادًا للشيوعيين والملحدين واللادينيين الأوروبيين، من أمثال شبلي شميّل وسلامة موسى وغيرهم.

والذي توصِلنا إليه المراقبة والتجربة أن من نبحث عنه مثقفًا ونريد منه أن يقوم بدور المثقف لا نشترط فيه شرطًا مذهبيًّا، فلا يحتمل أن يقوم بالدور جاهل بالقضايا الأساسية في مجتمعه، فقد يكون متدينًا أو علمانيًّا، ويأتينا المثقف من مهاد ديني أو أدبي أو علمي تطبيقي، ولكن بلا شك سيكون قد امتلك من المعرفة والوعي والحرص ومن اللغة والبيان ما يؤهله للتأثير، وقد يصطدم مع العلمانيين أو المتدينين، وغالبًا فهو من المغضوب عليهم من السلطات المستبدة في مجتمعه تلك التي خرج لينتقدها أو ليصلحها.

ولأن الكنيسة تآمرت مع الحكام الفاسدين وابتزت المجتمعات وأذلت الشعوب وخادعتهم، ولم تكن مناصرة للناس ولا عاطفة عليهم، إلا في استثناءات تاريخية قليلة كدورها في إيرلندا وجماعة «لاهوت التحرير» بأمريكا الجنوبية مثلًا؛ فإنه كان من المسيحيين طبقة فاسدة مرتشية من الناس ومن الحكام، فاستحقت أن تكون ثورة المثقفين عليها. ولأن البابا كان يستعمل المشروعية الدينية

لحكمه، فكان لا بد من كسر هذه الأطواق وهدم تلك المشروعية. ومن هنا كان تبني المثقفين للمشروعية القومية لتكون دينًا بديلًا، فروّجوا لهذا الدين المضاد، وكانت الطبقة الدينية طبقة أرستقراطية مقربة من الحكم ومتمتعة بنفوذه، وداعمةً محليةً لسلطات البابا والحاكم، فهي دونهما وفوق الناس، فكانت الديمقراطية خطابًا قضى على مكانة هذه الطبقة وسلاحها.

وإذا اتجهنا إلى الحال في العالم الإسلامي، فلعل من المهم أن يتنبه الناس إلى أن محاربة بعض المشايخ للديمقراطية ليس كله بسبب معلومات شرعية يعرفها، ولا أحكام من الدين تضادها، ولا أفكار يؤمن بها، ولكن لأن الديمقراطية تخلع عنه رداء القداسة التي نالها في لحظات انحراف عن الإسلام واستغلال له، وصناعة لحرفة جديدة ومنصب مفتعل وهو «المشيخة والإفتاء». وكلاهما (المشيخة والإفتاء) مؤسستان أو حرفتان مبتدعتان أو فكرتان تقلدان «المسيحية البابوية أو الكاثوليكية»[189]، وتفتحان باب هيمنة على المجتمع تمتلك الدين وتفسره لمصلحة من يعبد الناس للاستبداد. فهذه المؤسسات الوافدة الغريبة على الإسلام وعلى مجتمعات المسلمين صناعة يقلد فيها المستبد كنيسة العصور الوسطى المظلمة، ليستعبد الأرواح بواسطة دينية كما يستعبد الأجساد بالقوة المادية. وما ظهورها عند الترك قبل العرب إلا لقرب التقليد والجهل بالدين ومناسبة الفكرة للحكام الطغاة المستبدين؛ لأن الأصل أنه لا رجال دين في الإسلام ولا كهنوت من أي نوع.

إن بعض المشايخ المحاربين للديمقراطية يفعل ذلك لكونها تقلل مكاسب ومنافع نالها وينالها هو حين تتحول إلى المجتمع، وتنهي هالة رسمها لنفسه بخداع الناس أنه واسطة بين الله والناس. فعقدة كثير من المشايخ حقيقة تنبع من أن الديمقراطية تنسف كثيرًا من الأرباح المالية والوجاهة والمرجعية، ومكانة الوساطة التي يحققها على حساب الناس أو عامة الناس.

والصورة لا تماثل الصورة في العالم الإسلامي بحكم عدم إيمان الإسلام بوجود طبقة لها خصوصية، أو تملك تفسير الدين، أو أنها هي التي تعرف لغة القرآن دون غيرها كما كان في عموم أوروبا. وليس في الإسلام «علماني ودنيوي» كما كان يحدث عندهم؛ فقد كان القسيس الذي يعيش في بيته مع عالم الناس يسمى «عالماني» أي يعيش في العالم، والآخر رجل الدين يسمى «الديني» لأنه يعيش في الدَّيْر متفرغًا للعبادة، وكان القسيس الذي يعيش في عالم الناس -عالم المادة والجسد- أقل روحانية وقداسة ومكانة عندهم من الذي يعيش في الدَّيْر.

ومن هنا جاء المصطلح، ولم يُنقل بالمعنى العلماني -من كلمة «عِلم»- إلا في أواخر القرن التاسع عشر، حين فسر ذلك أحدُ المثقفين بأن ألحق الإيمان بالعلم إلى جانب العالماني في معناه القديم، وكتبه بالطريقة الجديدة المستخدمة في الإنكليزية[190].

أما في المجتمعات الإسلامية فكان العلماء يعيشون في العالم بلا «دَيْرٍ» خاص لهم، ولا قداسة لآرائهم، فمنهم معلمون يتبرعون ببعض وقتهم ليتعلموا ويُعلموا، وهذا هو الأصل، إلى جانب أن كثيرين منهم من ذوي المهن المختلفة. أما معلم الصبيان فصاحب مهنة يأخذ مرتبه من أسر الأطفال، وقد يزيده الغني ويتغاضى هو عن الطالب الفقير أو يخفف عبء أسرته. ومن العلماء تجار وفجار، ومنهم فقراء وأغنياء، فهم ناس من الناس ومع الناس، لا يميَّزون إلا عند الحاجة إليهم.

وقد غلب عليهم في العصور الإسلامية الأولى الانحياز إلى جانب الأمة ضد الحكومة، وشهد تاريخهم انحيازًا واضحًا للمجتمع، فانتقدوا من اقترب من أبواب السلاطين، وسببوا قلقًا مستمرًا

للسلطة وللحكام ورقابة عليها، وكانوا لسان الأمة[191]. كما لم يخل تاريخ علماء الإسلام ممن شذّ وأساء إلى أخلاقيات العلماء.

ولعل من نماذج المثقفين المصلحين في عالمنا المعاصر مارتن لوثر كنغ زعيم حركة الحقوق في أمريكا، فقد كان قسيسًا واعظًا في كنيسته، وتلقى تدريبه ودراسات منهجية كنسية وعملية، وكان نموذج عيسى عليه السلام أمامه في مواجهة عسف البيض باسم الدين أو العنصرية. ولما وقف لقومه رافعًا المظالم عنهم وجد من رجال الكنيسة السود من يعاديه، ووصفوا أعماله بأنها «جهود متطرفة» لأنهم قد استمرؤوا الفصل العنصري، كما واجه الطيبين الباردين من البيض والسود الذين لا يحبون التغيير.

وقد يكون خير من يخدم قضية هو من يتطرف معها أو ضدها، فموقف جماعة «الفهود السود»، وموقف المسلمين السود «أمة الإسلام» جماعة أليجا محمد، ويأسهم ممن صنفوه بأنه «الرجل الأبيض الشيطان»[192]، كما يرون؛ سهّل مهمةَ المثقف مارتن لوثر كنغ وجعله أكثر إقناعًا بأنه معتدل، وهو المطالب بالحقوق على قاعدة قانونية، وخلصه من المواقف السلبية والمتطرفة؛ لأنه فعلًا لم يكن متطرفًا وإن قتله المتطرفون، ولكن قضيته ومطالبه نجحت. وقد احتاج اعتداله إلى أن يكشفه متطرفون يمينًا ويسارًا.

ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن عصر كنغ –الذي جعل الكنيسة منطلقًا لخطابه الحقوقي في ستينيات القرن العشرين الميلادي- كان عصرًا غلبت فيه ضجة الخلاعة والتفسخ، وليس عصرًا على مقاس خطابات ملتزمة بخلق ومبادئ فيما يظهر. وقد تبعت ذلك ثورة 1968 في أوروبا وأمريكا.

وعلى أي حال، فإن حركة الحقوق كانت حركة مثقفين ملتزمين بتقديس حقوق الناس، لكونهم من الناس لا لكونهم سودًا ولا ليبراليين ولا متدينين. وكان للنشاط الليبرالي دور في مناصرة السود، وكذا في المعارك التالية مع الحكومة ضد مآسي فيتنام. وقد كان للأقليات العنصرية والفكرية دورها البارز في إنهاء الحرب، وكان من قادحي نارها في أمريكا المسلم الهندي إقبال أحمد (ولم يكن بعدُ حصل على جنسية البلاد)، فقادهم قبل بروز قيادات محلية آخرين من الأغلبية ومن الأقلية، حيث يجب أن يصحو ضمير المثقف لرفع المظالم ويشق الطريق قبل الجموع، ويتجرد لما يعتقد أنه حق ويتغلب على عجزه وموقعه وجنسه ودينه ولونه[193].

ولقد شُغل بعض المثقفين بالحديث: هل موجة التدين شرقية أم غربية؟ وهل الحركات الإسلامية رد على التطرف الغربي المسيحي أم رد على العلمانية الغربية؟ وهل الدين سبب صراع المجتمعات أو سلمها؟ ولذا فإنه مع الاعتراف بالتبادل والتأثر في المجتمعات بعضها ببعض، فعندما يرى أي إنسان الآخرين يتحركون بحقد ديني فلا تتوقع أنه سينسى دينه، إذ يصبح الدين سلاحه أو أحد أسلحته أو ملجأ له.

وقد رأينا من تجربة القرن العشرين كيف عبث السياسيون دائمًا بمسألة الدين، وكان استخدام الدين سلاحًا من أهم الممارسات العلمانية في العصر الحديث، وكذا مخاصمته والحرب عليه، فالذين يخطبون ضد الدين وباسم العلمانية سرعان ما يجعلون الدين سلاحهم الواري دائمًا. وفي الحرب الباردة استُخدِمت الديانات بتطرف -خاصة الإسلام والمسيحية- ضد روسيا، وتولى الفاتيكان والحزب الجمهوري الأمريكي عبء ذلك، ولذا لا يسع المثقف تجاهل هذا الجانب؛

فالاعتراف بالحضور الديني لدى المثقفين حقيقة مؤثرة لمن يندفع معه أو ضده على شتى الجبهات، وهو عاملُ توتر دائم في حال استخدامه أو استهدافه؛ لأنه يثير ما وراء العقل لدى الملحد فضلًا عن المؤمن.

ما عليك إلا أن تدرك عمق الدين عند العلماني كما عند المؤمن، فالمناهج كانت علمانية مصاغة لمجتمع علماني وطلاب يُفترض أنهم كذلك، ولكن المجتمعات العلمانية عندما تناقش في الإنسانيات فكثيرًا ما تغادر إلى أصولها وهواجسها. وهذا الدهر الطويل من التربية العلمانية لم يخف هذه التحيزات والأصول والتوترات، وكثيرًا ما تتقدم لتكون حادة التأثير.

ولذا فمن المناسب ألّا يتعب المثقف ومتلقو الثقافة في تحسس دين المثقف من مجتمع آخر ليغيروا نظرته؛ لأن كل مثقف ناجح ومؤثر هو من ينبت في أرضه ويرتوي من ثقافته. عليك أن تبني ما تريده، فليس هناك من معيار عالمي للمثقف ولا تجرد من تحيز، فالمثقف غالبًا يأرز إلى منطلق يستند إليه واعيًا به أم لا.

أما القول إن المنطقة الإسلامية لا تعرف إلا ثقافتها العربية الإسلامية أو ثقافة المحتلين والعابرين، وإن المثقف دائمًا له الخيار أن يكون مبشرًا بثقافة الاحتلال والإلحاق أو ثقافة الذات والاستقلال؛ فهذا نكران لطبيعة الثقافة البشرية، فهي تفاعل دائم رغبنا أم لم نرغب، والسعي للنقاء وعدم التعرض للغرق في آراء وأفكار من بيئات أخرى لا يعني بأي حال تجاهل ثقافات العالم، ولا أن يتجاهل مغانم الإنسانية الواسعة.

وفرق كبير بين من يجدد ويستصلح ثقافته، ويوطّن ما يراه نافعًا وقادحًا لعناصر التجديد والإبداع مما يعرفه من ثقافات العالم؛ لأن الثقافة في أي بلد ودين متأثرة بغيرها ومؤثرة فيه، وليس هناك من صفاء تام في أي ثقافة، بل الصفاء التام ليس موردًا للإبداع ولا مجدِّدًا للحياة، فضلًا عن تخيل أن يكون ممكنًا، وما القرآن والسيرة النبوية إلا شاهدان على هذا، فالقرآن فيه حشد من أخبار الأمم، بل إن فيه -كما قال المحققون- كلمات ليست ذات أصل عربي خالص، لكنها أصبحت عربية بوجودها في القرآن والعربية[194].

ولذا فإن بعض الصفاء مظهر انغلاق، ودليل جهل بما في العالم، وعلامة قصور وليس علامة تواصل ولا قوة. علمًا بأن المثقف المتعمق في العربية وفي الشريعة تؤذيه كثرة الغريب من اللفظ ومن الأساليب، ومن أسماء الأشخاص، مما لا يعرفه من بعيد الثقافات، فيتمنى صفاء لا عجمة فيه. ولكن أقول هنا: ليطلب المثقف والقارئ المخلص من المثقف حرصه ورؤيته وإرشاده إلى طريق الحق، ولا يرقب من مثقف تاهت به الدروب كثيرًا صفاءً لا يعيشه، كما لا يليق أن يخرج أمامك ممثلًا أنه صافٍ تمامًا، بل ليكتب وليفكر بما يعتقد أنه حق، وعلى المثاقفة الناضجة أن تأخذ خير ما قيل وتترك ما يعاب.

وكان مما شدّ انتباهي -وأنا أقرأ سِيَرَ المثقفين- تلك العلاقة الحميمة بين مالك بن نبي ومحمود شاكر ويحيى حقي وإحسان عباس، فالمورد الكبير لثقافة مالك هو الثقافة الفرنسية، فهي لغته التي تثقف بها وكتب بها كتبه الأولى، ومع إجادته العربية فإنه لم يكتب بها إلا ما قلّ وفي أواخر عمله، ولم يؤثر هذا على المتعربين جدًّا من حوله، بل رحبوا به منقِذًا ومثقفًا منيرًا، وكتب له شاكر مقدمة كتابه **الظاهرة القرآنية**. وكذا كان مطهري وشريعتي، فالأول خريج الحوزات والثاني خريج ثقافة التغرب وفرنسا واليسار، مع عمق عربي إسلامي في ثقافته، فتعاون الرجلان وأيّد كل منهما الآخر، ولو في بعض القضايا الاستراتيجية.

وأما الحديث عن مثقف عالمي بمعنى مقبول لكل العالم، فلا يوجد هذا النوع إلا في مخيلة من يطلقه، إلا إن قصد أنه مشهور فقط عالميًّا، ولا يشبه هذه الدعاية لثقافة عالمية ومثقف عالمي إلا خطابُ الالتواء والهيمنة الذي يسمي نفسه «المشروعية الدولية»، ذلك اللقب الذي غلب على لغة الاحتلال الأمريكي للمنطقة، فلقّبت به أمريكا نفوذها وهيمنتها حتى تخفي احتلالها العالم وهيمنتها على الأمم المتحدة. وهو خطاب يغلف أو يخفي الضعفاءُ ذلهم وتبعيتهم تحته، فإذا أسلموا قراراتهم وشعوبهم وثرواتهم ومستقبلهم إلى المستعمر قالوا «المشروعية الدولية».

المحفزات للوعي وللعمل تضرب جذورها عند دوافع إما «روحانية سماوية» -وكثيرًا ما تحدث- أو محفزات «مادية أرضية»، ومنها الثقافية العصبوية والعرقية والوطنية والمادية. وهذه الدوافع تجعل الإنسان على سكة العمل والمشاركة وتساعد في توجيه المجتمع إلى غاية، وهذا ما لاحظه عبد الله العروي حين قال إنه لا تأصيل إلا بواسطة أحد مفهومين: مفهوم الوحي (نداء من فوق)، أو مفهوم التجربة التاريخية (نداء من تحت)، وهنا نكون بإزاء توجيه الروح والإيمان إلى المعرفة والسلوك، أو توجيه الحماسة المادية أو ما سماه التاريخية، فهو بين استنطاقين: «إما الكلام والفلسفة، وإما التاريخانية، تأويل الأقوال أيًّا كانت أو استنطاق الأفعال أيا كانت»[195].

وهذا عنصر أساسي في تفسير حركة التاريخ في العالم منذ ابن خلدون إلى هيجل وماركس وماكس فيبر وأرنولد توينبي. وقد تقاسم هؤلاء تفسير حركة التاريخ بين المادة والروح، وإن مثّل ابن خلدون اعتدالًا بين الطرفين فإن ماركس تطرف، ولكن الثلاثة الآخرين هيجل وفيبر وتوينبي أعطوا للروح أثرًا كما أعطوه للمادة، وربما قدموا الروح أحيانًا.

وليس هذا مكان الحديث عن الحوافز إلا بمقدار أثرها على المثقف، ومحفزاته لمواقف منصفة أو جائرة، فعّالة أو سلبية، ودوره في إثارة القول وتفسير الموقف وتوجيه العمل؛ لأنه لا يُتوقع من الفراغ حركة، ولهذا السبب كان الفكر والتصور لنمط الحياة وشكلها وتفسير مسيرتها أساسًا لفاعلية المثقفين، ولتجييش المجتمعات للأهداف التي تثيرها وتوعّي بها نخبة المثقفين، سواء كانت نافعة أو ضارة، ولأن نسبة من الإيمان الأقرب إلى الإيمان المسيحي المغلق –وليس الإسلامي- تحرك الأفراد لأعمال اندفاعية غير مقدَّرة ولا محسوبة كثيرًا بعقلانية.

الفرق بين المثقف وعالم الدين

عرَف المجتمع الإسلامي قديمًا -وكذلك الصيني- طبقة المثقفين من علماء الدين، ومن رجال الدولة والأدباء، حيث لم تكن المعرفة حكرًا على تخصص محدد، بينما نجد في أوروبا العصور الوسطى أن الثقافة والمعرفة كادت تكون في الدين وفي الكنيسة، ولم تخرج من قبضة الكنيسة إلا في العصور الحديثة.

لقد كان أهل المعرفة والفهم من علماء الدين، حيث كانوا هم فقط من يُسمى بالعلماء، أي علماء الدين[196]. وبعضهم يرى عكس ذلك، أي إن المثقفين هم رواد الخروج على سلطة علماء الدين، وأن المثقف ظاهرة حديثة لا علاقة لها بما كان في العصور القديمة، وأن هذه الطائفة هي المجموعة التي أنتجت عصر التنوير وعاشته ونفذته قبيل الثورة الفرنسية، وأنها طبقة تتسم بالتمرد على المؤسسات السياسية والدينية، وهذا التصنيف هو الهاجس المستمر لدى الغربيين حينما يتحدثون عن المثقف.

ومنهم من يُصرّ على أن وصف «المثقف» يقتصر على المتعلم المضاد لمؤسسة الدولة وللمؤسسة الدينية. وهذا مفهوم في غالبه ملتزم بالمركزية الأوروبية في التعريف والتصنيف، «فإن الثقافات -حتى في عوالم السياسة والدين المتنازع عليها بحدة- كائنات متداخلةً لا يمكن تفكيكها إلا ببترها وتشويهها»[197].

والمثقف بلا شك قد سحب التأثير من القسيس ومن رجل الدين عمومًا بدرجات مختلفة، وكان ذلك بشكل حاسم ومتطرف في فرنسا[198]، وكذا حدث أيضًا في ثورة روسيا. ثم بسحب التالي كثيرًا من التأثير من «الشيخ» في العالم الإسلامي، والشيوخ -وكذا القساوسة- مهما أبدوا من مقاومة فإن دورهم ينحسر، ويأتي بجوارهم المثقفون المتدينون بدلًا منهم، ثم الثقافة والتيار المحافظ عمومًا، والشيخ الذي يبحث عن بقاء دوره يجد نفسه يتجه إلى دور المثقف حتى يُقبل ويؤثر.

ولعل من الصعب أن يُقطع بقول فصل في مستقبل المواجهة بين الشيخ والمثقف؛ لأن الخطوط ليست حاسمة في المجتمع الإسلامي بحكم طبيعة الإسلام نفسه، الذي لم تُبن فيه حواجز قاطعة بين الطرفين قديمًا ولا حديثًا. ولعل في قصة المثقفين -ممن ظهر أنهم أقرب إلى المثقف الغربي في العصر الليبرالي- ما يدل على صعوبة هذه القطيعة في المجتمع الإسلامي. فمثلًا نجد أن ألبرت حوراني لما كتب دراسته المبكرة **الفكر العربي في العصر الليبرالي** (تُرجمت إلى العربية بعنوان **الفكر العربي في عصر النهضة**[199]) لم تكن هناك قطيعة بين المثقفين كما حصل لاحقًا.

ونجد أن العقاد وطه حسين ورشيد رضا وزكي مبارك كتبوا في التراث الإسلامي، بل صار كل منهم كاتبًا إسلاميًّا مقارنة بالمتطرفين لاحقًا يمينًا ويسارًا، حيث جرى تضييق الأفق الإسلامي بحيث أصبح لا يقبل أو لا يتسع لغير أهله، وابتعد غير الإسلاميين وانحازوا إلى معاداة الدين فضلًا عن معاداة الإسلاميين. فقد كان من الطبيعي -قبل هذه المفاصلة- أن ينقطع الكاتب ثم يتصل مرة أخرى، وأن يترجِم ويمجّد علمانيين ويكتب نصوصًا علمانية، ثم يؤصِّل للثقافة الإسلامية ويدافع ويكتب عن الإسلام.

والمثقف المسلم الذي أثر كثيرًا في العقل المسلم الحديث نشأت ثقافته السياسية وتأثيره من خارج المؤسسة الدينية الرسمية، وأحيانًا ضدها، يستوي في ذلك من أراد تحريكها وإصلاحها أو تحريرها، فضلًا عمن يريد هدمها أو الخلاص منها. فقد جاء التحديث من خارج هذه المؤسسات، وكان كل من الأفغاني ومحمد عبده ممن تربوا في مدارس دينية، غير أنهم كانوا نتاجًا للتأثير السياسي والثقافي القادم من خارجها.

وكان عبده في مركز المثقف العربي المتدين الأول في العصر الحديث -إن كان متدينًا وقد طرده الشيخ عِلِّيش من الأزهر- وتلاميذه هم المثقفون والسياسيون، والأفغاني لم يكن يُعدّ محسوبًا على المؤسسة الشرعية التقليدية، فقد كان مشغولًا بالتحرر السياسي والإصلاح والتأثير بأي طريقة فعّالة، ولم يكن يهتم بمن يسمع له، فكان في إيران يبحث عن «الملالي» وطلاب الدراسات الدينية لينشر آراءه بينهم؛ لأنهم أكثر تأثيرًا في المجتمع، أما في المجتمع السني فقد كان يبحث عن الشباب المتطلع للتحرر من الاستعمار، والأدباء وعموم المتعلمين، ولا يهتم بمشايخ السنة بسبب ضعف مكانتهم الاجتماعية مقارنة بغيرهم من التيارات الأخرى في زمانه كالشيعة[200].

وإذا كان الأفغاني بحذقه قد أدرك الفرق بين مجتمعيْن مسلمين، فإن كثيرًا من المثقفين والأحزاب التي أرادت النهوض بالعالم الإسلامي والعربي تبنت عُقدة إرث المثقف الأوروبي المتطرف خاصة، فهو في الغرب واجه الدين وحطمه جهده، وبعد تحطيم حواجز الدين والاستبداد هناك، استطاع أن يشق طريقًا جديدًا لنفسه، وكان شر الشعوب الغربية مسلطًا عليها من داخلها.

أما المثقف في بلاد المسلمين فقد قلد المثقف الأوروبي، فواجه الدين أو ما رأى فيه شَبَهًا بالكنيسة أو تصرفاتها، واستطاع أن يهدم كثيرًا من القلاع، وحطم حواجز الدين، وانهار السد الحاجب ضد الغرب فغرقت الشعوب وكل ما فيها في طمي سيل المستعمِر، وغلبها واستبد بها فكان أحيانًا هدّامًا، وحرف ما يستطيع من مكونات الأمة ليصنع حياة عبودية وتبعية.

وينقل شريعتي عن محمد عبده قوله: «أولئك نبذوا الدين فنالوا الحرية والسيادة والسيطرة على العالم، ونحن نبذناه فمُنينا بالذلة والانقسام والتفرقة والانحطاط، والاستعداد لقبول كل ما يُملى علينا ونُجبر عليه أو يُلقى أمامنا»[201].

فقام المسلمون يدافعون عن أرضهم ودينهم، فوجدوا الغالب أو المسيحي الغربي قد اصطنع خدَمه من أبناء البلاد ممن اتخذوا العداوة للدين منهجًا. وانقسموا أقسامًا عديدة، فمن مدافع للاستعمار بنظرية غربية أخرى كالقومية والشيوعية، ومن مناصر للغرب تحت شعار مناصبة الرجعية العداء، فقام المواطنون يحتجون باسم الدين، والمتغربون يحتجون باسم التغرب، فسبب الطرفان هزيمة لأنفسهم أجمعوا عليها، وذهبت ريحهم وقوتهم بينهم، وسعد بشقائهم وصراعهم عدوهم. ولم يزل الغزاة يشعلون نار الخلاف، ولا يكاد يهتدي لضياع الحجة وخلاف المجتمعات وتجاربها إلا ندرة خافتة الصوت.

ولعل التجربة الإيرانية تلخّص موقف المثقفين من الغزو والتبعية، فقد استطاعت الأطراف المختلفة أن تتجمع ضد الغزو الغربي ووكيله الشاه رضا بهلوي الذي يمثل الوجه المحلي للمحتل. واجتمع القوميون والوطنيون والشيوعيون والإسلاميون التقدميون والمحافظون على أن يخلعوا الاحتلال وممثله عن بلدهم، ثم اختلفوا على هويتهم ونظامهم منذ ذلك اليوم وإلى غد. وكما حسم «الملالي» الموقف لأنفسهم فقد يحسم خصومُهم الموقفَ لهم غدًا، ولكن البلدان الخاضعة والخائفة تبقى خطوة استعادة الذات فيها من أصعب تحدياتها ومعاركها في داخلها قبل مواجهتها مع الخارج.

أوفياء للأفكار خونة للإنسان

يعيش كثير من المجتمعات برؤية بعض الناس الذين يرون الوفاء للأفكار ولكنهم يخونون الإنسان. ولا يبدو أن هناك فرقًا بين المتزمت العلماني والمتزمت الديني في هذا؛ فكلاهما يقدم الأفكار على الإنسان، ويقدس المذاهب والأيديولوجيات ويدنس الإنسان المتعامل معها. وفي سبيل تقديس المثقف نفسه وقراراته يقدس مروجيها ويبالغ في دور أصحابها ومنظميها ومرتبيها، وهو بهذا يبني لنفسه ولرأيه -أو لرأي من ينقل عنهم- العصمةَ والصواب الدائم، وكذا يؤكد صواب المفسرين الذين فسروا له النصوص الشرعية والأفكار أو الآراء العلمانية.

ربما كان هذا صدى لتعلق ذوي الأفكار بمكانة أفكارهم؛ فالأفكار عندهم هي الحقيقة والأشخاص عارضون، وما الأشخاص إلا مظاهر تتجلى فيها الأفكار والمواقف، فالمهم الأفكار وليس الأشخاص لأنهم مجرد حمَلة لأفكار حسنة وأخرى سيئة، أو لأن تلك الأفكار أصبحت ذواتًا

أو أجزاء منها، ويوم يشقى الإنسان فإنه لا يهمهم لأنه عرض زائل استولت عليه فكرة منحرفة. هذا التفسير ربما يصعب على مثقف أو مفكر قبوله في الوهلة الأولى، ولكنه لو تأمل عاقبة تقديس الأفكار، والتعلق بالمذهبيات وإغفال كرامة الإنسان؛ لوجد أن منتهى التزمت الفكري هو تدمير الإنسان، الذي يرى المؤمن المسلم أنه مكرم «ولقد كرمنا بني آدم» (سورة الإسراء)، ويرى العلماني أن كل جهوده لإنقاذه، ولكنه في الواقع يسحقه ليعبّده لفكرته، وكذا يفعل المتزمت دينيًّا.

وأسوأ من التزمت الفكري التزمتُ للأشخاص، فهو يجعل من الشخص العارض فكرة ثم يتزمت لها، ومن هنا كان التعلق المبالغ فيه بالأشخاص هو أدنى مظاهر التفكير وأقلها احترامًا عبر العصور. ولأن الشخص الذي يُعلُون من شأنه لا يكون فكرة بل يكون فوق الفكرة وفوق المذهب، ومن هنا كان العود المستمر لتعريف القدوة وحدود الاقتداء ضروريًّا، ومن أجل هذا نجد التحذير من تقديس الرسول صلى الله عليه وسلم ورفعه فوق مكانته.

ولذا فقد منع هو نفسه المسلمين من إطرائه فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم»، وأسّس لوضع حد صريح وواضح للتفريق بين النبوة والشخص، أو بين الرسالة والرسول، وكانت بحوث علماء الإسلام القديمة في التفريق بين مهمته حاملًا للرسالة، وفطرته البشرية أو الأعمال الفطرية (العادية) التي يُقدِم عليه كإنسان «يأكل الطعام ويمشي في الأسواق»، بحيث لا يخلط المقتدي ولا يلبس الأمر عليه بين إنسان بلغ من التعلق بفكرة الحق أعلاه، ولكنه بقي في حياته البشرية إنسانًا.

هنا يقتل الإنسان في سبيل انتصار المذهبية التي يؤمن بها، وأعني بالقتل هنا قتلًا مفهوميًّا للفهم المضاد، وقتلًا لعقل الفرد في مقابل انتصار المذهب الفكري، وقتل الحس التجريبي الإنساني في المجتمع، فمثلًا لا يرى المصائب التي يجنيها انتصاره للفكرة على حساب مصالح حياة الناس اليومية.

فمثلًا منْع المتدينين من الصلاة في الكنائس والمساجد من قبل الشيوعيين جريمة في حق حاجات روحية للبشر. ومثلها منع الحاجات المادية للناس خمس مرات يوميًّا من أجل أن يصلي آخرون، والتمادي أحيانًا في ذلك. وهناك فتوى لأحد المشايخ لم تُنفّذ -ولله الحمد- طالبت حكومة بلده بمنع تحرك السيارات بعد الأذان، فهذه الفتوى هي تمامًا ما حذر الإسلام منه مما رسخ عند النصارى، «ورهبانيةً ابتدعُوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاءَ رضوانِ اللهِ فما رعوْها حقَّ رعايتها» (سورة الحديد، 27). ولعل المثال الشنيع الأكثر قسوة على المجتمع هو محاولات منع السكان العلمانيين من استخدام الآلات بعد مغرب الجمعة وخلال يوم السبت عند اليهود، ومطالب هذه المجموعات الوفية للنصوص وللأخبار لا تنتهي، ومشقتهم على أنفسهم وعلى الناس مستمرة، لذا كان من الواجب حصر كل عمل يوقف مصالح الناس في أقل حدٍّ ممكن، بحيث لا تطغى على ضروراتِ الناسِ مستحباتُ الديانات، ولا تدينُ المتطرفين ولا الرغباتُ العلمانية؛ لأن سياسة المجتمعات وفق رغبات جماعات الضغط يُشقي المجتمع ويزرع فيه النفاق.

أما الضرر السلوكي وغياب الوعي عند مقدسي الأفكار فيتمثل في أنهم لا يُبقون للإنسان وإنسانيته وتجربته ونتائج ممارسته مكانًا، بينما قيمة الأفكار ليست في صحتها كما نراها ولكن أيضًا في صحة تطبيقها، وامتحان ملاءمتها، وتهذيب عنفوانها، فالإنسان في لحظات علوّه وتطلعه الروحي والسلوكي ضد الإنسان في حال هبوطه وضعفه، ونتحدث عن الفرد نفسه، فأي مأساة وطمس لإنسانية الإنسان عندما يعمم هو على غيره علوّه الروحاني أو هبوطه الحيواني؟ وكلتا

الحالتين في الحقيقة رغبتان بشريتان واقعتان غالبتان على فريق من الناس، وغائبة عند آخرين أو ضعيفة، ومن هنا كان لا بد أن نترك للفرد مجاله للعلو الروحاني بحيث نعطيه أكبر قدر من الحرية الروحانية والسلوكية عندما لا يضرنا، ونترك للهبوط المادي مجاله وخصوصيته قبل أن يصل مرحلة ضرر مكشوفة لنفسه ولمجتمعه.

إن الأفكار قد تصنع إبادة للسلوك الإنساني عندما لا تخضع لتجارب عقلانية، ولأن الأفكار مهما كانت يُفسدها الإنسان بتفسيره وطريقة تعامله معها، وبتغير زمانها، كما يفسد الآلات المادية بيده، ويمكنه أن يصلح أفكاره دائمًا وممارساته عندما يقلل من تقديس الفكرة، ويحسن التعامل مع النموذج الغائب والحاضر.

إن النصوص المقدسة والقناعات العقلية للناس أسلحة جبارة، ومكاسب راقية للبشر، وكثيرًا ما يُقصّر الإنسان في فهم تعامله مع العقل ومع النص، ويتهاون بأهمية طرق فهمه وممارسته لهما، ما بين تنفيذ ساذج بلا وعي، أو تمحل في فرض الوعي الذاتي على العام، ولأنه يرى أن أعلى ما يملكه وهو العقل والفكر فيصعب عليه جدًّا النزول من سماء الأفكار التي استسلم لها ليعيش مع مصالح البشر وحياتهم.

وكلما عاش المتزمت -علمانيًّا كان أو متدينًا- منعزلًا فإن عزلته وانحيازه يفقدانه الحس الإنساني، ويغرق في جهل وبعد شديد عن الوعي بما حوله، ويتطرّف في رؤيته لنفسه ورأيه في المختلفين معه. ومن وسائل حل مشكلة هؤلاء العلاج بالصدمة، ومنها صدمات القرب من المختلفين معهم، وصدمهم بثقافة الجانب الآخر المنبوذة في رأسه، فهو يعيش قداسة منغلقة واحتقارًا غير مبرر ولا مفسر ولا مقنع للعالم خارج دائرته، ولكنه في الوقت ذاته بمقدار ما يحقره خصمه يقدس نفسه وفكره وثقافته، وهي فوق النقد والتساؤل، وفوق الشك والوهم؛ فهي الحقيقة التي لا تصل إليها عقول خصومه، وكذا هم يرونه ويسخرون منه.

ولهذا فإن هذه الظاهرة الموجعة والأكثر انتشارًا وفسادًا وهدمًا للمجتمعات كثيرًا ما تجد في المجتمعات الخاضعة للاستبداد مباءة لسلوكها المنكر للمخالف، وفيه تعيش وثوقية عالية القدر بما عندها، وهي حاسمة ويمكنها أن تأخذ الأمر إلى منتهاه في الاتجاهين ومن قبل الجماعتين (العلمانيين والمتدينين)، وقد تمارس أبشع الجرائم التي لا يمكن إقرارها حتى في شرائعها هي نفسها، ولكنها تجد من الظلام والجهل عاصمًا ومنارًا لما تريده وما تحب ممارسته. ولهذا نرى أن الإنسان وقيمه وثقافته وتوازن العقل وتحقق المصالح العامة ضعيفة الحضور، وبعيدة الوجود والتقدير في هذه المجتمعات التي تتنازع فيها أو تحكمها التطرفات الفكرية الوثوقية باسم العلمانية أو الدين، وكلاهما يمكن أن يقدِّم مجتمعًا متزنًا ومتصالحًا مع نفسه ومع الآخرين، ويمكنهما أن يقدما مجتمعًا سويًّا ونموذجيًّا للمجتمع البشري المتصالح مع فطرة الإنسان، ونحن نرى أن من الدوافع وراء وجود التزمت الديني والعلماني دافع الرغبة في تحقيق عيش كريم للإنسان، ولكنهما أقدر على نفي هذه المنفعة -في حال تطبيق تزمتهما- من أي مجتمع بدائي، وتجد هنا أن المجتمع البدائي جدًّا -بلا ثقافة عليا موهومة دينية أو علمانية- يمكنه أن يتعايش بمودة ومصالحة أكثر من مجتمع الأفكار القاتلة[202].

التهمة التي ركبت العلمانيين بأنهم هم الأكثر وحشية وامتهانًا للإنسان تهمة سيطرت على اليمين الغربي، وعنده شواهد كالجبال عليها، ويكتفي بنموذج العلمانيين الشيوعيين والقوميين من أمثال

ستالين وهتلر وموسوليني وماو، وكأنه يبرئ اليمين أو المتدينين من هذه المشكلة، كما يُفهم من معالجات كاتب يميني من أمثال بول جونسون[203].

هل هناك ثقافة إنسانية؟

هناك من يرى أنه يوجد المثقف الكوني الساعي لخير الإنسانية جميعًا، ويرى في فلاسفة الغرب الكبار -خاصة في عهد غوته- مرشدين للإنسانية أو مثقفين كوْنيين[204]. ورغم أن هناك رغبة في كل من يسعى للخير البشري، فإن هذا المنظور رغم مثاليته يصعب تحقيقه بالسهولة التي رآها المنظرون له، كما أنه ليس من مصلحة البشرية نفي هذه الفكرة، فإن التسليم بها صعب، والتهرب منها غير واقعي، لكن المواءمة والاتزان ورعاية مقاصد الحياة المعتدلة هي الفيصل في هذا، لما للإنسان من تحيزات يفهمها أحيانًا وقد لا يفهمها، وعمومًا يصعب عليه التخلي عنها.

الحديث عن قيم إنسانية وأخلاق في هذا العالم حديث صحيح وفطري، ولكن هناك خدعة يتخيلها العابرون لبعض الثقافات ممن توفر لهم أن يعيشوا في ثقافة أخرى، أو على هامش ثقافة أو مجتمع آخر، وأوحي إليهم أنهم بمواقعهم تلك سوف يكونون جزءًا من شيء يسمونه ثقافة إنسانية، أو ثقافة عالمية، ويسمعون عن العولمة وضجتها فيتخيلون أن هناك شيئًا ما سيؤول إليه العالم ذات يوم هو عالم الإنسان، وثقافة الإنسان الكوني الواحد، ويوم يرى الأجهزة التقنية الحديثة بأيدي البشر عبر القارات يقع في هذا الوهم.

وهذا وهم لم يتحقق يومًا من الأيام في مجتمع واحد، بل ستكون هذه العولمة نفسها مما يصنع الخصوصيات الثقافية، ويصنع العصبيات والأوهام القومية المتعصبة والتعصب الديني؛ لأن الثقافة تساهم دائمًا وبدور عظيم في عملية الجمع والتفريق بين الناس.

والتمييز بين النفس والآخرين من أقوى ما يميل إليه الناس من أقدم وأصغر وحدة اجتماعية إلى أحدث مدنية معاصرة، في زمن صناعة الجماعات الافتراضية، والوسائل الجديدة نفسها تعمل على تقسيم الناس مستقبلا كما قسمتهم الأديان واللغات والجغرافيا والأشكال والأنساب إلى وحدات واهتمامات أحدث، وستحمل الهويات الجديدة ثقافات جديدة، وسيبقى التقسيم أخلد في الأرض من أوهام العابرين.

فالثقافة تصنع الإنسان أكثر مما يوّرثه أبواه، وتتقدم تحيزاته الثقافية على تحيزاته العرقية، بل يبذل فيها روحه وكل ما يملك. ونحن نثق ببقاء ثقافتنا العربية الإسلامية في الأراضي العربية وربما تمتد لأسباب عديدة، وإلا فالخبرة التاريخية للإنسان تقول كثيرًا بالتحولات الكبيرة. ومنذ نحو ثلاثة قرون كنا شارفنا على الغروب عن العالم كثقافة، وساد الجهل والأمية، حتى كانت جموع من المستشرقين يتعاملون مع اللغة العربية وآدابها على أنها لغة ميتة، وأهلها غير موجودين فعلًا على هذا الكوكب، إلى أن جاء الإحياءُ العظيم للدين واللغة الذي نعيش اليوم مع كثير من ثماره.

ومشكلة وهم هذه الثقافة الإنسانية أنها مغرية وبسيطة في ظاهرها، ولكنها في الحقيقة لا تكون إلا غلافًا خادعًا عن محتواها، حيث يجد الإنسان نفسه تابعًا لثقافة غالبة وأمة غالبة أو دولة أو حزب صنيعة لأحد الأقوياء، ومن هنا جاءت مسؤولية المثقف أن يبني الثقافة التي تنفع هذا الإنسان المتحيز، وتهذب تحيزه وتنير طريقه لا لتخدعه بوهم «عالمي» وثقافة «عالمية». ونحن الذين

شهدنا صرخة تعالي الكلام عن العولمة نحصد مرارة فكرها واستعبادها ووحشيتها في العالم اقتصاديًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، بل حملت أثقال الحمائية الاقتصادية والثقافية، والعداء للآخرين الذي لا يقبلون بمفهوم قسري للعولمة.

السياق الديني والثقافي لمجتمع المثقف يمثلان السلطة الضخمة في وجه من يفكر في خلافها، وكما يطلب طرف من الآخر أن يتخلى عن موقفه العقائدي؛ فإن من السهل مطالبة الناس برؤية ما تراه حقًّا، ولكن أصعب الأمور أن ترى الخطأ والباطل في سياقك الثقافي، ويزداد صعوبة عندما توالي السلطة موقفًا ضد آخر، فكأنك تطلب من مثقف شيعي أن يرى الحق في السلفية وهو تحت السلطة الشيعية الدينية، أو بالعكس تطالب سلفيًّا أن يرى حقًّا في سلطة شيعية إمامية وهو تحت سلطة سلفية، فتجتمع عليه سلطتان روحية وزمنية، وهنا يصعب عليه الانتقال مهما رأى من حق. فما تعوّد أن يصفه بالحق أو بالباطل -إضافة إلى رغبة السلطة وإقرارها- سيكون انسياقًا مع الموجود والمعتاد أو هو المعقول والمقبول، ولكن الجرأة على مخالفة السياق وعلى بيان محاسن المخالف تعدّها المجتمعات المغلقة جريمة العصر، فالمطلوب من المثقف هنا هو عدم التساؤل أو نقاش المدارس.

ونشير هنا إلى علاقة التدين من عدمه بتحقيق دور المثقف، فلا نشترط هنا فئة متدين ولا غير متدين، وقد وجدنا عبر العالم رجال دين وملحدين يقومون بدور المحتسبين والمصلحين النافعين لمجتمعاتهم والمناصرين لقضايا الحقوق، يأتون من مدرسة دينية أو من حزب شيوعي؛ لأن صدقهم في علاج قضية لا يُشترط فيه قناعة دينية محددة. وقد كانت المؤسسة المسيحية -الفاتيكان تحديدًا- حتى في العصور الأخيرة كالزمن النازي غاضة الطرف عن فظائع هتلر، أما الشيوعيون فارتكبوا -كالمتعصبين المسيحيين في عصور الظلام- أفظع الجرائم في حقوق الإنسان.

ومن يراقب مسيرة التاريخ الإسلامي يعجب لغياب المشاهد الإرهابية منه مقارنة بغيره من الديانات والثقافات الأخرى، ومقارنة بعصور الظلام في تاريخهم أو عصرهم الحديث، بما فيها أعمالهم في العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان والجزائر من قبل، أليست الثقافة العربية الإسلامية أبعد عن النزعات الإرهابية منهم وبدون نسبة؟ لكن كون شعوبنا تحاول التحرر من إرهابهم الممنهج والرسمي المقنن بقوانينهم، أصبح كل موقف أو حركة تحرر أو خطأ في محاولة الخروج من قيودهم عملًا إرهابيًّا.

وعندما نذكر إشارة إلى فظائع تاريخهم معنا ومع العالم، فهذا لا يعني أن نقبل بصفاء تاريخنا من الجرائم المرتكبة ضد المختلفين معهم، في داخل بلدانهم أو خارجها. غير أن الصورة النمطية التي صنعوها لنا كذبًا ليست بهذا السوء، ودليل ذلك الواقع المشهود، فقد قتلوا وأجلوا المسلمين من بلدانهم التي كانوا مواطنيها قرونًا متطاولة كالأندلس وبلدان البلقان وجنوب فرنسا والفلبين، بينما حافظ المجتمع الإسلامي على مكانة ومصالح مجاميع بشرية هائلة دون أن يمس مكوناتها الثقافية والدينية بأي تغيير قسري.

ونحن نجد أن أول تحالف مسجل في تاريخنا على القيام بالمعروف والنهي عن المنكر -بمعناه الخلقي الاجتماعي- بدأ في مكة قبل الإسلام في بيت عبد الله بن جدعان ويسمى «حلف الفضول». وكان هذا دور الشباب الواعي المنصف من أهل مكة، الذين شعروا بأنه يجب أن يكون لهم دور في مواجهة المظالم أيًّا كان مصدرها. ثم تصاعدت النزعة الأخلاقية بعد مجيء الإسلام ونزول الوحي، وهناك دعوة لأهمية إحياء ذلك الحلف في الإسلام كما جاء في الحديث: «ولو دُعيتُ إلى

مثله في الإسلام لأجبت»[205]. وإن كنا نأمل أن يكون للثقافة الإسلامية -التي غلبت عليها وعلى تاريخها الحرية والنمو خارج المؤسسات السلطوية- اليومَ دورٌ أكبر عالميًّا في قضايا العدالة والحقوق.

وقد كان للمنظمات الأخلاقية والحقوقية الغربية أثر مشهود ومؤثر في العالم الحديث، وكوّنوا رقابة أخلاقية وقانونية أزعجت كثيرًا من المفسدين والمستبدين، ورفعت كثيرًا من الظلم عن المظلومين، وعرّفت بالقضايا الأخلاقية والفكرية التي نكب عنها أهلها بسبب قلتهم أو ضعفهم، وكانت مرآة للعالم ليرى وجهه الحقيقي ويرى تجاوزاته، ولم تزل في بداية الطريق لتخفيف فظائع الإنسان المعاصر.

ظاهرة المثقفين اليهود في أمريكا

كان وجود المثقفين اليهود في المجتمعات الغربية مثار شك وعدم ثقة؛ بسبب نزعة النقاء المسيحي في الغرب، وتعصب اليهود وانغلاقهم[206]، والميراث الديني الصارم، ثم النزعات العرقية والقومية عندهم وعند خصومهم، وبعدها الموجة الدينية المعاصرة التي صنعت الموقف المعاصر لليهود في الغرب. وكان من أهم من وقف في وجوههم اليمين المحافظ لأسباب دينية، حيث يرى المحافظون المسيحيون أن من كان مثقفًا فهو مستهتر بالمسيحية، فكيف به إن كان من دين أو عرق آخر غير العرق السائد، أو كان بوهيميًّا أو محتجًّا على الأخلاق والسياسة إلى حد كبير.

وكذا ربط مؤرخو الثقافة والمثقف تاريخه وتأثيره بثورة 1848م في أوروبا عمومًا وألمانيا تحديدًا، وبتحرير الأقنان في روسيا، وتحرير العبيد في أمريكا. ولكن الذي أشعل النار ضد المثقف في الغرب هو المفهوم العام عن صلة المثقف -غير المتدين غالبًا- باليهود، أو أن المثقف في انطباعهم يهودي أو يدافع عن اليهود، كما في قضية اليهودي ألفريد دريفوس بفرنسا ووصولها بطرق متعددة إلى قضايا أبعد[207].

أحد مؤرخي الثقافة في أمريكا في النصف الأول من القرن العشرين يرى أن لثقافة اليسار الأمريكي آنذاك طعم الأقليات[208]. وهو هنا يشير إلى نفوذ الأقليات المهاجرة حديثًا، وأحيانًا يتجنب بعض مؤرخي الثقافة ذكر الأقلية المقصودة بالتحديد. وقد ساد انطباع عن مدينة نيويورك -ربما كان الانطباع مبالغًا فيه- عن نفوذ المثقفين اليهود الماركسيين المهاجرين وراديكاليتهم ودورهم، وأن لا أحد يقدر على تحدي نفوذهم آنذاك. أما بحسب قول جاكوبي فإن راديكاليتهم كانت مهزوزة، وإنجازهم لم يكن قليلًا فحسب، بل أقل من المفترض، ومع ذلك فإنه يقرّ بأن أي دراسة للمفكرين في منتصف القرن لا بد من أن تقدّر دور نيويورك واليهود[209].

أما هم فقد بالغوا في دور أنفسهم وفي نفوذهم وتسيّد أفكارهم للطابع الثقافي العام. ولعل أهمّ من درس ظاهرة المثقفين في أمريكا ومشكلاتهم في منتصف القرن العشرين: تشارلز هوفشتاتر. وكان يهوديًّا ماركسيًّا (1916 - 1970) درس التاريخ والفلسفة، وذاق التحولات في الشيوعية الأمريكية وآلامها في الخمسينيات ومواجهة المكارثية لها، وشكّك -بكل شجاعة- في الأفكار التي كان يراها اليهود تقدمية آنذاك. وقد صدر كتابه المهم في غمرة التحولات الكبرى لليسار اليهودي

الأمريكي «النيويوركي» تحديدًا، وانتقال شخصيات كثيرة من اليسار إلى اليمين، وبعضهم تطرف في يمينيته أو تظاهر بها لاحقًا بحجة مطاردة الشيوعيين ثم مطاردة القوميين واليسار في أمريكا وأوروبا، وبلغ نفوذهم حتى الحرب على اليسار العربي والقومي ثم على الإسلاميين، وهؤلاء اليهود المرتدون عن اليسار جمع كبير دار حول شخصيات من أمثال بول وولفوتز وبدهاوزر وآل كريستول (الأب والابن)، ومن ثم بقية القائمة.

وممن مثلوا خط المحافظين الذين شنّعوا على اليهود في أمريكا الكاتبُ المحافظ ومرشح الرئاسة باتريك بيوكانن، وكان كاتب خطب الرئيس في البيت الأبيض، ومستشارًا لثلاثة رؤساء هم: ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد ورونالد ريغان، وعمل بعدها مقدمًا لبرنامج «كروس فاير» على قناة «سي أن أن»، كتب فصلًا في كتابه **موت الغرب** مشنّعًا على أساتذة من حلقة فرانكفورت الذين هاجروا إلى أمريكا، وأهمهم أربعة من اليهود، فتحدث عن تأثيرهم السلبي ونشرهم أفكار اليسار في أمريكا، من أمثال ثيودور أدورنو وإريك فروم وهربرت ماركوز وهوركهايمر.

وكما يقول بيوكانن: فقد نقلوا المدرسة إلى نيويورك و«أعادوا توجيه مواهبهم وطاقاتهم لإضعاف ثقافة البلد التي منحتهم ملجأ»[210]. واتهمهم بتهم كثيرة مما يراه من منطلق محافظته المسيحية ويهوديتهم أو ماركسيتهم؛ لأنهم انتقدوا -بطريقة مدمرة- كل أسس الثقافة الغربية بما فيها المسيحية والرأسمالية والسلطة، والعائلة والأبوية والتراتبية، والأخلاق والعادات وكبح الجنس، والإخلاص والوطنية والقومية والمحافظة[211].

ولن تغيب عنا النزعة الدينية والمثالية القيمية والإنسانية التي تؤثر في الشباب في مقتبل أعمارهم، فلديهم فِطرٌ تنزع إلى الخير وتريد تغيير العالم وفق مثالياتها، وتتعلق بثقافة المُثل العُليا وبرامجها وأحزابها أو ما تراه مُثلًا عُليا، ثم تصطدم مع الزمن بواقع قصور أفكارها وأخطاء تلك الأفكار، وتصطدم بالواقع المر الصلب والمتمرس على نفي المثاليات وتهميش المبادئ، وقسر المخالف و«دَرْم» الحادّ من الأفكار والسلوك، وتنعيم زواياه الحادة ليقبل معايشة ما لا يؤمن به، أو ما هو أقل مما طلب. وقد كان شائعًا في الغرب -في بدايات القرن العشرين- أن «من لم ينتم إلى الشيوعية في عشرينيات عمره فلا قلب له، ومن بقي فيها في الأربعينيات فلا عقل له». وإن كان المثل مرتبطًا بظرف وفكر آنذاك، فإن لهذا جوانب إنسانية فطرية أرسخ في الإنسان من مجرد العلاقة بأحزاب وأفكار.

ومع هذا فإن لتلك المثاليات -التي شاعت بعد منتصف القرن العشرين- مساهمتها في التخفيف من عيوب أو عنصريات أو ثقافات مؤذية للبشرية، وأنتجت -أو أنتج فشلها- الكثير من مكاسب حقوق الإنسان والأقليات وحقوق النساء، أنجز كثير منها على مستوى عالمي اليوم.

كان لوجود أكثر المهاجرين اليهود في أمريكا في مكان واحد من نيويورك وبأعداد كبيرة، وتنافس حادّ بين أبناء مهاجرين فقراء أثرٌ كبير، فقد جاؤوا مطارَدين من أوروبا التي راجت فيها تركيبة قومية عنصرية، مبنية على جذور دينية غرست فيها كراهية حادة لليهود الذين قتلوا إله المسيحيين عيسى كما في ثقافتهم. ولم يكن المثقفون اليهود في نيويورك يجرؤون على نقد النازية ولا موقف هتلر قبل أن تتجه الحكومة الأمريكية لذلك وتحارب هتلر. فكان سدني هوك [من أبرز المثقفين اليهود] مثلًا ينتقد من يقلد ستالين في قتل «مجموعات» من الناس، ولا يصرح بالقول ولا الحديث عن الجنس اليهودي الذي كان يتعرض للإبادة[212].

وكان اليهود مهاجرين أو أبناء من جاء يبحث عن مكان ومكانة تسمح بهما أرض هجرة وفرص جديدة، فصعدت هذه الأقلية ثقافيًّا وإعلاميًّا كما لم تصعد أقلية في تاريخ أمريكا. وكان أطفال اليهود في الثلاثينيات الميلادية في نيويورك يحوزون أعلى الدرجات بين الطلاب، وما إن جاءت الثمانينيات الميلادية حتى أصبح أولئك الطلاب يقودون الثقافة والإعلام، وبلغت نسبة اليهود بين المثقفين الأمريكيين 39 % بين عامي 1995م و2000م، بينما نسبتهم من السكان لا تزيد على 2 %، كما ينقل بوزنر في إحصاءاته[213]. وقد ورد ذكر المثقفين اليهود 3331 مرة، بينما غير اليهود -الذين نسبتهم من السكان 64 %- ذُكروا 2820 مرة. ويقابل ذلك حوالي 7 من السود الذين تبلغ نسبتهم حوالي 11 % من السكان، بينما الإسبان والعرب الذين يزيدون على 10 % لا يكاد يكون لهم وجود على الساحة الثقافية.

غير أن هذه النسبة المؤثرة لليهود في أمريكا لا يوجد ما يقابلها بين يهود بريطانيا الذين يبلغون أكثر من ربع مليون، فليس لهم حضور ثقافي يوازي قرناءهم يهود أمريكا. ليس هذا فحسب، بل إنهم هيمنوا على الإعلام، وبلغ الخوف منهم ومن نقاش نفوذهم مبلغًا كبيرًا في الحكومة وفي الكنيسة، وبلغت نسبة القضاة منهم في المحكمة العليا 40 %، وهذه نسبة غريبة في مجتمع متدين ومسيحي، ولكن التنظيم والدعاية والمال والضغط السياسي تُنتج في مجتمع تنجح فيه الديمقراطية، وتظهر فيه حسناتها وعيوبها المكشوفة والأحدث.

ولعل وسيلة اليهود وثقافة الأقليات التي برعوا في استغلالها في مجتمع مسيحي هي «مواجهة الديانة العامة للمجتمع»، ولما يتميز به الدين ومجتمع المحافظين الدينيين الأمريكيين من نفي للأقليات الدينية والعرقية، وبسبب شعور اليهود الكبير بهذا النبذ؛ فقد نجحوا في حملة مضادة تصنع مجتمع الثقافة المناوئ للسياق العام في المجتمع، وتصنع البديل فتجعل الهامش أساسًا وتهمش الأساس. ومن أهم وسائل ذلك خلع المجتمع الثقافي من الرصيد الديني، فتصبح العلمانية والتحرر -كما هي وسيلة تخلص من ثقافة المجتمع الدينية- تخلصًا من التمييز ضد الأقلية، وتعطيهم مكانة في أرضية ثقافية جديدة محايدة بريئة من الدين أو التمييز السابق. غير أن مصدر الخطر في هذه البيئة الجديدة -علمانية كانت أو قومية متطرفة- هو أنها تمارس قمعًا وإقصاء لا يقل تطرفًا عن المتطرفين على هوامش المجموعات الأولى التي خرجوا منها، وقد أظهرت تجربة البعثيين وكذا تجربة القوميين العرب -وهما حركتان علمانيتان خارجتان على الثقافة الإسلامية- تطرفًا لا يقل شناعة عن أي ديانة قاسية حاقدة على ما سبقها، تزعم العصمة لنفسها، وقد تتغذى من وقود غضب وضغائن «أقلوية» سابقة.

وقد كان لسيطرة اليهود على مجال الثقافة العام في أمريكا دور في العداء الكبير للمثقفين عند عامة الأمريكيين، وضد كلمة ثقافة ومصطلح مثقف. وكان شعار «معاداة الثقافة» يساوي «معاداة السامية» في التجارة في زمن صعود المثقفين اليهود. وكانت مشاعر الأغلبية المسيحية -عبر تاريخ تعاملها مع اليهود- تكره اليهودي تاجرًا مرابيًا، كيف وقد كانت ثقافة اليهود في الخمسينيات والستينيات وبعدها بقليل يسارية مصادمة لليمين، ولكنهم استطاعوا الانتصار -عبر الإعلام والأفلام- على خصومهم المحافظين عبر التحرريين والديمقراطيين، وفي زمن الرئيس ريغان عادوا إلى السيطرة ولكن هذه المرة عبر الكنيسة وعبر المحافظين القدماء والجدد[214].

إن صعود اليهود التجاري والثقافي أنشأ حالة من الكراهية والحسد والنقمة عند المسيحيين والمحافظين عمومًا، غير أن هذا التوجه المتعصب أو الناقم منهم لم ينجح؛ فقد ربح اليهود

ومثقفوهم الجولة في موجة الستينيات ثم بمستوى أكبر في جولة الصهيونية المسيحية الأولى في عهد ريجان، ثم بلغت ذروتها في عهدي جورج بوش الابن وترمب، وكانوا من قبل منسحبين وهاربين إلى الهامش المريح والآمن.

ولم يقف النقد لليهود والخوف منهم يومًا منذ صعودهم، ولم تشفع لهم أموالهم ولا نفوذهم في إخلاء الساحة الثقافية الأمريكية من نقدهم. ولعل من النماذج المتعصبة الناقدة والخائفة والمعبرة عن الرد المحافظ الغربي المسيحي على صعود الثقافة اليهودية، هو ما كتبه بيوكانن في كتابه **موت الغرب**. وعندما ترشح آل غور ضد بوش الابن وعين السناتور اليهودي جو ليبرمان نائبًا له، وجدوا ليلتها شعارات مكتوبة على الجدران في مقره الانتخابي، تنتقد وتأبى القبول بترشيحه يهوديًا ليكون نائبًا للرئيس! وآنذاك عُدّ هذا من أسباب فشل مرشح الرئاسة آل غور –الذي كان نائب الرئيس بيل كلينتون- أمام بوش الابن.

وقد كانت فترة الرئيس الأمريكي ترمب الذي فاز بانتخابات 2016 من أقوى ما شهدته أي حكومة غربية من سيطرة اليهود وحضورهم في مقر الحكومة وتوجهاتها ومواقفها. وكان للحرب التي بدأها ستيف بانون المسيحي اليميني مستشار ترمب ضد كوشنر الساذج كما يراه أن دفعت كوشنر لتقوية جناح اليهود في البيت الأبيض؛ فعين مديره اليهودي السابق في بنك جولدمان ساكس جاري كوهين ليستكمل القوة اليهودية ضد المسيحيين الذين مثلهم بانون، وأصبح ترمب يقدم كوهين للزعماء الأجانب، يغريهم اقتصاديًّا بشخص من فريقه كان يعمل مديرًا لبنك شهير، ولم يكن كافيًا لكوشنر تعيين مساعدين يهوديين أصوليين هما: آفي بركوفيتش وجوش رافل، وهذا ما أثار بقية المسيحيين في البيت الأبيض، حتى إن هنري كيسنجر فسر الخلافات في البيت الأبيض بأنها «حرب بين اليهود وغير اليهود»[215]. وكانت إيفانكا سيدة البيت الأبيض الأولى يهودية لأول مرة في تاريخ أمريكا، لكون زوجة ترمب مهاجرة قليلة الحضور مقارنة ببنت الرئيس التي تخلت عن المسيحية وتهودت بضغط من زوجها كوشنر المعروف بأنه أصولي يهودي، حتى إن كثيرًا من جوانب الحياة تتوقف مساء كل يوم جمعة للالتزام بالشعائر اليهودية في مسكن الزوجين في البيت الأبيض. حتى إن المنظمات اليهودية في نيويورك كانت مرتبكة [بين فرح وحذر] تجاه صعود كوشنر ليكون محاميها الكبير في البيت الأبيض. وقد زعم ترمب أن صهره كوشنر سوف يحقق السلام في الشرق الأوسط. وينقل عن كيسنجر «إن جارد كوشنر هو هنري كيسنجر الجديد». وكان ترمب «يقربه منه لأنه يهودي، ويكافئه لأنه يهودي، وحمله حمل السلام في المنطقة لأنه يهودي، وذلك بسبب الإيمان التقليدي في أمريكا [خاصة بين التجار] بقدرة اليهود على المفوضات. وكان ترمب يجمع في انطباعه عن صهره بين الذم والمدح. وكان مما أرضى ترمب عن بانون يمينيته المتشددة، فكلما زاد المسيحي من تطرفه اليميني كان أقرب إلى منافع إسرائيل، وعلى صراطها.

الثقافة والفعالية

المثقف لا تستولي عليه السكونية، فإن استولت عليه خرج من دائرة المثقفية، فهو هميم جوال الفكر فيما يدور. وبسبب فعاليته وكثرة نشاطه يتهم بأمور كثيرة منها عدم عمقه في تفاصيل القضايا التي يعالجها أو أنه يتحدث كثيرًا. أو كما نقل تشارلز هوفشتاتر ساخرًا من بعضهم: «المثقف هو الذي يستعمل كلمات كثيرة غير ضرورية ليقول أكثر مما يعرف».

ولكن المثقف -رغم التهم- أخطر مما يتهمونه به. فمن المثقفين قوم كانوا بالغي التأثير والأهمية، إذ إن الصهيونية والشيوعية والنازية مثلًا أفكار خطيرة، يعود نشرها وترويجها وتنظيمها ومآسيها إلى دعاتها المثقفين، إذ يجد أحدهم فكرة خطرة -خيرًا أو شرًّا- مهملة فيبعث فيها الحياة ويجمع حولها الفاعلين.

مثال ذلك تيودور هرتزل الذي شغلته قصة بناء «وطن» للقومية اليهودية بعدما لاحظ شيوع فكرة مؤثرة هيمنت على أوروبا في القرن التاسع عشر، وهي موجة المدّ القومي والعرقي التي أشعلت أوروبا -خاصة في ألمانيا ووسط القارة وشرقها- من القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. فاستطاع أن يجمع المهدَّدين المشرَّدين من اليهود التائهين بين قوميات علمانية، مستخدمًا فكرة دينية قديمة هي «أرض الميعاد» في سياق فكرة علمانية حديثة «قومية استعمارية»، للبحث عن مكان جديد خاص بالقومية اليهودية لتبني «وطنًا» لليهود في العالم (الصهيونية). وكانت عنده بنية علمانية بديلة عن الدين، فالتقطوها من بعده وحددوا خيارات أماكن كثيرة لتقوم في أحدها «الدولة» وانتهت بفلسطين، بحسب من رأوا استخدام الدين والتاريخ. وكانت فكرة دولة يهودية والعودة إلى فلسطين فكرة لها أكثر من ألفيْ عام غير قابلة للتحقيق عند من يرى منهم إقامتها، وكان البحث «علمانيًّا» عن مقر في أوغندا والأرجنتين وليبيا، ثم أخيرًا «دينيًّا» في فلسطين.

ومن أسباب تأخير اختيار فلسطين -رغم زيارة هرتزل لها ومفاوضته مع السلطان العثماني بشأنها- موجة العلمانية والاستعمار المفتوح لكل البلدان السائبة والضعيفة، ثم الوجود العربي الإسلامي الكبير وموقف السلطان العثماني[216].

المهم أن الفكرة القومية والتاريخ والجغرافيا لعب بها مثقفون ونشطاء يهود وحملوها -رغم صعوبة الإقناع بها- لتكون واقعًا، أو ما سمّاه شمعون بيريز «الرحلة الخيالية مع تيودور هرتزل»[217]. ونؤمن بأن عنصرية هذه الفكرة سيكون مصيرها مصير فكرة أخرى قاربت زمنها في النشأة وهي الفكرة النازية، بل إن الدولة اليهودية كانت من نتائج النازية. ولم تنته النازية بسرعة إلا بسبب وجودها في أيدٍ أكثر وبلد واسع وتحدٍّ تاريخي كبير أسرع في صعودها وسقوطها. وقامت الفكرة الصهيونية بأيدي مهاجرين غربيين مستوعبين الفكرة القومية وبتنفيذها في بلاد لم تبلغ من القوة والوعي ما يمكّنها من المواجهة، ثم وجدت في الميراث الاستعماري الغربي حاميًا يستخدمها وينفذ من خلال هذه المجموعات غاياته في العالم العربي والإسلامي.

ولعل هذا بعض ما أشار إليه جوزيف بايدن نائب الرئيس الأمريكي عندما قال في خطبته في مؤتمر منظمة «آيباك» اليهودية (أكتوبر 2013): «لو لم تكن إسرائيل موجودة لأوجدناها». وقد صنعت القومية الصهيونية مدًّا قوميًّا عربيًّا مضادًّا. ولأن المجتمع الضعيف ثقافيًّا تُصنع أفكاره غالبًا من خارجه، فالقومية الصهيونية تتطلب قومية عربية وتغييبًا للموقف الإسلامي الأممي من الأمر، ورغم مشروعية الخطاب الإسلامي وتأثيره وقوته، فإن انعكاس الصهيونية على العقل العربي يجعلهم يطاردون الموقف الإسلامي.

فالحركة أو التحريك الصهيوني للصحافي هرتزل كان تسييسًا لمجتمع عاش وساح في مجتمعات العالم على خير وشر «وإن لم يندمج»، قبل أن تتقدح نار فكرة القوميات الأوروبية. وقد يبقى عند العرب وجود للمد القومي ما دامت الصهيونية محتلة أرضهم، ويرتفع المد الإسلامي بمقدار التحدي حين يتخذ وجهًا دينيًّا يهوديًّا أو مسيحيًّا، بحكم حال رد الفعل غير الاختياري.

الثقافة بين الحرفة والرسالة

عندما كنت أكتب تنقيحات هذا النص دار حديث حول مسؤولية المثقف، فقال صديق مثقف إن المثقف لا مسؤولية له؛ لأن الثقافة حرفة، أي مهنة يعيش منها الفرد وليست رسالة حتى نحمله مسؤولية، وهو بهذا يجرد حرفته من المسؤولية الأخلاقية. وهنا اتضح لي أن المسؤولية لدى العالم -أيّ عالم- سواء كان عالم دين أو طبيبًا أو مثقفًا يحترف التعليم من أي درجة، فإننا نطالبه في عصرنا بأن يكون متقِنًا ومنفذًا لحرفته، ولكن لا يلزم من مهنته أو حرفته أن تعني بالضرورة أن لديه رسالة يقدمها تجاه الكون والإنسانية. ولعل قائل هذا راقب التحول الكبير في الثقافة والمثقفين من وجود قضية رسالية لهم في مجتمعاتهم، إلى كونها مجرد حرفة تدرّ على المثقف طعامه وكساءه، مساوية أي حرفة تُكسب صاحبها العيش مثل الناس، بل في القديم أيضًا نجد الأدب والثقافة والعلم مرة حرفة ومرة أخرى رسالة[218]. كان هذا الذي يردّ على فكرة مسؤولية المثقف من أشد المثقفين رسالية، والسبب أنه يرى مثقفين ثقافتهم مجرد حرفة لا يبالي أحدهم أن يُسخر حرفته أو مهاراته المعرفية لأي موقف ثقافي. ولعله سيحتج بأن هناك مستشرقين يجيدون المعارف الإسلامية مثل بعض المتميزين من علماء المسلمين، ولكن علمهم بالإسلام لا يجعلهم يؤمنون به ولا موالين لأهله، بل هم تعلموا هذا التخصص ليكون مجرد مهنة يعيشون منها، لا ليقيموا على معرفته موقفًا حضاريًّا منها، بل العكس نجد حكومات العرب تعادي وتكره أحيانًا من استوعب هذا الآخر أو اندمج فيه حتى أحبه أو والاه، فثقافته مجرد مطلب أشبه بعمل «العين» قديمًا أو الجاسوس. وقد فاصل الغرب وعادى أولئك الذين حدتهم ثقافتهم إلى مسؤولية أو أحيت ضمائرهم ليقوموا بمسؤولية من نوع ما، فهم يصنِّفون خونةً لأممهم لأنهم لم يمارسوا التحيز المطلوب منهم ضد موضوع مهنتهم.

ولعل شخصيات مثل نماذج عرّفنا ببعضها في الكتاب كانت مكروهة من حكوماتها بسبب أنها فهمت أن الثقافة مسؤولية وحولتها من مهنة إلى رسالة، أو أنه كان مطلوبًا من ثقافتها رسالة محددة فاقتنعت بالرسالة المضادة، أو أحيت في مهنتها ضميرًا ووعيًا أنتج رسالية مضادة، وخرجت من كونها مهنة إلى رسالة؛ لأن الوعي بمأساة الضحايا غيّر التحيزات المسبقة أو المطلوبة، فمارس هؤلاء الثقافة بروح إنسانية وضمير مسؤول أعطى الثقافة مسؤولية، ولهذا انتقلوا من كونهم شخصيات استعمارية أو جاسوسية غربية إلى أصحاب رسالة تجاه الإنسان المضطهد أو تجاه قناعاتهم أيا كانت، مثل عبد الله فيلبي أو محمد أسد أو مرمدوك بكثال، وحشود من مستشرقين وموظفين استعماريين ومنخرطين في حقوق الإنسان ورعاية المستضعفين، ممن كانوا ذوي مواقف شديدة الوضوح في شرح مآسي الضحايا، ففارقوا الخمول المهني أو ممارسة الحرفة المطلوبة، واتجهوا إلى الرسالة الحضارية والإنسانية عندما استيقظت ضمائرهم رعايةً لإنسانية الإنسان، فكانت الثقافة رسالة آمنوا بها ومارسوها.

هناك أعداد قلة من البريطانيين حاربوا الاستعمار البريطاني، وكذا من الفرنسيين الذين واجهوا الاحتلال الفرنسي للآخرين، ومن البيض من حارب الأفريكانو البيض في جنوب إفريقيا، وساندوا تحرر الأفارقة السود.

أما جعْل الدين -أو الفن الديني كالتلاوة- حرفة، فهذا ما لاحظه عالم ديني آخر أو هو «مثقف» أو «مستغرب» شهير على علماء الأزهر في الستينيات والسبعينيات، فقال إن كثيرًا منهم كانوا يتحدثون في الفصل الدراسي عما شئت من أمور الدين وبمعرفة وكفاءة، ولكنهم عندما يخرجون

من قاعة المحاضرة فإنهم يصيرون من العامة بل أحيانًا من فُسّاق العامة، ولا علاقة لعلمهم الشرعي بحياتهم. وقد راقته ممارسة هذا الدور في حياته لاحقًا ففارقت معرفتُه ضميرَه، وخالفت ممارستُه الخلقَ اللازم لها أو الالتزام الواجب تجاهها، فالدين ومعارفه الدينية عنده مجرد حرفة تفتح له أبواب العيش من الصحافة والمؤتمرات وشاشات التلفاز، بل وصل إلى حد كتابة تقارير للطغاة ضد الإسلاميين، ولا يلزم من المعرفة عنده التزامٌ من أي نوع إلا التزام الحرفة وأن تدرّ عليه المال والجاه، كمن «يصطاد بالدين أموال المساكين». وقد تحدث عنها المعري قديمًا فقال:

إنما هذه المذاهــب أسبا ... بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متـعة لا يرقّــ ... ـون لدمع الشمّاء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبـ ... ـصرة والـقرمـطي بالأحساء[1]

[219]وقد شهد الغرب نماذج عنصرية ومتطرفة مضادة لحال فيلبي وأسد ومراد هوفمان، داسوا على المبادئ في سبيل التحيزات للذات ومصالحها، أو لمصالح شعوبها حتى حينما تكون ظالمة ظاهرة الظلم، وكان أولئك نماذج تشيد مثلًا بالحرية والتحرر، ولكنها مارست بل أسست أفكارًا عنصرية وسلوكًا غير إنساني في مستعمَرات ضد من يرونه إنسانًا أقل منهم، كما فعل ألكسيس دو توكفيل الفرنسي الذي تغنى بالحرية والديمقراطية في أمريكا، ولكنه روّج للوحشية العنصرية الفرنسية في الجزائر. وكذا إدموند بيرك البريطاني الذي نادى بالحقوق والاختيار الحر ثم وقف معاديًا له في أمريكا وإيرلندا[220]. وكذا كان موقف سارتر، فقد كان ضد الموقف الفرنسي في الجزائر وفي فيتنام، ولكنه لما صعد الإرهاب الصهيوني في فلسطين وقف معه وسانده، وتغلب العنصر والدين اليهودي على كل الشعارات والمواقف الإنسانية، وعلى خطاب العلمانية والحرية الذي كان في زمن ما رمزًا له، وأصبح مجرد محترف ثقافة وفكر، وتحطمت المثل والقيم والآراء العامة السابقة أمام العنصرية والهوية الخاصة جدًّا به.

التحيز الثقافي

الثقافة أهم مصانع التحيز التي تنتجه؛ لأن المثقف يواجه حشدًا هائلًا من المعارف المصوغة صياغة متحيزة في أصل وسيلتها أي اللغة، فالألفاظ والصياغات متحيزة اللغة والمشاعر، والبيئة تصنع الذات المولّهة بنفسها وإرثها، المتسامحة مع أخطائها، وشديدة الكراهية لأخطاء الآخرين، هذا إذا لم تكن تأنف أحيانًا حتى من صوابهم وليس من أخطائهم فقط، بسبب البعد والجهل وأشكال التميّز والتمييز التي هي في أصلها مجرد مشاعر استغراب.

ولكن الأفكار المؤسِّسة التي تؤيد المواقف والخبرات الذاتية، وتحولها من عادات إلى قيم متعالية أحيانًا وإن لم تكن كذلك؛ تجعل من الدهشة والاستغراب ومن ثقافة الآخرين المخالفين وسلوكهم حشدًا من التأفف والتباعد، بل وكراهية للمتحيِّز ضدهم، ومصدر هذه المشاعر استعلاء الفرد على الآخرين لبناء ذاته ولصناعة تمييز بلا حجة.

وكنت أتوقع أن عامل الخوف هو سبب التعصب والتحيز في المجتمعات التي ترى نفسها مستهدفة فقط، وهذا صحيح جزئيًّا ولكنه ليس على إطلاقه؛ فقد لاحظنا أن الشعوب القوية والنافذة

والمسيطرة تتحيز بشدة، ويحركها الخوف والطمع مثل الشعوب الصغيرة، بل إن قوتها وتواصلها يزرعان فيها الهلع من الصغار ومن ثقافتهم فتستعمل الوعي سلبيًّا ضد التسامح المطلوب.

وفي قول الشيخ المحدث أحمد شاكر شاهد وتبرير للخوف، يقول بعد حديثه عن عدم تحيزه ضد المستشرقين: «ولكني رجل أتعصب لديني ولغتي أشد العصبية، وأعرف معنى العصبية، وحدها، وأن ليس معناها العدوان، وأن ليس في الخروج عنها إلا الذل والاستسلام، وإنما معناها الاحتفاظ بمآثرنا ومفاخرنا، وحوطها والذود عنها، وإنما معناها أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأعرف أنه «ما غُزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا»، وقد واللهِ غُزينا في عُقر دارنا، وفي نفوسنا، وفي عقائدنا، وفي كل ما يقدسه الإسلام ويفتخر به المسلمون»[221].

هذا النفس الصريح والواضح في المواقف قليلًا ما تصادفه في الكتب والمحاضرات، إذ يحاول كثيرون الوصول إلى القارئ أو المتلقي دون ضجة في الطريق والتعريف بمقاصدهم، ويخفون تحيزاتهم، ومن شرح تحيزه فقد يلام –بحسب أعراف زماننا التي تزعم تغييب التحيزات- ومن كان متطرفًا متحيزًا فكثيرًا ما تجد موقفه المتخفي ظاهرًا بين السطور وعلى فلتات اللسان دائمًا، ويبقى أن عدم مصادمة الناس حتى بالحق هو ما تزرعه ثقافة سائدة في العالم اليوم، وليس كل ما في أساليبها مرفوضًا؛ لأن من عادة الإنسان ووقاره أن يجتهد في أن يلبس ملابس تخفي مشاعره.

من هنا كان من الضروري للثقافة أن تؤسَّس على موارد من العدل واليقظة والروح الإنسانية، حتى إذا مارست التحيز -وهو ميل طبيعي في الثقافات- كانت قادرة على التقليل من توحش التحيز الطبيعي ومن عنصريته، التي تخرجه من كونه عنصر غرابة أو ضعف تقبُّل للثقافات المختلفة إلى مكوّن عدواني أعمى. وأهم مداخل العدل مشاعر وقوانين تؤسس حرية اختلاف الآخرين مع الثقافة السائدة دون عدوان، وهنا تكون الحرية عدلًا أو مدخلًا للعدل.

والتحيز عندما تحاصَر شروره ويخفَّف منه ويبقى في دائرة العدل ولا يصل إلى الجور على الآخرين، فإنه يُبقي شيئًا من التنوع الجميل في أنماط الأفكار والحياة البشرية، بحيث لا تُطمس ألوان هذا الكون المختلفة ليصبح اللباس واحدًا واللغة واحدة والتعامل واحدًا والطعام واحدًا، وننتهي بثقافة واحدة.

إن التحيز الذي يُبقي الاحترام والتنوع وحق الاختلاف يجعل البشرية آمنة؛ لأن ما يثير الشعوب ويحرك مخاوفها خشيتها على ثقافتها، وشعورها بعدوان الآخرين على ما يمثل قيمًا متعالية لها. والشعوب قد تحارِب من أجل ثقافتها المنتهَكة ولا تحارب من أجل طعامها وضروراتها؛ إذ ترى ثقافتَها ضرورية أكثر من ضرورات المعيشة، وواقع الإنسان وتاريخه يُثبتان أن تحيزه أو تحيز غيره الجائر على ثقافته يخرجه للقتال، وتصبح الثقافة سلاحًا فتاكًا في تعامل الناس حينما يغيب صبرهم على تعدد ثقافاتهم.

الثقافة تحيز من نوع ما، ولا يملك المثقف أن يضيع في هواء مخادع، بل رؤوس الثقافة المعاصرة لا ينكرون تحيزاتهم، ووجوه العلمنة واللاأدرية والانفتاح يكشفون عن وجوه قاسية لميولهم تلك، فعبد الرحمن بدوي -رغم اتساع معارفه واختياره الغرب منزلًا، والتعلق الواهم بالوجودية، وغروره بالألقاب والأوصاف مثل كونه أول وجودي عربي- وجد النقد اللاذع والهجوم على ما يمثله من دين وثقافة، فكتب كُتبه الأخيرة دفاعًا عن الإسلام وقرآنه ورسوله.

وإدوارد سعيد -بعد أن كان منهم في كل شيء تقريبًا لغة وثقافة وبروتستانتية موروثة وحاضرًا لا أدريًّا- عاد إثر حرب عام 1967 يبحث عن نفسه ويقول: فلسطيني عربي حضارتي إسلامية، ويقف على حدود فلسطين ليمارس ما رآه شعيرة رجم المحتل اليهودي. والمسيري ينتهي للكتابة في التحيز، ثم يحب أن يصف نفسه قائلًا: «باعتباري مفكرًا إسلاميًّا إنسانيًّا»[222].

وصموئيل هنتنغتون يجول في ثقافات العالم والغرب والمسيحية خاصة، ثم يُجري تحقيقاته عن ميول الشعوب وتحيزات الأديان والحضارة، لينهي جهده الفكري وحياته بكتاب **من نحن**، الذي ينحاز فيه إلى موقف ضيق صغير في جزء من ثقافة الغرب ودينها، ويحارب الثقافات الغربية الأخرى كاللغة الإسبانية ومفاهيمها الدينية. وقليل من تنبه إلى بنية مقالة هنتنغتون ثم كتابه، وأنه خصص من كتابه مساحات واسعة -مباشرة مرة وملتوية أخرى- لمواجهة الإسلام والتخويف منه مرة والتطمين أخرى، وهذا ما جنى كثيرًا من الاضطراب على الكتاب، ولو وقف عند المقالة المؤسِّسة الأولى لكانت فكرته متماسكة، ولكنه ساح في الكتاب وضيع القارئ كثيرًا عن فكرته المركزية[223].

والمذيع لاري كينغ الذي حرص على عالميةٍ من نوع ما، كان كثيرًا ما يهتم بكونه يهوديًّا قبل كل شيء وبعده، وفي تقديم ضيوفه. ولما أنهى خمسة وعشرين عامًا من تاريخ برنامجه أكد في ذكراه الفضية هذه أنه «يهودي من بروكلين» [حي في نيويورك].

والمستشرق برنارد لويس بدأ يساريًّا محاولًا الاتصاف بالعلمية والأكاديمية، وانتهى متعصبًا صهيونيًّا ودليلًا مرشدًا للغزاة، بفضل ما عرفه عبر السنين عن العرب والمسلمين.

وكيسنجر الذي تظاهر بأنه أمريكي أولًا وأخيرًا يعترف بأنه لم يبك إلا مرتين في حياته: إحداها يوم وفاة أمه، والأخرى شفقة على اليهود ومحاولًا إقناع غولدا مائير في مطار اللد.

وهناك من تحرروا من سلبيات ثقافتهم أو حاولوا، لكنهم يبقون قلة مقارنة بالتوجهات العامة، ومنهم من يظهر النقد والتحرر، ثم يرجع وقت الجد والأزمات والتحديات إلى ميراثه لأنه أقوى فيما وراء وعيه، إذ يجد المثقف نفسه ينطلق من موقف، والموقف أسسته ثقافة أو دين وشاركت فيه لغة وجغرافيا، ولهذا فهو متحيز قبل البدء. ولكم نتمنى أن يقلل الإنسان من تحيزاته المضرة والظالمة، وينحاز إلى الحق وإلى مصالح الإنسان، ويجعل العدل في مواجهة التحيز. وللأسف فإنه حتى حين ينحاز إلى الحق فإنه لا ينسى من أي مكان ينظر إلى الحق، ومن أي مهاد ثقافي يقترب من الحق.

وإن تعويد المثقف على كراهة الشر واستبعاد الظلم وأهله لا تعني أنه سوف ينهي إنسانيته ويتخلص من تحيزاته، ولكن لنغرس في ضميره غرس العدل والحق ومحبة جنس الإنسان، ونجعل للتحيز أصولًا أكثر عدلًا ورحمة يتعامل بها مع نفسه ومع الناس، ونوجهها نحو الفلكلور والعادات المقبولة المتعددة، ونعترف بطبيعته ولا نلغي مكوناته.

وقد ثبت للبشرية -بل وثبت لأشرسهم تحيزًا وعداوة-[224] أنه حدث في ثقافتنا وعبر قرون أن زرعنا محاربة للتحيز، وعاشت الأقليات عبر خمسة عشر قرنًا حياة عادلة بقليل من المظالم، وما حصل في ثقافتنا من انحرافات عن الأصل فهو طارئ، وبسبب تطرف ثقافاتهم العنصرية المنحازة الجائرة والغالبة، التي دعت بعض ضعفائنا لتقليدهم في عنفهم ضد المختلفين دينًا وعرقًا.

ويبقى أن بإمكان الثقافة المنصفة المتنوعة -إن وجدت- تهذيب التحيزات بسبب التعليم والعراقة النافية لثقافة تحيزات الجور والوحشية الغربية العنصرية، وهنا يكون دور المثقف في رفع المستوى الأخلاقي في مجتمعه.

ولهذا فإن الثقافات المغلوبة أو الحزينة بسبب الجور تنتقم وتحاول الحفاظ على ذاتها بأساليب عديدة، منها الاندماج في الثقافة القوية بتعديلات محلية تسمح للإنسان بأن يشعر أنه لم يزل موجودًا، وأن له ثقافة لم تزل حية وعامرة ومقنعة له ولغيره.

وإذا كان الإنسان يلتفت إلى العالم ثم يقسمه إلى قسمين: متقدم ومتخلف، أو مسلم وغير مسلم، أو مسيحي وآخرين، أو بحسب القارات أو الأجناس أو الثقافات؛ فإن العالم ما كان ولن يكون كما نحب أن نقسمه، فهو مقسم كثيرًا من داخله، وهو قابل أن يكون منسجمًا أو منتقمًا بحسب ما يشتعل في أعماقه من ثقافة، ولهذا كان التركيز بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 على تغيير ثقافة المسلمين من داخلها، وإحداث الحروب الداخلية لتشلّ الأمة، وتقريب فئة وتدمير أخرى بضدها الداخلي المطلوب انتصاره.

خيانة المثقف

قال لينين: «المثقفون أقدر الناس على ارتكاب الخيانة لأنهم أقدر الناس على تبريرها». ومن خيانات المثقف اندفاعه وراء المزاج العام المنحرف في مجتمعه، سواء كان هذا مزاجَ انتقامٍ من أقلية عرقية أو أقلية دينية، أو أقلية مناطقية أو جهوية. ومن مظاهر هذه الخيانة الاندفاع الوطني تحت شعار الوطنية والقومية بل والدينية، دون رقابة ولا وعي ولا تهذيب لعيوب هذه الاندفاعات؛ لأن هذه الاندفاعات والتعصبات قد تؤدي إلى جرائم ومظالم لا حصر لها، فإن العقل الجمعي (العام) يدخل تجاه هذه الدعوات المتعصبة في سبات، وفي غرور وتناسٍ للمضطهدين؛ لأن حمايتهم أو رعايتهم أو تقدير ما حل بهم يُفهم على أنه تقليل من الروح الوطنية أو القومية أو الدينية.

وقد ذاقت الأقليات في مجتمعاتنا الحديثة هذه اللأواء باسم الدين أو العرق، وحُرمت مما شاع في العصور الحديثة من حقوق المواطنة، فغالب الشعوب العربية لم تصلها ثقافة ولا حقوق المواطنة المعاصرة، ولم يبق للناس من حقوق من أي نوع تحت أقدام بعض المستبدين المتطرفين، لا الحقوق الشرعية الإسلامية في موروثنا الحضاري ولا ما جدّ في العالم الحديث. فقد كانت الأقليات الدينية قديمًا ببلاد المسلمين محمية بقوة الدين في المجتمع، وبقوة العلماء، وبقوة بعض السلطات الراعية للحقوق والعقود أحيانًا أخرى، أو بهذه المنظومات مجتمعة، ولذا وجدنا من ينتصر لهذه الأقليات ضد الحكومات الإسلامية الجائرة، فقد وقف الإمام الأوزاعي محاميًا عن الأقلية المسيحية في بيروت يوم تعرضت للمظالم، وراسل الخليفة بشأنهم، ورعى الحقوق للمسيحيين ضد بعض العامة من المسلمين وضد جيش الحكومة[225].

ومن ذلك موقف ابن تيمية من أسرى اليهود والنصارى، الوارد في رسالته إلى سرجون ملك قبرص المضمنة في قسم الجهاد من **مجموع الفتاوى**، حيث يقول: «وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلوشاه، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين، قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يطلقون. فقلت له: بل

جميع من معك من اليهود والنصارى -الذي هم أهل ذمتنا- فإنا نفتكهم، ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة. وأطلقنا من النصارى من شاء الله. فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء على الله»[226].

وهذه فضيلة الأمم وقت صعودها وترسخ المبادئ في بعض شخصياتها وثقافتهم، فإقرار العدل يحتاج من يؤسس له ولو للخصم. فمثلًا قام الرئيس الثاني للولايات المتحدة جون آدمز بعمل المحامي عن الجنود الإنجليز الذين قتلوا عددًا من المحتجين الأمريكان في بوسطن في بداية الثورة.

وكذا في الأندلس لم يقبل علماء الإسلام الثورة ضد اليهود رغم المفاسد والملاحظات العامة المأخوذة عليهم. وفي الشام كان الشيخ رشيد رضا نائبًا لميشيل لطف الله في الحزب السوري القومي الاجتماعي، ونافح عن رئيس حزبه الفاشي.

وليس للمثقف الحق في أن يقف متفرجًا على الإساءات أو الجرائم أو يسكت عنها تحت أي مبرر قُدّمت به، وكثيرًا ما يبرر ظلم الحكومات للأقليات بحجة الأمن وخوف الخيانة الدينية أو القومية[227].

فقد ظلم صدام حسين السكان أو الجاليات التي تعود أصولها إلى أصول فارسية وأجلاها عن العراق أثناء الحرب، ولم يكونوا مع الموقف الإيراني بل كانت تلك مجرد احتياطات ظالمة، وكذا لحق الأذى الكبير بالأكراد، وأحيانًا لحق الأذى بالشيعة في تجمعات سنية وبالسنة في تجمعات شيعية.

وستكون خيانة المثقفين الغربيين في زماننا من أسباب استمرار الفتن والانتقام، خاصة تلك الفئة من المثقفين الموالين لنزعات حكوماتهم العدوانية، والمؤيدين للإرهاب الصهيوني المحمي والمقدس بحماية إمبراطورية عظمى، لا تقيم للبشر المختلف مع رغباتها قيمة.

وكنت قد دخلت في حوار مع الكاتب الصهيوني الأمريكي توماس فريدمان في الأسبوع التالي لأحداث 11 سبتمبر 2001، وكان مما عبت عليه مقالاته التي بدت منتقمة ومتحفزة ومؤيدة لحرب إرهابية على الأمة المسلمة بسبب أفراد منها، هذا إن كانوا المتورطين، لأن تجريمه سبق أي تحقيق، وكذلك مقالاته -في الأسبوع الأول ومطلع الأسبوع الثاني- التي ظهر فيها مؤيدًا ما حدث في حماة عام 1982، حيث امتدح تدمير حماة على أهلها أو ما سماه «تسويتها بالأرض»، وبالغ في امتداح ما سمّاه تفتيت حماة حتى أحجارها. وبالرغم من فظائع الأب حافظ الأسد فإن جرائمه لا تكاد تقارن بالتدمير الشامل والإبادة العامة على يد ابنه بشار.

وكانت هذه نزعة انتقام مرعبة، ومقدمة لتأمين إسرائيل على طريقة استثمار «المذبحة» المسماة «الهولوكوست»[228] بإقامة إسرائيل وتمويلها، فقد كانت واضحة عند صهاينة أمريكا خطوة الانتقام من العرب واستغلال أحداث 11 سبتمبر لمكاسب صهيونية في أمريكا وخارجها، فاستثمروها كما استغلوا أحداث المذابح في ألمانيا، حيث بقيت المذابح تدر مالًا لا يحدّ وتعاطفًا وتسليحًا وابتزازًا لألمانيا إلى اليوم والغد.

وخيانة المثقفين اليهود أمر صرح به كيسنجر يوم كانت أمريكا تحتمل الكلام عن خيانة اليهود لأمريكا، عندما يتناسون جنسياتهم الأمريكية ويبتزون بلد هجرتهم لمصلحة الصهيونية العالمية، أو

لمصلحة إسرائيل ضد أمريكا. يقول كيسنجر بالحرف في كلامه المسجل مع الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون: «تتصرف الجالية اليهودية في هذا البلد بلا وعي، إنها تتصرف بخيانة»[229].

والجدير بالإشارة هنا أن كيسنجر رد على منتقديه في عنوان مقاله «يجب وضع الأمور في سياقها»[230]، ذلك بحسب سياق القول آنذاك، ولكنه أشار أيضًا إلى سياق ما كان منذ سبع وثلاثين سنة وما وصل إليه الأمر اليوم. إن المتعصبين اليهود في أمريكا يملكون أن يخونوها ولا تكون خيانتهم خيانة؛ لأن البلاد استسلمت لهم، وأصبحوا يوجهون ثقافتها وفكرها، فأصبح من ينتقد إجرام الصهيونية مجرمًا، بل يمكن انتقاد الصهيونية في كيانها الصهيوني ولا يمكن انتقاد مجرميها في أمريكا، وأصبح شائعًا لدى المثقفين المستقلين وبعض اليسار وصف الكونغرس بالكنيست. ويسخر أحد رؤوس اليهود في منظمة «آيباك» من الكونغرس ويُظهر هيمنته عليه واحتقاره لرجاله بقوله في أحد المطاعم: «لو أردتُ توقيع كذا نائب على هذا المنديل الورقي لحصلت عليه»، لثقته بتملكه لرجال الكونغرس الأمريكي[231].

إن هذه الرعاية للشر والعنصرية والتطرف -التي يقوم عليها اليهود النافذون تحت أغطية دينية وعرقية وديمقراطية وعنصرية- كلها من خيانات المثقفين اليهود ومن تابعهم وسكت على شرورهم، وهذه الخيانة كانت من أسباب أحداث سبتمبر 2001، ومن أسباب الخيبات الأمريكية المتوالية في بلاد العالم الإسلامي، وفي أوروبا وغيرها، والصمت الأمريكي على هذه الخيانة كفيل بظهور حركة انتقام من هؤلاء الخونة لمصلحة المجتمع الذي عاشوا فيه، ثم وجّهوه ليحارب العالم الإسلامي ويتغاضى عن العنصرية والنازية الصهيونية والتطهير العرقي، ويزرع الخوف والظلم في أرجائه.

فهؤلاء من مثقفي اليهود وأتباعهم من صحافيي اليمين المتطرف وما سرّبوه إلى الكنائس من إغواء ديني لتساند منابرُ الكنائس الظلمَ والعنصرية ضد العرب والمسلمين، إنما يزرعون شرًّا لأنفسهم ولليهودية في المجتمع الأمريكي، وسوف يصحو ذلك المجتمع على من دبر هذه الخيانات والتطرف ضد العرب والمسلمين في كل مكان، وجعل الكراهية للعرب والمسلمين مكوّنًا أساسيًّا في السياسة والفكر والثقافة الأمريكية، وكان من أسباب المتاعب لأمريكا وللعالم، فضلًا عما جرّه وسيجرّه ليهود العالم.

لقد تعاظم دور خيانة المجموعة التي أشار إليها كيسنجر -المتعاطف جدًّا مع الصهيونية اليهودية- من الجالية اليهودية الأمريكية بقوله إنها «تتصرف بخيانة»، بحيث لا يجرؤ هو ولا غيره حتى من خصومهم على التحدث عن حقيقة أثرهم في تدمير أمريكا، لمّا اختطفوها وقيادتها وسياستها ودينها ليسخروها لمطامع الصهيونية التوسعية والإرهابية حول العالم.

الأيديولوجيا الاحتلالية الديماغوجية

عادة ما يكون المثقف مروجًا لأيديولوجيا ومنتقدًا أخرى، أما المثقف السلبي والمنتفع فيتظاهر بأنه لا يحمل أيديولوجيا «فكرة» ينافح عنها. وهذا ما يروج له مثقفو الاحتلال في زماننا، فتجد أحدهم يزعم أنه بلا أيديولوجيا، ولو تعقبته لوجدته مجرد سمسار لأيديولوجيا الاحتلال أو لشهوات أحد الطغاة أو لمجموعة منهم طاغية، أو سمسارًا لأيديولوجيا مضادة لمجتمعه لا يدركها، ويتوهم أنه لا يصنع فكرًا ولا ينتقد فكرًا، ولا يعي أنه جندي أعمى يحارب في جيش سادته من المحتلين،

أو في معركة غيره. ولا يعي أن الزعم بأن لا أيديولوجيا له إنما هو «موقف أيديولوجي صرف»، فالسلبية والتبعية أيديولوجيات، والفوضى وعدم الهدف في الحياة ومضادة ذوي الأهداف والمواقف هي قطعًا أيديولوجيات، ولو كان لا يملك أيديولوجيا لما نافح ضد أفكار الآخرين.

في زماننا وجدنا كثيرًا من مروجي الاحتلال الغربي والإمبراطوريات وخدم المستبدين يقولون إنه لا أفكار ولا أيديولوجيات مسبقة لديهم، ثم تجدهم محاربين لمصلحة شعوبهم ولثقافتها، وتراهم مغرقين في ولاء خصومها، ثم يتسترون على حزبيتهم المقيتة وولائهم المعادي بأنه لا أيديولوجيا لهم، فلِمَ لم يسكتوا لو لم يجدوا أنفسهم يحملون رايات أخرى يحاربون تحتها؟

الأيديولوجيات العمياء المغلقة مضرة بالمجتمعات، وهؤلاء التابعون للغزاة هم أكثرُ حملة الأيديولوجيات المغلقة الظلامية المستوردة المتغلبة، وهم يرون المتعصبين لدينهم ولوطنهم ظلاميين، ولا يرون ظلاميتهم هم مع أنها أشد ظلمة وغرابة وفحشًا؛ فقد يقول أحدهم إنه يجد بعض العذر -وإن لم يكن هناك من عذر- للمتطرفين باسم القومية أو الدين؛ لأنهم يدافعون عن حماهم وأرضهم ودينهم أو موروثهم، ولكن لا عذر لخادم عقائد الاحتلال إلا تبعيته وخنوعه، ودماغه المحتل بأيديولوجيا متطرفة ومعادية للوطن ولقيمه وتراثه، ولو كانت في تبعيته الأيديولوجية أي منفعة تحرُّر أو باب خير لما وجد عقلاء الأمة ضده. أما البربرة بعدم أيديولوجيته فهي مجرد خداع لنفسه، وتستر على ما هو بصدده، أو لما يعيش أو يؤجر للقيام به، وبعض هؤلاء يقومون بذلك بلا مواربة وفي مؤسسات قائمة على هذا.

من ذكاء الإمبراطورية الأمريكية أنها لبّست على أتباعها في العالم التابع وأوهمتهم أنهم ليسوا أيديولوجيين، بل أحرارًا ليبراليين يتبعون الحق حيث وجدوه دون مواقف مسبقة. وقد وجدوا في نجاح المحتل الغربي وتسخير العالم له تبرير مناصرته، أما من يعارضه فمجرد أيديولوجيا وأيديولوجيين، فجعلوا مواجهة الاحتلال وانتقاده خطأ ثقافيًّا وعقليًّا وتحزبًا، وغرقًا في الأيديولوجيات الممانعة في قبول احتلاله.

والحقيقة أن أيديولوجيا الاحتلال المتعصبة للدونية والتبعية والعبودية للمحتلين أصبحت الداء المدمر الذي يفتك بحرية الإنسان وكرامته في مناطق نفوذ الإمبراطورية المحتلة وغلبتها. وقد تسللت أيديولوجيا الاحتلال إلى عقول الناس فمسختها، وجعلت من أي مقاومة للاحتلال بالقوة أو بالفكرة إرهابًا أو ثقافة إرهاب[232].

هذه الأيديولوجيا المعصومة (أيديولوجيا الاحتلال) من أكثر التوجهات ديماغوجية وظلامية وانغلاقًا؛ فهي لا تعرف إلا فكرة واحدة مصمَّمة لها من خارجها، وتدخل فيها الرؤوس التابعة بطريقة تعتمد السلوكيات الحيوانية المنحطة بتوزيع رُشىً لإخضاع الشعوب للمحتل، واستغلال الجنس والخلاعة والمخدرات والأموال القذرة، والتبعية للسفارات والعمالات لترويج أيديولوجية الاحتلال.

وكذا نجد من الغربيين من يحقرون سماسرة ثقافتهم خارج بلادهم، قرأنا هذا في نص الفيلسوف هردر السابق، وردّده كثيرًا باحتقار سارتر[233] مشيرًا إلى سماسرة الثقافة الفرنسية. وبعض الغربيين المحتقرين لسماسرة ثقافتهم يرون أتباعهم مجرد مروجين وتابعين يستتبعون شعوبهم. وليس هذا كل السبب، فليس نقد السمسرة هو الأساس هنا؛ إذ كل أمة تريد أن تجد من السماسرة

من يروج لثقافتها ومصالحها، لكن بعض الفلاسفة والمتنورين بيئيًّا يرون أن حفاظ شعوب على ثقافتها يُبقي على التنوع الديكوري أو الجمالي في هذا العالم.

كما أن سياسيين أو عنصريين استعماريين من هؤلاء يرون بقاء بعض الثقافات المعطوبة خيرًا لهم؛ فهي تحافظ على دونية وتبعية شعوب تعيش بثقافات معطوبة، وعيوب أخلاقية تُبقي أهلها تابعين ضعفاء خاسرين، أو تبقيهم في أسفل درجات المدنية بحسب أي نوع من المدنية نراهم عليها؟ غير أن السياق المدني أو الحضاري -بمعناه الأسلوبي والتقني وليس المعرفي- لا يدخل في مسألة الحفاظ أو النبذ، وإنما نعني أن المستعمرين وامتداداتهم يحرصون على بقاء ثقافة الدونية والتبعية والاستبداد، مثل محاربة الديمقراطية في المستعمرات وشبه المستعمرات، أي البلدان التابعة، منقوصة السيادة والمشروعية، وبقاء أمراض الأنانية والخنوع للمستبدين أو للمستعمرين ومن تبعهم.

مثقف القبيلة أو الحزب أو الحكومة

«إن مهمة المثقفين ألا يكونوا مع الجلادين».

ألبير كامو

كانت المعرفة طوال تاريخنا وسيلة للسيطرة على الآخرين وإخضاعهم، فقد كانت الكتابة تنصرف عن غاية التعليم إلى أن تكون وسيلة لـ«تسهيل استعباد أناس آخرين»[234]. ثم استمر الصراع على الكتابة، فهناك من يريد أن يحافظ على دورها البدائي في السيطرة -كما يزعم بعض الأنثروبولوجيين- على الناس وقمعهم بها، وقد كان رجل الثقافة للأسف وسيلة قمع للآخرين، وقليلًا ما كان يستيقظ ويكون واسطة خير ومعرفة للمجتمع.

فكم يطمح المصلحون إلى إخراج المثقف من سيطرة أي مدرسة أو مذهبية -أو ما يُسمى «أيديولوجيا»- أو حزب أو منفعة ذاتية إلى النفع العام، ولكن هذا المطلب بقي بعيد المنال؛ إذ يخالف الشهوات والجماهيرية بين الناس والرغبة في الأتباع، وهو خلاف الأعراف السائدة، ومضاد لمصالح الأحزاب والجماعات والدول، ويخالف كثيرًا من الأعراف الثقافية والمذهبيات. فالمثقف في عصرنا أشبه بشاعر القبيلة أو خطيبها الذي يُلزمه عقد ضمني غير معلن بنصرتها، ولكن في عصرنا أصبح هذا العقد مكتوبًا وموثقًا في كثير من الأحوال، فقديمًا كان المطلوب من الشاعر محددًا، والمطلوب له محددًا؛ له المال والشهرة والمكانة، وعليه مدح القبيلة والترويج لأمجادها، ولم توجد قبيلة ولا عشيرة بلا أمجاد.

أمجاد العشيرة داخل كيانها أمجاد كونية متجاوزة القيم في العالم أجمع، ويوم تحتكُّ بغيرها تتواضع تحت لباس المدح للآخرين، وهو مدحٌ يوشك أن يقول: عندما نمدحكم فنحن نمدح أنفسنا حتى بخلق الاعتراف بوجودكم وبأن لكم ما يستحق الذكر، ويبقى عندنا من المجد أوفر حظ مما تتجاهلونه أو لا تعرفونه.

والمثقف التعيس بثقافة القبائل والأحزاب في هذه العصور محظوظ بين المثقفين الأقل توقدًا عقليًّا، والأقل اشتعالًا عاطفيًّا، ولكن من اتسعت معارفه وثقافته فإنه يقف على الحافة ويعاني العيش على الحدود، في طرف ثقافة يأخذ منها ويترك، يتعصب ويتمرد، حتى إذا طارت به أفكار لا يحمد

عاجلها ذاق حزن الانقطاع عن حضن القبيلة والحزب وحنانهما، وتعرض عقله لنيران عديدة قد تُنضج فكره أو تهمشه، وربما تتالت عليه الشبهات والخلافات والتهم بالانفصام والضلال البعيد.

إنه لا يرى في نفسه ضالًا، بل كثيرًا ما يرى فيها مهتديًا بالمفارقة، وراشدًا بالخلاف، وناصحًا لمن أراهم الطريقَ البعيد عن دَرْك ضعاف البصر، ومن أعشتهم عاداتهم عن معرفة رؤية الحقيقة؛ لأن استغراقهم القبلي الحزبي الآمن المريح لا يفتح الطريق لمعاناة الفهم، والفهم شقاء أيما شقاء، كيف والمثقف يجعل مجد القبيلة على المحك، وفكرة الحزب في نار النقد، إن لم يُذبها في الفرن ليصهرها فيميز مكوناتها الأساسية!

ويزيد شقاء المثقف كلما نضج فكره، وتباعد عنه عامة مجتمعه فكريًّا، فيصبح الخلاف عذابًا واختيارًا بين قناعته وبين الاندماج في السواد؛ لأن أفكاره لا تعود مرغوبة، وخلافه يزعج ويستفز، وقد يوصم بالشذوذ عن الخط الجامد، أو يوصم بالتجديد المخالف -وما التجديد إلا مخالفة الموجود- ويهبّ شيوخ الجمود للنيل ممن يهز عروش تقليدهم، فالراسخون في تأصيل التقاليد وتأكيدها يتعرضون -وفي الحقيقة لا يتعرضون هم ولكن عاداتهم- للهجوم، كما تعرض المقلدون دائمًا للنقد والإصلاح، كما في سِيَر الأنبياء، ثم في تصرفات المصلحين والمجددين.

والحقيقة أن كاتب السلطان، وشاعر القبيلة، والمروج للحزب الذي يفهم دوره، هو من يمر بالعالم دون إبداع؛ لأنه مثقف ملتزم بقضايا قليلة الأهمية معروفة الدور مكررة الموقف، وإنما الابداع في ذهن يقظ وعين فاحصة، هذه العين والأذن نادرة، ولا يعوّل العقلاء على توفرها بكثرة، ولهذا فهم يحتاجون أكثر إلى التقليديين المكرِّرين للأمور المعروفة وللمواقف نفسها، ولا يخلو هذا من مصلحة جليلة لاتّضاح الأفكار ولاستقرار المؤسسات. فالعبقري يهز الواقع ويربكه، وقد يهديه، ولكنه ما لم يصل إلى استقرار وإلى مؤسسة هادئة مفهومة ومعروف أداؤها فإن إبداعه وذكاءه ونبوغه يُربك مَن حوله؛ إذ جرت سنة الحياة الهادئة على الاستقرار الذي يصل حد الركود، وخاصة في مجتمعاتنا.

مثقف المؤسسة

لا نكاد نلاحظ صناعة المؤسسة لمثقفيها، ونتوقع أنهم هكذا يفكرون ويكتبون، ولا صلة للمؤسسات بصناعتهم يوميًّا وصناعة المواقف لهم، وترتيب الحجج والإقناعات. وقد حدثني صديق مستغربًا موقف زميل له يعمل في مؤسسة تعادي التوجهات الإسلامية، إلى درجة الارتماء في صفوف أعداء الإسلام، وممارسة أعمال وأحقاد معادية للأمة تفوق قدرة النفاق المعتاد، مع أنه كان يعرف هذا الزميل زمنًا طويلًا، ويعرف بيئته وأخلاقه وترفّعه عن انحطاط المنافقين والعملاء، فكيف تحول؟ ثم ثنّى بالدور الذي تقوم به المؤسسات في إعادة تشكيل عقول الأفراد فيها، وما تسببه البيئة للفرد من جنوح ضد كل ما كان يؤمن به، وضد المصالح العامة لأمة أو شعب لأنه دُمج في مصلحة مؤسسة موجَّهة من قِبل قلة نافذة فاسدة أو مرتشية ضد شعب. فالمؤسسة تبني الفارغين فكريًّا والقطعان المنفذين، وتملأ الفراغ في نفوسهم وعقولهم بأي موقف تراه، وتجعل منهم آذانًا وأرجلًا لمصالحها، وينحدر مستوى الوعي الفردي حتى لمن أراد أن يكون واعيًا فيها، لتجعله تابعًا فاقدًا وعيه منفذًا وعي غيره.

وقد أدرك المؤثرون دور المؤسسات في صناعة الموقف المضاد على عقول العاملين فيها وضحاياها من مستهلكي أفكارها، فكانت البهرجة والتسويق والمبالغة في الترويج والرواتب والرُّشى العالية للعاملين في المؤسسات القائمة على المسخ العام، وحُقّ لهم ذلك؛ فهي تقدم للغُزاة خدمة تفوق أحيانًا خدمة الجيوش الجرارة، وأي خدمة أكبر من تحويل الإسلام والعروبة إلى مسخرة وبأيدي وألسنة قوم ينتمون عرقيًّا أو جغرافيًّا إلى الأمة ويحاربونها احتيالًا من داخلها؟!

وقد كان من التوصيات التي نُفذت لمواجهة المسلمين الأعمالُ الإعلامية الكبيرة التي اجتاحت سماوات العرب والمسلمين ردًّا على ما حدث في 11 سبتمبر 2001. ولو كانت ردًّا على حادثة أو انتشار تطرف لكانت في سياق مفهوم وربما مقبول رغم تعميمه، ولكن جملة هذه المؤسسات كانت موجَّهة ضد الإسلام عمومًا، ولنشر الإلحاد والانتقام وصناعة أعداء للمسلمين من أبنائهم، تنفيذًا لمشروع نقل الحرب إليهم الذي توعّد به جورج بوش الابن في إحدى خطبه الحربية.

صغائر وكبائر المثقف والسلطة

كان كبار الفقهاء في ثقافة المسلمين رواد المعارضة، وهم يؤثرون في تلاميذهم ومن ثم في الأمة. وما ثورة الفقهاء مع عبد الرحمن بن الأشعث إلا نموذج صارخ لهذا. ويرى بعضهم أن الثقافة الإسلامية ثقافة المعارضة، وإن بقي عدد قليل يتصل بالحاكم، سمَّوْهم «علماء السوء» و«علماء السلطان» و«وعاظ السلاطين»، بينما كان الشعراء والأدباء من حاشية السلطان في أغلب الأحوال. فالشعراء كانوا يلتصقون بالحكام في عصور الإسلام الأولى، حتى كان الشعر باب تسول يمقته كثيرون من ذوي النفوس العفيفة والرفيعة، وكان منقصة عند العلماء والتقاة والصوفية، وفي ذلك يقول الشافعي:

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

وقول جعفر الصادق: «من أتى غنيًّا فتضعضع له ذهب ثلثا دينه»[235]. وكان العلماء يرون التقرب إلى السلطة تملقًا ومنقصة، وبيعًا للدين ولأنفسهم على أبواب الطغاة. ثم إن الطغاة يَحرفون العالم والمثقف عن دوره، فيقف مع القوة ضد الحق، ومن ثم مع السلطة ضد الأمة؛ ذلك أن الحظوة تستدعي مفارقة الأمة، فالذي حظي بقبول يرى نفسه ارتفع فوق عامة كان منهم، ويلبسه شعور بالعلوية على من أصبح يراهم «العامة»، وهذه المشاعر تفقده توازنه وتفسد خلقه أحيانًا، وذلك ما خبرته وعرفته من قوم تعلقوا بأستار الحكم فاجتهدوا لتغيير أخلاقهم وسماتهم ورسومهم بما يتوافق مع الارتفاع الذي رأوا أنفسهم وصلوا إليه، ويكبتون سمات وأخلاقًا ومتعلقات قضايا شعبوية غريبة جدًّا عن بيئتهم الجديدة.

ويذهب هادي العلوي إلى أن «المثقفية» مذهب ضد الدولة، وهو مذهب اليسار الغربي اليوم، وزعم أن الصوفية ممن زرعوه داخل الثقافة الإسلامية؛ إذ «غرسوا جذر المعارضة المتين في قلب الثقافة وجعلوا المثقفية نقيض الدولة، ليؤسسوا بذلك منحى نضال يواصله المثقف في ظروف أخرى، قد تكون أكثر مواتاة وإنتاجًا»[236].

ثم يعلل في كتاب آخر موقف الشاعر في تبعيته الحاشية بأن الشعر فيض فطري غير عقلاني، أو لا دخل للعقل فيه، ويندر من الشعراء من يتبنى المواقف العقلانية الثقافية[237]. أما الفقهاء فقليل

منهم مَنْ كان كذلك، ثم تزايد وفودهم إلى البلاطات في عهد متأخر[238]. ومن أسباب ذلك التحولِ الكبير عند العلماء: الضعفُ الروحي، وتراجع نبل الرجال، وقلة الموارد خارج السلطة، وضعف الرسالية لدى بعض العلماء.

كما لا يغيب عن من عرف الناسَ -عبقريَهم وخاملَهم- أن كثيرًا ممن تهزك نجابته في موضوع أو موقف أو اتساع معرفة، قد يُخلف كل ما عرفت عنه عندما تكتشف منه سذاجة واضحة أو غفلة أو تحيزًا مريبًا. وكنت أقرأ أثناء مراجعتي هذا الكتاب نصًّا لهادي العلوي فوقفت على قول له مضحك أو ساذج، وكان يمتدح ماو تسي تونغ فقال: «الحرمان هو النهج الذي اختص به في هذا العصر قادةُ الثورات الاشتراكية وهم البلاشفة وشيوعيو الشرق الأقصى.. بل عاشوا كما يعيش الشعب في طعامهم وملابسهم وسكنهم. ولم أجد في معايشتي الطويلة لهم ما يميزهم عن الشعب، بل إني كثيرًا ما رأيت ابن الشعب يلبس أفضل من ملابس الكادر أو القائد أو المسؤول. ومن المفارقات أن راتبي في ذلك الوقت كان أكثر من راتب ماو تسي تونغ وخليفته هوا كوو فنغ، فقد كان راتبي خمسمئة يوان وراتبهما أربعمئة يوان. وكان هذا قبل أن أدخل في السلك»[239].

قلت: لعل هذا في بعض الأوقات أو كان تظاهرًا منهم؛ لأن ما نعرفه اليوم من نمط حياة ماو لا علاقة له بما كتبه المؤلف. ويكفي ما كان مشهورًا عنه من تسخيره عددًا كبيرًا من الشابات الصغيرات في خدماته الخاصة، وما نشره عنه طبيبه الخاص من فظائع، وما شاع –حتى أصبح أشبه بالإجماع- عن حقيقة ما كان يحدث فعلًا. وكذا الزعيم الشيوعي في كوريا الشمالية كيم إيل سونغ، وزعماء روسيا من الشيوعيين المشاهير، والطبقة التي صنعوها.

ولعل كتاب ميلوفان دي جيلاس عن **الطبقة الجديدة** يكفي في ملمح واحد مما أحدثته هذه الطبقة الجديدة من تميز عن الشعوب. وما العصابات الأفسد في العالم اليوم -والتي تابعت حكمها بعد الانهيار الشيوعي- إلا فصيلة من الأصل الذي لم يره المثقف الذي روّج ولم يعرف.

أما في لغة اليسار الغربي فإن المثقف يقدم في مقابل السلطة، كرأي تشومسكي في **مسؤولية المثقف**، وإدوارد سعيد في كتابه **صور المثقف**، الذي ترجمه محمد عناني محولًا العنوان إلى **المثقف والسلطة**؛ لأنه رأى أن الكتاب كانت خلاصته موقف المثقف من السلطة.

وهذا غلب على فكر اليسار الغربي الذي كاد يسيطر على الثقافة العامة في مواجهة الدولة التي سيطر عليها اليمينيون والليبراليون القريبون منها، بعد أن خسر اليسار الحكم في العالم الغربي فاستبد بالثقافة، علمًا أن الحكومات الغربية لا تفكر في إفلات التسلط من يدها، لكن القوانين التي تحمي مصالحها وداخلها تحدّها، وشاهد ذلك إقالة الرئيس الأمريكي نيكسون، ومنه يسار أصبح مدجَّنًا ثم وصل إلى الحكم، فهو الذي كان مسيطرًا على الجامعات وعلى الإعلام وصناعة الأفلام[240].

وتنظر الأحزاب والجماعات والعلماء وأتباع المذاهب -التي بقيت خارج السلطة- إلى أن وضعها الطبيعي هو أن تكون خارجها، وذلك ما نجده عند رجال يركزون على حث العالم على أن يكون له مورده التجاري الذي ينقذه من الخضوع للسلطة. ومن أمثلة ذلك ابن الجوزي كما في **صيد الخاطر**، وسفيان الثوري كما في سيرته. ومما نُقل عنه أنه كان يتاجر ويقول لطلابه الذين ينتقدون عمله في التجارة: «لولا هذه لتمندل بنا هؤلاء»[241] (يعني الحكام الذين يتخذون من العلماء مناديل).

ونجد كاتبًا مثل هادي العلوي[242] يَسِمُ الثقافة الإسلامية بأنها ثقافة معارضة للسلطة، وأن على المثقف أن يقاطع السلطة ويعيش من عمل يده، ويسم العلماء بأنهم كذلك. وليس موقفه عاريًا من الصحة ولكنه متأثر -أكثر من غيره- بعاملين راسخين في ثقافته، وهما: أنه جاء من مهاد ثقافي شيعي راسخ، وغالب تاريخ الشيعة معارضة وتمجيد للمعارضة ولثورة الحسين وانتظار للإمام، ثم إنه تثقف على الأحزاب الشيوعية في البلاد العربية زمن كونها ثقافة اعتراض وتثوير، وهذا كان مؤثرًا في ما توصل إليه.

إن المثقفين في العالم الإسلامي أثّرت فيهم جهود العلماء الذين أخذوا غالبًا بالأمة بعيدًا عن السياسة، وكانت لهذا نتائج سلبية كبيرة؛ فقد ضعفت الحكومة لأنها تكونت بلا فكرة، ولا أفسد للمجتمع من حكومة بلا فكرة؛ فاستقر الحكم في عدد من بلدان المسلمين واستمر بدون قضية وبلا دور معرفي، ومن ثم بلا مسؤولية تجاه نفسه ولا غيره، فهو لا يملك فكرة ولا يطالبه المجتمع بها. فكانت حياة مداجاة مستمرة تنتهي عند غازٍ أو ثائر، قد يحمل فكرة ليتغلب ثم يقضي عليها عاجلًا، أو هو فارغ إلا من أهوائه الشخصية أو لفتات هنا وهناك، أو يتلبس الفكرة تمثيلًا وتزويرًا دون قناعة ولا معرفة، فساد الظلام والجهل الدامس، وتباعد العلماء والمثقفون عن العلاقة مع الحكومات، وتركوها لمرتزقة البلاط وحمالي طبول الدعاية الفجة وشعراء التملق. فكسب العلماء والمثقفون الصادقون الثقة بالشيخ والدين، وأبقوا على الإسلام إلى حد كبير بعيدًا عن عبث المتسلطين، وهذه حسنة كبرى لعلماء الإسلام، مع أنه وُجد منهم «وعاظ السلاطين» ونماذج سيئة كثيرة، وكان العلماء يرفضون أحيانًا رواية الحديث عمن يرونه يبيع دينه للسلطان.

لقاء بين مثقفين

المثقف العربي يعاني من قضايا تنقصه وتجعل دوره غائبًا وبعيدًا. وبُعد المثقف عن الميدان العام أضعف الدولة؛ فأصبحت -بدلًا من أن تكون دولة- مجرد حكومة صغيرة لمجموعة مستبدة، خائفة من المتعلمين وبعيدة عن المثقفين المؤثرين. وللمثقف دوره في نقص تأثيره أيضًا مما سنذكره لاحقًا.

غير أن الحكومة الضعيفة في مناطق المستعمرات العربية لضعفها ولجهلها أسباب أساسية وضرورية لبقائها، فهي مستبدة تخاف من المعرفة الشعبية ومن انتشار الوعي. وهي تخضع للمستعمِر، والمستعمر يكره المتعلمين في المستعمرات ما لم يكونوا جواسيس وخدمًا وعبيدًا لأفكاره ولمصالحه. ولهذا تجد بعض الطبقة المثقفة المقربة من الحكومات في المستعمرات -استعمارًا مقنّعًا- تؤمن بمصدر واحد للعزة والقوة وهو المستعمر، وتقوم بعملية الدعاية الرخيصة له، وتسخر كل شيء لخدمته، الدين والدنيا والتلفاز والصحافة.

ورجال الاستعمار مناصبهم قوية ومتقدمة ومؤثرة، ولا يتأثرون بموت الحكام ولا بغيرهم؛ فكأنهم كيانات ملَكية نافذة فوق الشعب. وقد ينتقدون الحكم ويسخرون منه، ولكن مصدر شرعيتهم خارج البلاد. هذه الطبقة الاستعمارية من الملونين -أي من السكان الأصليين في المستعمرات- أشد حرصًا على مصالح المستعمر من حرصه هو نفسه؛ لأنها باسمه تأكل وتعيش وتسترزق من السمسرة بالبلدان وبيعها في سوقه.

وقد تختلف مع المستعمر وتتهمه بأنه لا يفهم مصالحه مثلها، وقد ترى أنها أو بلادها تستفيد أكثر من كونها مستعمرات، ومن ثقافة بيع النفس والوطن والأفكار للمحتل، ولكن فائدة بلدانها تأتي بعد التأكد من رجحان مصلحة سادتها في الخارج، وهي تصنع حججًا وثقافة، وتجعل من العمالة والخيانة للأمة عقلانية ومصلحة ورزانة.

ولهذا فإن مثقفًا عربيًّا في مستعمرة -جلية أو تحت احتلال مقنّع- يمكن أن تصنع منه سمسارًا لثقافتها، ولديها مؤسسات تصنع هذه الطبقة العملية الغنية المترفة المخدومة والمقربة من السلطات في الشرق المقهور وفي الغرب القاهر؛ لأنها تقوم بمهمة السمسرة المستمرة، وتجدها في النهاية واحدةً عقيدةً وممارسةً، فهي تفهم من الاستعمار الخلاعة والحقد على المواقف الوطنية والدينية والأخلاقية، تحارب المروءة والتحرر، وتشنّع على المستقلين والوطنيين والإسلاميين والقوميين.

تحمل هذه الطبقة طبلًا له نغمة واحدة لا تتغير في بلد، وهي نغمة الدفاع عن مصلحة المحتل بتفسير متعسف، ومن عارضه فهو إرهابي أو أصولي أو قومجي أو إخوانجي أو بدائي، لها سيد واحد ورب واحد وهو المستعمر الذي يحقق لها ثروة ومكانة ودعاية، هذه الطبقة هي نفسها المسوخ التي استنسخها الغرب من بقاياه وتلاميذه وعملائه الذين نشرهم في أوروبا والمستعمرات في الحرب الباردة، وعهد إليهم الاستمرارَ في الحرب المستمرة بأي اسم.

شاركتُ في لقاء حواري -قبل الربيع العربي- ضم مثقفين عربًا وأتراكًا وإيرانيين، وكان من طريف التوجهات أن المثقفين العرب يلومون المثقفين الإيرانيين والأتراك؛ لأنهم يفكرون من خلال مصالح حكوماتهم ويدافعون عنها، بينما المثقفون العرب لا يقبلون بهذه الطريقة، ويلمزون أولئك المثقفين المساندين لمواقف حكوماتهم مع نقد جزئي لا كلي. ولم يدرك المعترضون من العرب أن المثقفين الترك والإيرانيين كانوا يعبّرون عن أفكارٍ هم منسجمون معها، ومع حكومات تمثلهم أو يختلفون معها، وتمثّل قطاعًا كبيرًا وليس فردًا. وهناك آلية للمعارضة والضغط مع البقاء في بلدانهم، وينتقدون أو يهجون حكوماتهم أو يصلحون ولهم إمكان المشاركة في الإصلاح. بينما المثقفون العرب الذين أجبرهم مستبدوهم على معارضة حكوماتهم، فقد أفقدهم المستبدون حق الوجود في بلادهم أو قول كلمة في إصلاحها، فحكوماتهم تعبر عن فرد وقليلة الاهتمام بمصالح البلدان التي تحكمها، فهي تعبر عن مجموعة صغيرة حاكمة تقتسم مع المستعمر النفوذ والمال. ولهذا فالمثقف العربي مختلف مع حكومة بلاده اختلافًا كليًّا أو مبدئيًّا.

وكثيرًا ما تجلب المواقف الشعبوية الخراب على المثقف وعلى فهمه وصحة موقفه، وكذا مما يسمم رأي المثقف وموقفه واستقلاليته عربيًّا أو تركيًّا إيرانيًّا، أو من أي أمة –ديمقراطية أو دكتاتورية- تلك النزعة القومية العمياء، وعندما تسيطر عليه فإنه يهدم موقفه الاحتجاجي والإصلاحي.

مثقف الهزيمة

في زماننا نضجٌ كبيرٌ يسود بين المنظّرين لإقرار الهزيمة في قلوب بعض الشعوب التي لم تقبل بالهزيمة. وكانت هذه المشكلة قابلت الأمريكيين في ألمانيا واليابان، حيث احتاجت الهزيمة العسكرية إلى ترسيخ في مخيلة وممارسة الشعوب المهزومة، ولم يكن إقناع الألمان بالهزيمة

سهلًا، ولذا لزم بقاء أكثر من نصف مليون جندي على أراضيهم عقودًا تالية، مع تثقيف مستمر للقبول بقيم جديدة وأفكار تخفف من نزعات استعادة القوة والمكانة الجرمانية.

وبعد أحداث سبتمبر 2001 ثارت المسألة في أمريكا ضد العقلية العربية وثقافتها الإسلامية المليئة بذكريات الخلافة والسيادة التي استمرت ثلاثة عشر قرنًا، وكانت شخصيات من أمثال برنارد لويس وتوماس فريدمان وجوشوا موروفتش ممن حرصوا على صياغة العقلية الأمريكية -بل عبر نفوذهم في العالم- لنشر ثقافة احتقار العرب والمسلمين وامتهانهم، كطريقة لنزع طموحاتهم في القوة والمغالبة والمواجهة للطموحات اليهودية -بحكم صهيونية الثلاثة- والقبول بالاستعمار والخضوع وثقافته، ودعوا جورًا إلى حرب ثقافية، ليس فقط حربًا غربية بل نقل الحرب الثقافية إلى البلاد العربية والإسلامية؛ لهزيمة كل توجه يعتز بهويته وذاته، وحصاره وإذلاله، والزعم بأن الجديد الجيد هو المستقبل الناجح، وهو طريق واحد: استسلام تام للطموحات الإمبريالية، والخضوع في المنطقة العربية لنفوذ قوي ودائم وهيمنة لليهود، ولكن دائمًا تحت شعارات جميلة ومحتويات استتباع واستسلام تام.

ومن ثم نالت المنطقة نصيبًا وافرًا من احتقار الذات ومقوماتها أيا كانت، يمينًا أو يسارًا، إسلامية كانت أو قومية، وطنية أو كل ما يخالف نزعات الهيمنة الأمريكية اليهودية على السكان وأفكارهم. وكانت الحرب على الإرهاب أهم غنائم التاريخ المعاصر للاحتلال الغربي، إذ أصبحت مبررًا لإنهاء استقلال الحكومات والشعوب العربية والمسلمة، وحربًا داخليةً ضد مصالحها، خاصة بعد زراعة أتباع المذكورين كمبشرين بأنماط ثقافية وسياسية ظاهرها محاربة الإرهاب وحقيقتها محاربة الاستقلال، والتنمية وصعود أي قوة أو تطور لإمكانات المجتمع وسيادته، باستمرار حرب مغرضة ضد مكوناته وذاته ومصالحه وهويته وتاريخه، وصناعة مثقف الهزيمة الطفيلي الذي يرى نفسه عارًا على البشرية، إن اختلفت ثقافته ومصالح بلاده عن مصالح الإرهاب الصهيوني والاحتلال الصليبي في المنطقة.

استطاع جيش المحافظين الجدد إنجاب محاربين صليبيين متطرفين ضد الثقافة الإسلامية والعربية والهوية الراسخة للمنطقة، وجندوا ذرية من المسلمين والعرب لهذا المشروع المستقبلي الكبير -تمامًا كما فعلوا في الولايات المتحدة عندما استطاعوا صناعة الصهيونية المسيحية في أمريكا ويجتهدون في بلاد مسيحية غيرها- لتقوم هذه الأجيال بتسخير البلاد العربية وإلحاقها وكل مكوناتها ومصالحها بالاحتلال الغربي والمصالح الإرهابية الصهيونية، وجعل المنطقة جنديًّا تابعًا ومسخًا في حرب صليبية لا تني مستعملة كل وسيلة لا أخلاقية لزراعة التبعية ومجتمع القبول بالاحتلال، وأغدق المحافظون اليهود على هذا الفريق -قسرًا من ثروة المستعمرات- المال والشهرة والجنس والخمر وكل مظاهر الانحلال والإلحاد، ليكونوا بهذه المكونات قدوة للرعاع وللصغار الذين سيحسمون المعركة لمصلحة سلام اليهود والمحتل الغربي واستقرارهم.

يستبد بالموقف الثقافي في البلاد التي تعاني من هزيمة ثقافية طرفان: الطرف المنحاز إلى الماضي السالف لها، أو الطرف التابع للغازي المستبد بحاضرها. فالثقافة التي تشعر بالهزيمة تنصرف إلى أحد جانبين: البحث عن انغلاق ذاتي، وصفاء متخيل في الماضي، وتأصيل لكل موقف وفق الوفاء له، والتأصيل هنا هو غالبًا إيجاد مبرر للتحول إلى مواقف الآخرين، من خلال بحث عن جذر للغريب في المكونات الأصلية لها-إن كانت لها مكونات أصلية- أو مطاردة للمؤثرات الخارجية بكل طريقة، وتلح على ذلك، أو تسلك طريق الطرف الثاني وهو أن تتبرأ من

ذاتها، وتتنكر لمكوناتها، وتلزم نفسها بأن الخيار الآخر أو مواقف الآخرين وثقافتهم وآراءهم هي الحل الوحيد لكل مشكلاتها، ولكن موقفها هذا في العزلة والتقوقع على ماضيها أو الاتباع الشامل مجرد أحد وجهي الهزيمة.

ولذا يصبح حال المثقف في ثقافة الهزيمة أن يكون مبشرًا أو مندوبًا ثقافيا للأقوياء في الماضي أو الحاضر، يبحث عن أرض تقوي نفوذهم وآراءهم ومصالحهم، ويرتبط مصيره بمصيرهم، أو يعيش في وهم النقاء والعزلة، يصرخ بكل عابر: «هذا أصيل وهذا دخيل». ويشتد العداء بين الطرفين، ويعير كل من الشخصين الآخر، فهذا متحجر على الماضي الميت، وهذا الآخر منحاز إلى العدو المعاصر القوي والمحارب للأمة.

وهنا يستمر تشطير الأمة المحزن، وقد عشنا على هذا منذ أزيد من قرن وما زلنا عليه حتى اليوم، فلم يستطع المطالبون بإعادة الماضي إعادته، ولم يستطع من يتبنى التغريب ترسيخ ثقافة الغرباء أو الأعداء في بلده. ولم ينتصر العملاء ولا الوكلاء، ولم ينتصر الأصلاء، بل بقيت المرحلة التي تمنيناها أو أوحت بها تجربة الشعوب الأخرى والأفكار غير قادرة على النفوذ والتأثير، وهي أن نصل إلى منتج يراعي مكوناتنا، أي يحصل على خير ما عند خصومنا، ويجدد حياتنا ببعثنا بعثًا جديدًا. فبقي تراثنا وثقافتنا -التي تتعرض للهجوم- تنتقم انتقامات حادة وصارخة من وقت إلى آخر، وبقي العدو يعبث بما يصدر لنا، يشوهه ليحمي نفوذه، ويعبث بتراثنا ليبقى معاديًا لمصالحنا. ومن مظاهر ذلك العبث الخارجي بمنتجين مهمين: أولهما من عنده -على الأقل في العصر الحديث- الديمقراطية، فيخرجها لنا انتخابات بلا ديمقراطية، يصرخ الناس ويستكملون جهدهم ومعاناتهم لينصروا أصواتًا في الصناديق، ولكن النتيجة تكون مزوّرة، وإن لم تزوّر فلن تحقق نتائج فعلية في تعديل القرار أو تصويبه، أو أن تملك الشعوب حكومات لها ومنها.

وأصبح سباق الغرب على الصوفية كبيرًا لتكون ضد السلفية لتحقيق ما أعلنوه من حرب داخلية، أو ما سماه بوش الابن نقل الحرب إلى أرضهم، أو ما تمنوه من احتراب داخلي يحسم المعركة لطرف ينصرهم أو يؤيد رؤاهم، أو يحول مطالب الشعوب المسلمة إلى مجرد طموحات روحانية أخروية فقط في الجنة، ويحكم عملاؤهم دنيانا ونتحول إلى الآخرة.

وجاء إحياء التصوف كمعركة فكريةٍ يجب حسمها، ومن غاية ذلك تثبيت الصوفية على أنها التراث البديل عن تراث الحيوية والمنعة، وتراث العقل والسلوك العملي، وليتحول الماضي إلى سلبية وروحانيات واستخذاء للخصوم والمتنفذين. وعلى ضوئه تعاد صياغة المستقبل إلى هامشية وتبعية تقنع بها المجتمعات الإسلامية نفسها، وأنها على الحق والهدى والصلاح والتقوى حين تترك للغزاة والمتنفذين الدنيا وما فيها، وتعيش في ماض روحاني مريح، دون وعثاء مشاركة العالم تنافسه وقضاياه.

لذا فإن حس العزة والقوة والشعور بالدور المؤثر -سواء كانت من الماضي أو من الحاضر- هي وقود مؤثر في اللحظة. وكثيرًا ما يحتاج المثقف أن يصنع صورة للماضي يسير بها إلى الأمام، فإن المستقبل المطلوب يحتاج إلى إعادة تكوين وتفسير لماض في الذهن يجعل الخلاص ممكنًا من عيوب اللحظة، وينقذ الفكر والسلوك من الارتكاس في ظلمات لا يعرف الخلاص منها، أو تنتقم منه غير بعيد في طريق صعوده. ولذا فإن رؤية المثقف النَّبِهِ لماضٍ يختلف عن ماض يتحدث عنه الناس قد تكون ضرورية لصناعة رؤية مستقبلية، ماض لا يغرق في قيود المدرسيين، ولا يتفلت من الحقيقة التاريخية، ذلك أن الحقيقة -وهي جزء من التاريخ- قابلة لإعادة التفسير

والتقديم والصياغة دائمًا. وهي سنة «الإحياء بالمفارقة» لما استسلم له الناس -متعلمين وعامةً- من رؤية مستقرة على الأحداث وتفسيرها؛ فالإحياء يصنع قطيعة واتصالًا دائمين ومختلفين مع الماضي ومع التصور السائد حتى في اللحظة القائمة. فلو أعدنا التفسيرات نفسها لكل حدث كما فُسّرت سابقًا، لوجدنا تكرارًا مملًّا وغير صائب للأخطاء، وهل سنكرر الحسنات؟ إن هذا يحتاج حاسة نقدية غير مستسلمة لواقع الحاضر أو الماضي، بل تستطيع التقدير الموقف القائم. وبهذا يكون الماضي كالحاضر قادرًا على الحيوية والتأثير بسبب إعادة التفسير المستمر، ويبقى الماضي محفوظًا هناك بنصوصه وتفسيراته القديمة. وهنا لا خوف على التاريخ، بل الخوف منه دائمًا في حركيته المهلكة أو سلبيته القاتلة، أعني أن الخطر والأهمية تكمن في طريقة تقديمه.

المؤسسات الرسمية

عشق العرب ومثقفو العالم الثالث المتأثرون بالثقافة المركزية الشيوعية النزوع إلى وضع الثقافة تحت يد وزارة وجهة تُخضعها وتوجهها. والظاهر للناس هو علة التنظيم، ولكن الحقيقة القائمة أن هذه المؤسسات الثقافية، لا تزيد على كونها وسائل للتحكم وإغلاق العقل على ما تريد السلطة أن توصله إلى جمهورها أو لشعبها من دعاية وتوجيه لغاياتها. فالوزارات الثقافية الحكومية في العالم العربي تتحرك بنزعة امتلاك العقل وتقييده وتوجيهه، وليست مهمومة بشيء من قضايا التطوير. ولك أن تلاحظ النصوص التي تحرص عليها نشرًا وترويجًا، فهي لا تخلو من كونها نصوصًا دعائية أو أفكارًا ميتة أو باردة عفا عليها الزمن، مما لا علاقة له بالمجتمع الحديث ولا بحاجاته.

زد على هذا المعاناة من التصلب والبيروقراطية، ونزعة التملق لدى المشرفين على هذه المؤسسات، فهم يعلمون أن قيمتهم ومناصبهم ووجاهتهم تقوم على قدرتهم على نشر ثقافة نفاق مستمرة، والتقرب بها لذوي السلطة، بحيث تحوّل الثقافة إلى منشورات دعائية رخيصة بريئة من هدف الثقافة، ولهذا فخلاصة هذه المؤسسات أنها تقوم بعمل الإعاقة.

ثم إن أثر العقلية الحكومية في ثقافة بلدان ضعيفةٍ فكريًّا وسياسيًّا أثر بالغ السوء، فقد كانت الحكومات التابعة في عقود الصراع بين الشرق والغرب تدفع نصيبًا عظيمًا من ثروة بلادها، ومن جهدها في تزكية معسكر ضد آخر، والدفاع عن مواقفه، وصناعة التبعية السياسية له حتى من خلال تفسير تاريخه وثقافته تفسيرًا مناسبًا للمعسكر المسيطر، فيخرج زعماء الإسلام ومثقفوه التاريخيون وهم مجرد جزء من التفسير الماركسي للتاريخ، وجزء من صراع الطبقات. وكذا يقوم الغرب بتجنيد الإسلام من خلال صناعة مؤسسات تجعل من الإسلام واحدًا من جنود الإمبريالية الغربية ضد الشيوعية، ويفسر تاريخه رأسماليًّا، وماضيه وواقعه يوصف بما يناسب المهيمن الغربي ليكون خادمًا لهم في صراعهم.

ولما انتهت مواجهات المعسكرين استمرت الهامشية وفقدان التوجه لدى أتباع المعسكر الغربي ولدى الحكومات المحلية، فأصبح هؤلاء المثقفون الأجراء جنودًا في إيقاع بلدانهم تحت احتلال غربي مقنّع، ويبيعون دورهم في سوق الغزاة من كل نوع، ولو كانوا من القتلة الإرهابيين دينيًّا باسم المسيحية واليهودية، وحاولوا أن يجدوا في مواجهة جماعات العنف مبررًا لصناعة العبودية الجديدة للاحتلال الغربي في بلدان العالم العربي والإسلامي والعالم التابع عمومًا.

وهناك مبرر مهم وهو أن الثقافة أصبحت سوقًا لمن يبرع في بيع قدراته لأي قوة غازية، ولأن حكومات العالم المتخلف ليس لها موقف ولا قضية لتدافع عنها ولا لتصنعها، فأصبحت بأجهزتها الدعائية القديمة تنقل خدماتها لمن لديه فكرة أو قضية.

وتقوم هذه الأيديولوجية الاحتلالية الجديدة على مواجهة الأفكار المحلية، وما تحمله من مفاهيم استقلالية أو قومية أو دينية أو وطنية، ومحاربتها وإلصاق كل عيب وعارٍ بها، فهي مرة إرهابية وإسلامية وشوفينية وقومية وأيديولوجية ومغلقة وظلامية، زاعمة أنها هي فقط تحمل الحل والنور والمستقبل؛ لأنها تستند إلى طائرات تغتال الشعوب بلا طيارين وبلا تكاليف، وربما روبوتات قاتلة ورخيصة، ودبابات وحاملات طائرات وأسلحة نووية، فكل معارضة للاحتلال الجديد جريمة، وكل بائع لضميره وكرامته وبلده وأمته سيعيش في جنة المحتل: «المنطقة الخضراء»[243] وما يشبهها في أنحاء العالم.

وقد ذاق العلماء والمثقفون جام العذاب من المؤسسات الحكومية، بسبب مواقفهم السياسية وليس بسبب أفكار وعقائد، فالمحن على السياسة هي الأصل وما عدا ذلك فمجرد تفاصيل صغيرة وثانوية، ثم ما نراه في زماننا عيانًا وحوارًا مع بعضهم -ولو تأخر بهم الزمان وجدّت المشكلات- يؤكد أن البحث يجب أن يتجه نحو السياسة أولًا ثم ما عداها تاليًا، وغالبًا لن يكون هو السبب.

التقنية والثقافة

حين ظهرت شبكة الإنترنت وتوسع استخدامها في الغرب أوائل التسعينيات من القرن العشرين، كانت آنذاك موجة محببة وناجحة ومؤثرة، مع وجود السلبيات الأخلاقية التي رافقت ذلك الظهور. وفي الوقت نفسه تهافتت حكومات عربية على تحريمها لأسباب سياسية أولًا، وصعب عليهم الاعتراف بهذا السبب علانية فقالوا إن المنع من أجل حماية الدين أو تجنبًا للأثر الأخلاقي السلبي. وشاع في تلك المجتمعات هذا التبرير، وتناقله عامة الناس، وربما رأوا في الشبكة شرًّا لأن الحكومات أقنعتهم بهذا الشر، وبسبب الوعاظ الطيبين البسطاء، ممن ينجرفون عاطفيًّا وجزئيًّا أو شكليًّا لاتخاذ مواقف ترضي التراث، أو ترضي الموروث والمعتاد من الطرائق المعرفية، وإن لم تكن مواقف شرعية إسلامية مؤكدة الضرر حقًّا.

وكذا كانت قصة الهواتف المحمولة، فقد أخرت الحكومات المستبدة استعمالها حتى تُخضعها لرقابة شديدة. وفي بلدان أخرى كانت المشكلة مع الهواتف من نوع الاعتراض على كل هاتف فيه عدسة تصوير، وبقيت أزمة الهاتف الذي يحمل آلة تصوير عُقدة في أماكن ومناسبات عديدة. فبينما نجد العالم المنفتح المرن على التقنية يقفز بالمنافع والأدوار التي تحققها التقنية؛ فإنك تجد المجتمع المتخلف يتضرر وينقسم ويجادل ويخسر بسبب جوانب سلبية لم تكن مشكلة في ذهن المستعمل العملي أو ممارسته هذه التقنيات.

ومن هنا تكون التقنية أداة تخلف وضرر أو أزمات في بعض المجتمعات، كما هي وسائل نهوض وتقدم بما تحققه من منافع في مجتمعات أخرى؛ لأن للبنية الثقافية السابقة دورًا في الخوف، فمثلًا كانت الصور المتداولة للبضائع حاسمة في تطوير التجارة الإلكترونية، ولكنها في بلدان عربية وإسلامية وقفت عند مشكلة وجود صور للرجال وللنساء ومشكلة احتمال تبادل الجنسين لها! فتخلف كالعادة بعضهم عن الاستفادة من الموجة ومن الغنيمة التقنية، وكانوا قليلين لحسن الحظ؛

لأنه شاعت بجانب الضرر فوائد، وبعضهم جناها شخصيًّا من شهرة أو ثروة أو دعوة -كما يقول- على الشبكة، فخفف من مكابرته ضد المصالح العامة. وبعد ذلك خفت الدعوات المجافية للاستفادة من منافعها.

وأذكر أني عانيت وقتها في إقناع أصدقاء لنزع الخوف من هذه التقنية الجديدة من نفوسهم، بعد أن صدمت بمقدار رهبة الخوف من مواجهة التقنية، بسبب ما يمكن أن تحمله من مفاسد موهومة أو موجودة ولكنها ليست غالبة، فهي وسيلة كأي وسيلة جديدة تحمل موجات نفع وضرر، ولكن السابق للتقنية الجديدة يصنع مسار كثير من هذه المخترعات ومصيرها وآثارها.

وقد تمادت العقلية الخائفة دائمًا من التقنية في خوفها وتخويفها؛ بسبب تأخرها عن الصنعة وبُعدها عن أجوائها، ورغبتها في الوصاية على المجتمع، ورهبتها من أن يكون كل جديد مضرًّا بالمجتمع أو بمصلحتها هي المكرّسة عبر القرون؛ لأنها ورثت قناعة بأن كل شيء جديد يُكتشف فهو ضدها، أو يحمل مكرًا بها أو شرًّا كامنًا فيها، أو يخفف قبضتها على المجتمع.

ثم لأن مجتمعاتنا ورثت الخوف من الآخرين وعُمّم هذا الخوف على كل شيء، وانتشرت فكرة عدم الثقة بالغرب وبمنتجاته، وتعمقت -حتى الآلية- في المخيلة الإسلامية، وأصبح من الصعب نزعها أو توجيهها بسهولة، فكل اكتشاف أو صناعة ستكون ضدهم، ويغيب عنهم أنها أداة قد يصنعونها يومًا فتكون لهم. فتحتاج حالة الخوف المرتبط بالتخلف عن التقنية الصناعية والسياسية إلى مقدار أعلى من الوعي، لا يوجد بسرعة وفعالية بسبب رصيد الشك والحذر. فحتى ما يكون من مشتركات ومنجزات وغنائم عالمية لجنس الإنسان تستغرق زمنًا، لكي تحصل على شهادة تزكية بصحتها وعمليتها وفائدتها وعدم مجافاتها للمصالح العامة.

ونعلم أن نزعة التأخر والتوثّق والطمأنينة قد تضر بسبب الطابع العصري السريع جدًّا لحركة التقنيات والأفكار، فهذا يراكم الضرر، ويسبب الحجبُ الرسمي والشعبي التأخرَ عن كسب المهارة، وكذا الحرمان، أو تأخر المشاركة في موجة نافعة.

إن التواصل والتشابك بين آلة متقدمة وفكر متقدم أصبح ضرورة ومصلحة عامة، والحياة المعاصرة هي مجموع الآلة المقتربة بسرعة من العقل والفكر البشري الجموح والمتصالح مع الظروف القائمة؛ فالتزامن والتوافق بين آلة يزيد ذكاؤها كل لحظة وعقل جامح طموح مع الذكاء لم يعد ترفًا، بل ضرورة للأمن وللقوة وللمصلحة العامة، وكل محاولة لقسر التقنية على ظلمات مواقف قديمة ومغلقة قد تحقق مكاسب موقوتة، ولكنها تبقي أزمة التصادم قائمة.

ومن هنا نجد أن المجتمعات التي بعدت عن التقنية أصبحت ضحية لتخلفها عن المعرفة والمواكبة لتقدم الآلة، فأصبحت مقهورة ومغلوبة باستخدامات خصومها للآلة. زد على ذلك أنها غابت عن الأفكار والذكاء الآلي الجديد، ولم تواكب الزمان ولا تقدم عقل الإنسان، وصاحب ذلك أو سبّبه غيابُ أجواء الحرية التي تساعد على اكتساب المعرفة بالآلات والأفكار، فلا تستطيع تطوير نفسها ولا تحديث مكاسبها وتوسيعها عبر الفكر والعمل، فتعيش الأميةَ والوحشةَ الثقافية.

أما لو كسبت هذه المجتمعاتُ معرفةً بالآلات منفصلة عن الفكر الحر، فسيكون عملها مجرد استعمال خارجي قمعي للآلة مع بقاء العقل مسجونًا. وبهذا تعيش انفصامًا نكدًا وقلقًا دائمًا بين المنفعة والمفسدة والمبالغة في طرف من ذلك. ولعل غربة هذه الآلات عن المجتمع وتكلّفه ألفتها الطارئة والمتقطعة تبقيه في نزاع داخلي دائم معها؛ لأن المجتمع لم يألف علاقة حسنة بينه وبين

التقنية والحرية، فالآلة المتقدمة تقتضي عقلًا حرًّا متقدمًا لينال منافعها وليخفف شرورها، وإلا فسيكون العقل والروح في سجن مخاوفه من آلة لا يملك حرية التفكير بها ومعها ولها وضدها.

والذي يبدو لي أن هذه المنتجات لم يعد الإنسان يصنعها من جانب واحد، بل أصبحت تصنع الإنسان المعاصر وتعيد ترتيب وعيه وعلاقته بالعالم، بطرق قد لا يعيها هو، وربما يتحدث منكِرًا لها ولكنها تصنعه شاء أم أبى. فهي تصنع كثيرًا من صحته ومرضه، بل وتُعدّل من خلقته وشكله وصورته، وتؤثر كثيرًا في عقله ومصيره ومجتمعه وعلاقاته. إنها تصنع اقتصاده فقرًا وغنى، وتصنع حروبه وسلمه، وتنقل له السعادة والشقاء والفرح والحزن، فأصبح عليه أن يبادر لامتلاك هذا الذكاء الجامح قبل أن يمتلك بقيتَه الأذكياءُ المسلَّحون بآلات أذكى منهم. إن الآلة المعاصرة عالم لا نعرف أين يذهب بنا، فلنذهب إلى هذه الآلة لنعرفها، فلم تعد المعرفة التقنية حاجة بل ضرورة عاجلة، فهي مغنم عظيم، وكل تأخر عن السباق فيها انتحار مبكر.

عصرنا هذا كان من أكثر العصور إثارة للتضاد الثقافي بسبب التقنية التي أنتجت أحدث مظاهر العولمة وأنجعها، فسواء حددنا سبب التضاد الثقافي الشديد بالتقنية أو بالعولمة فلا حرج، وإن كان أولى تحديد العولمة سببًا للمصادمات الثقافية القاسية في زماننا. وقد كانت الأديان سببًا في الماضي في المصادمات الثقافية، ثم كانت التقنية سببًا في المجتمع الواحد للمصادمات الثقافية، حين بدأ الشباب يستعملون التقنيات الجديدة في أمريكا خاصة، وعانى كبار السن من تمثل هذه التقنيات، ثم ما حملته معها من ثقافة موسيقى وأفلام ودعايات.

غير أن التقنية حملت في بطنها للعالم كله تحديات قاسية في المراحل الأخيرة، وكان السبق لمن كانت له الآلة الناقلة، واستطاع أن يحمل عليها آراءه، ولكن الباقين وجدوا من السهولة تحميل آرائهم على المنتجات الجديدة. يستوي في هذا فنون الصين والهند، ومحاضرات القرآن، ودعايات اليسار، وإعلام أمريكا الجنوبية، وخطابات كاسترو وهوغو شافيز، وتلفزيون حزب الله، ومواقع تنظيم القاعدة، والمواجهات الإسلامية المسيحية في بلدان عربية، والتبشير بالمسيحية، والدعوة إلى الإسلام.

وكما كان استخدام الطائرة الأول في المعارك الحربية في إيطاليا رغم كونه استخدامًا بدائيًّا، حيث حملوا الليبيين الرافضين للاحتلال الإيطالي على الطائرات ثم ألقوهم من الجو ليموتوا؛ فإن ردًّا غريبًا جاء -بعد نحو قرن- على طريقة القاعدة باستخدام الأبدان والطائرات سلاحًا وتفجيرها في المباني في نيويورك، فحملت هذه الآلة أغرب نماذج الاستعمال بعد أن جربها الغربيون في الرمي بالقنابل النووية، وأنواع أخرى يحرمون من أنواعها ويحللون كما يشاؤون، ثم يستثنون مما يحرمون ما شاؤوا بحسب الضحايا، فما يمكن أن يدمَّر به الآخرون (من غير البيض) فقد أصبح لغيرهم مباحًا.

وقد حدث جدل كبير حول الدوافع العنصرية في الحرب العالمية الثانية؛ إذ يجادل مثقفون يابانيون بأن القنابل النووية استُخدمت ضد اليابانيين مع أنهم كانوا محاصرين وأوشكوا على الهزيمة، ولكن أمريكا أحبت أن تجرب السلاح الجديد في جنس غريب ودين غريب ومكان بعيد ليس مسيحيًّا ومن الجنس نفسه كالألمان[244].

المهم أن هذه الآلة كانت حاسمة في تغيير مصائر البشر على هذه الأرض[245]، وهي في الوقت نفسه تحمل الثقافات ونتاجها المفيد والمرعب في كل وقت، والثروة التي يملكها من يستخدم الآلة لم

يزل حاسمًا في نتاج هذه المعارك، وليس فقط الحق والباطل، فقد أيدت المخترعات سطوة القوة على الحق، فأصبحت القوة هي الحق، وتراجعت العدالة في العالم.

في المجتمعات الحديثة طبقة تستهلك الثقافة، بارعة في مجالات جديدة وسعتها وطورتها التقنيات الحديثة، وتزيد هذه النوعية وتتحول باستمرار بحسب تحول التقنية، وعلاقات العمل والإدارة، فهي ليست بالضرورة مما يسهل تصنيفه داخل بيئة الثقافة ويصعب إخراجها منها؛ لأن منها من يقف على أحدث منتجات عقل الإنسان ولكنه في الوقت نفسه حِرفيّ، ولأن تطور الآلة طور معها الإنسان الذي كان يسمى حرفيًا قديمًا، فهو اليوم أشد ذكاء من أذكياء العصور القديمة ممن كانوا يُسمّوْن الحرفيين، فهو أحيانًا فنان حرفي، أو رياضي حرفي، أو صانع عقله أقرب إلى عقل مبتكر مبدع.

وتحوَّل الحرفي فصار مؤثرًا في تغيير المجتمع والأفكار؛ فمثلًا تحول الطبيب القديم في عصرنا ليكون مع هذا حرفيًّا آليًّا ليواكب تطور الهندسة الطبية، ثم بعد ذلك تحول بعض الأطباء ليعرفوا من أسرار العقل عوالم خطيرة تربط بين المكون البيولوجي والأفكار والتوجهات عبر خبرة مهنية لا فلسفية، وهذا العلم المتطور للدماغ يَعِدُ بمنافع ومخاطر جمة. وكذا تطور فروع في الطب والصناعة تعِد بخير عظيم وبشرور لا تقل عن ما عرفه الإنسان في زمن الأسلحة الحديثة.

ونجد خبيرًا في الكمبيوتر وهو عامل حِرفي، ولكن حرفته سهلت عليه استعمال الحرفة في الإثارة الثقافية والسياسية -وإن كان ضعيفًا أو معدوم التأهيل الثقافي- مثلًا، ولكن توسع اتصاله صنع خطورته الفكرية والسياسية، فأصبح مساهمًا في توجيه الأجواء الثقافية بطريقة جديدة، وكذا الحِرفي في الإنتاج الإعلامي، أو لأنه يتولى منصبًا إداريًّا في مؤسسة ثقافية، أو شركة ذات علاقة بالتأثير العام الفكري والثقافي.

فأصحاب هذه المهارات في التعامل الآلي أصبح كثير منهم يستهلكون كثيرًا من منتجات الثقافة ويعيدون نشرها وتوجيهها. وأحيانًا قد يكونون مستهلكين صامتين أو متعاطفين مع فكرة أو موقف، وسرعان ما يؤثّرون في أوضاع مجتمعهم ثقافيًّا وسياسيًّا في حال انسجام هذه الطبقة المهنية مع التقنية الحديثة. وعندما ينقدح في هذه التجمعات موقف سياسي أو ديني أو اجتماعي فإن خطورتها تساوي أو تزيد على دور المثقفين المعتادين، أو من يصلح أن نسميهم «المثقفين القدماء أو العاديين». ولكن هل هؤلاء مثقفون؟ لا ليسوا بالمثقفين القدماء والعاديين؛ فهم تركيب جديد من آلة وذكاء، أو هم الذكاء الآلي الثقافي، أو هم شيء جديد وعلينا أن نصنع له تسمية جديدة.

ومن أمثلة هذه الحال بيل غيتس مؤسس مايكروسوفت (شركة البرمجيات الشهيرة)، فقد جعلته مهارته التقنية وشهرته مساهمًا حتى في الثقافة والنقد الثقافي، ولديه موقع يقيّم من خلاله الكتب الحديثة، ويؤثر تقييمه في مكانة تلك الكتب التي تخلط التقنية بالمعارف العامة والإدارة. وفي العالم العربي أهّلت بعض الشهرة والمهارة التقنية أصحابها لدور ثقافي خارج مهنتهم، بل أحيانًا لدور ثوري.

وبحكم توسع هذه الطبقة في عصرنا وكثرتها وغناها، أو اكتفائها وعدم حاجتها إلى السلطة؛ لأن سلطتها أصبحت واسعة بل عالمية، فهي مكتفية بمهنة ولا تحتاج إلى الحكومات ولا إلى مؤسساتها، فهذه المهنة المستقلة مع موقف من المؤسسات القائمة أعطاها ويعطيها أثرًا كبيرًا في مستقبل المجتمعات، وهي وإن كانت مهاراتها المهنية اقتضت تدريبًا ووقتًا طويلًا، فقد أبعدتها عن عمق الثقافة ومتعتها بحسب المفهوم القديم للثقافة.

ولكن من هذه الطبقة الآن من يرون أنفسهم مثقفين -وبعضهم كذلك فعلًا- فهم يجدون في التقانة العالية ملجأ أشبه بالتعويض العقلي والروحي –إلى حد ما- عما كان يُعدّ ثقافة. وتوفر لهم التقنية فضاء التنظيم الأسهل من ذي قبل، ويمكنهم قلب التنظيم التقني إلى سياسي وفكري وروحي في لحظة، فهذه الثقافة الجديدة خطرة جدًّا على مستقبل المجتمعات في تحقيق خيرها أو سوق المصائب إليها.

علمًا أن البراءة والبساطة والبعد عن العمق المعرفي العام يجعل هذه المجموعات صفوفًا محافظة اجتماعيًّا وأخلاقيًّا، وسهلة الاختطاف لمواقف سياسية ودينية محليًّا ودوليًّا بحسب ما ينتشر من «ثقافة التقنية»، وهي مزيج بين الفكرة والآلة، وهذه ظواهر شديدة الحداثة. وكل ثقافة تخلفت عن التقنية والامتزاج بها فستصبح في حكم الميتة؛ لأن اللحاق الثقافي بالتقنية شرط بقاء في العصور الأحدث. وهناك ثقافات ومعارف ومذاهب في عالمنا العربي والإسلامي -بل في غيره- تأخرت قليلًا عن اللحاق بالتقنية فماتت أو أصبحت في حكم الميتة.

طبقة الخبراء والمدراء وخبراء التقنية الحديثة تجعلهم مِهنُهم العالية ضحايا أحيانًا لذوي قدرات ثقافية وتقنية أدنى؛ بسبب غياب الحرية والمشاركة العامة للمكاسب والخسائر التقنية والثقافية، فتراهم يستغلون التقنية للترويج فيستتبعون هذه الطبقة المتمرسة التي تتمنع أحيانًا وتتعالى ولكنها تجد نفسها مجردة، وتستهلك وتتبع بسطاء من وعاظ وصحافيين ومغنين ومثقفين من درجات بسيطة ثقافيًّا وأحيانًا بالغة البساطة ذهنيًّا؛ لأنهم أكثر شعبوية وأقرب إلى السلطة وكسروا حاجز التزامن بين التقنية والثقافة.

ولأن هذه الطبقات المهنية أو ذات المهارات المهنية العالية تتفاهم وتتواصل كثيرًا تقنيًّا، فإنها تقبل مع التقنية ومع علاقات العمل توابع أخرى، فتتبادل الروابط والملفات المرسلة المرئية والصوتية والصور والأفلام والقدح والتزكيات، وكذا مهنتها اليدوية والذهنية تجعلها في حال جوع ورغبة مستمرة لتلافي النواقص والمجاملة أحيانًا، والمسايرة والرغبة في بقاء ذاتٍ خارج المهنة؛ فإن حياة ثقافية وروحية عابرة التخصصات والقوميات والعالم تنمو في هذه البيئات، وتصنع مجتمعات سريعة التكاثر والتعارف والتأثير. وهي تنمو لتكسر الحدود بين المهن والأعمال والسلطات، وهذا يزيد توتر البيئة الثقافية ولا يخدمها دائمًا، خصوصًا في البيئات المغلقة.

المتواصل أو ما بعد المثقف

ما بعد المثقف أو ما يمكن تسميته هنا بـ«المتواصل» المؤثر في شبكات التواصل الاجتماعي، وهو الذي يستعمل وسائط التواصل الأحدث في التأثير العام، وهي شبكات نبتت من الإنترنت وتتميز بأنها جديدة ومتجددة وعديدة جدًّا، وتفتح في كل لحظة نوعًا أو فرعًا جديدًا منها يشق على المهتم المتابع ملاحقتها فضلًا عن غيره، وتشتبك فيها كل وسائل وطرق التعبير. فالحديث لجهاز ينجز ترجمة صوتية أو نصية إلى لغة أخرى أصبح أمرًا عاديًّا منذ زمن، وكأن الجهاز أصبح مترجمًا فوريًّا. ورغم نقص الكفاءة فإنه أحيانًا يؤدي الحاجة الإنسانية دون تدخل كبير من الإنسان، في وقت كتابة هذا النص.

وما تلبث أن تقوم إحدى هذه الوسائط حتى تنشأ معها أخرى، وتموت أو تتراجع أخريات، غير أن بحثنا هنا عن الإنسان المتواصل مع كثيرين باستمرار عبر هذه الوسائط، فلا يقتصر دورها

على ما كان قديمًا يُعرف بالرسائل، ولا الإنسان المتواصل الحديث هو من نمط المثقف القديم في التلفاز والراديو، بل هي وسائط تصنع إنسانها كما صنعت الصحافة الصحافي وأوجدته إنسانًا ومهنة جديدة.

ذلك المشارك في وسائل التواصل الاجتماعي هو المقصود بما بعد المثقف، وهو ذلك «المتواصل». وقد انصبّ عليه نقد شديد؛ فهناك من ينكر أهليته ويأسف لوجوده، ويراه انتشارًا للحمق، كما صرّح إمبرتو إيكو في أواخر تعليقاته قبل وفاته عن هذه الظاهرة[246]. وهناك من فرح به وطار تمجيدًا لدوره، ولكن سرعان ما انقلب عليه. المتواصل شخصية فارقة في مجتمعه ومهيّج ومنقذ ومؤذٍ؛ ذلك أن التواصل والصوت امتلكته دائرة أوسع من كل الدوائر السابقة، فلا الطباعة استوعبته لأنه ليس مثقفًا متعلمًا نمطيًّا، ولا الراديو لأنه مؤسسة تملكها سلطات المجتمع السابقة، والوسائل القديمة ليس سهلًا الوصول إليها دائمًا، ولا شبه مجاني كما هي الشبكة العالمية بتعدد وسائطها. وهذه سيطرة على الزمن، بل يكاد ينعدم فارق الزمن بين المرسِل والمستقبِل.

وعنده ميزة أخرى أنه أيضًا أكثر اتساعًا في جمهوره؛ ذلك لأن الصحافي يعرف جمهور جريدته، وكذلك رجل التلفزيون والراديو إلى حد بعيد، ولكن هذا مهما كان متابعوه فإنهم يمثلون توجهًا ومدرسة، فإن لحظة واحدة تكسر الحاجز مع جماهير فكرة ومدرسة أخرى قبل وصول المهتمين بها.

هذا الكائن مخيف للجميع، وهو مكون من الجميع، وقد ظهر أثره والخوف منه لدى كل الجهات، خاصة لدى الحكومات الدكتاتورية؛ فاضطرت إلى صناعة «متواصلين» وتوظيفهم بحيث يمثلون دور الحكومات، وما كانت دعاية «البَيْضِ» [كما سميت في أول انتشارها بين العرب] وهي رمز لصورة البيضة على تويتر (رمز ولادة بيضة لم تفقس بعد)، التي هي رمز شخص متنكر أو يريد التنكر أو جديد بدأ الكتابة ولم يضع صورته وبياناته بعدُ، ثم جاءت موجة الصور حتى تخفف من الوصف الأول، أو تكون رمزًا لمن لا يُعرف أو لا يحب أن يكون معروفًا.

ولكن التخفي والأسماء الرمزية بقيت ملازمة للمتواصل والمتلقي المختفي، وإن كانت هذه الرموز غالبًا لا تضع ولا تصنع تأثيرًا كتأثير الأسماء الحقيقية. وقد تتستر وراء صور وأسماء رمزية، ولا تمارس إلا قمعًا دائبًا لمن تتوهم أنهم ضد موقف حكومة ما، ويهاجمون جماعيًّا المنتقد للسلطات أو الداعي إلى أي إصلاح سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي، أو لمن يظهر نقدًا ولو يسيرًا للسلطات، وأحيانًا من يُفهم من كلامه النقد للسلطات، فضلًا عن من له تاريخ في انتقاد السلطات.

وقبل ذلك أيضًا نجح جدًّا نموذج آخر من هذه «المُعرّفات» أو بالأصح النكرات من حيث الأسماء، ولكنها بالغة الانتشار والتأثير، انتشرت في مواقع بدائية مع بداية صعود الشبكة كمواقع «الساحات»، ثم زادت وتطورت مع تويتر وفيسبوك.

وهذه الأسماء أو المُعرّفات المجهولة تصعد وتسقط بمقدار قيمة ما تقدمه وأهميته، ومنها معرفات مهمة جدًّا ومؤثرة وأتباعها بالملايين (تجاوز المشتركون في فيسبوك ربع سكان الأرض تقريبًا وقت كتابة هذا النص)، ويفوق تأثيرُها وصيتُ رموزها كبارَ المثقفين والمؤسسات الموجودة على الشبكات، بل المؤلفين والصحافيين. غير أن هذه رغم تأثيرها الحاضر قد تختفي في السحاب الافتراضي غدًا، وكأن لم تكن وكأن لم تؤثر.

ولهذا فإن الاسم المعروف المعلن أبقى من الرمزي والمتخفي، والمتخفي في الشبكة أشبه بكثير من الكُتاب الذين تخفوْا ولم يبدعوا تراثًا يلزم بالعودة إليهم، ولا واظبوا فالتزموا أسماءهم الرمزية بقية أعمارهم، مثل لينين وأورويل وغيرهم كثيرون. وتبقى المجتمعات الدكتاتورية تحتاج وتتجاوب وتتنصت للأسماء الرمزية؛ لأنها لا تثق بأن أحدًا يجرؤ على أن يقول الحقيقة عن وضعها ومجتمعها وأحداثها السياسية المهمة. فما دامت تصدق فيما تقوله سرًّا، وتكذب فيما تقوله علنًا، فهذا هو الوصف الصادق لمن سيعبّر عنها؛ فالشخص المعروف يخاف على مكاسبه أو على أقربائه من الانكشاف أو قول الحقيقة.

تبين أن فاعلية المتواصل أسرع وأكثر، ولذا يبدو للجميع أن الإنسان المرتبط دوره بأحدث اختراع وأسرعه وأسهله وأكثره انتشارًا يزيد من أثره ومن تعميم موقفه، ويتراجع من حيث نوعية النص المكتوب أو المصوّر وكمية النص أو مدة الصورة أو اللقطة، بسبب قصر الوقت. فهي غالبًا بلا وقت للإعداد؛ لأن عمادها السرعة القصوى، فقد أصبح كل ممسك بجهاز ذكي يمكنه أن يكون صحافيًّا أو يشارك -ولو دون إعداد ولا استعداد- ليكون صحافي اللحظة. ويقابل ذلك الحيوية والسرعة والانتشار والتأثير الأوسع، فهي أرخص وأكثر فاعلية.

غير أن من المعتاد أن هذه الوسائل التواصلية تتراجع بعد توسعها لمصلحة موجة تواصل جديدة تصنعها آلة أو برنامج جديد، كانت الآلة تحمل المنتَج ثم تحولت إلى البرنامج. وما دام البرنامج يقل عدد منتجيه وتتعقد وسائل استخدامه فإنه يتراجع ويكثر بطريقة معاكسة مع السهولة والانتشار. فالتلفاز -وقبله الراديو- كان يعتمد الصناعة الآلية المباشرة، ولكن التواصل يترقى مع الزمن ويخف بيد المستعمل باطراد، ويقترب من الإنسان، ويكسر الحواجز، ويتداخل مع البدن (أعضاء الإنسان)، حتى إنهم لَيتخيلون الدخول المعلوماتي إلى الدماغ! فالمسافة بين التلفاز والنظارة الحاملة لكل ما ترغب فيه كبيرة، ولا نعلم ما سوف تحمله وسائل ما بعد النظارة.

وهم نهاية دور المثقف

اعتذر جاكوبي في مقدمة طبعة سنة 2000 عن توقعه السابق بنهاية دور المثقف في عنوان كتابه **آخر المثقفين**، وأنه كان سعيدًا بخيبة توقعه. ولعل من الجدير بالذكر أن نخفف من الاندفاع باتجاه القول بتراجع دور المثقف أو دور العالم أو دور النخبة، فليس هذا صحيحًا، وليس عليه دليل تاريخي ولا واقعي؛ ذلك أن تمثيل هذه النخب للمجتمع ولحاجاته ولمصالحه يُبقي للمثقفين قيمة وأهمية كبرى كلسان للمجتمع، يعبر عن احتياجاته ويصوغ رؤيته في داخله وفي التعامل مع سلطات المجتمع المختلفة، بل يؤثر في خارجه. لذا فإن موجة عصرنا توسع دور المثقفين المتواصلين وأشباههم، فالشكوى قد تكون من النوع، أما التوسع والسرعة فمتحققة.

ولهذا الأمر حصاد اجتماعي وحضاري مهم؛ فهذه السرعة كسرت الفوارق بين الشعوب والحضارات، وألحقت في هذا الميدان المتأخرَ بالمتقدم، شعوبًا ومتواصلين، ومتابعة ومرافقة للتقدم. غير أن هذا لا يعني أن مجتمعات ستلحق مدنيًّا واقتصاديًّا وتسد الفجوة بمجرد الآلة المستوردة، ما لم تحسن من حالتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمشاركة الحرة، لأن هذا الإعلام قد يبقى في دائرة السخط واللوم والتهمة والتخفي وضعف التعليق عليه بما يبني؛ لأن المعلومة حين يهيمن عليها المحتج المخالف للدكتاتور تصبح سلاحًا للطعن المتبادل لا للتربية ولا للتنبه والترقي.

أما سقوط دوره أو ارتفاعه فليس بسبب وسائله فقط، بل بسبب مستوى تكوينه الفكري، وموقفه من قضايا زمانه، وبحسب ظروفه المجتمعية، فحيث يسود الاستقرار والرخاء والعدل يضمر هذا الدور، ولكن الحريات تبقيه وتبقي له ميدانًا ولو ضعفت حججه وغابت أسباب مقارعته عند بعضهم، وأنّى لقضايا الإنسان أن تنتهي وتقلّ، بل تحتد في مكان وتقلّ حدتها وحاجتها وضرورتها في مكان آخر.

ثم إن ربط المثقف لمجموعة هموم المجتمع بروابط ثقافية مختلفة -منها المعرفي التاريخي والحالي- إنجاز يصوغ معنى للقضايا التي يهتم بها الناس، والمثقف هو الذي عليه إنجاز التسمية والتعريف بما يلمّ بمجتمعه. فقبل التسمية والتعريف لا يشعر المجتمع بحق ولا بباطل إلا قليلًا، ولو شعر فإنه لا يعرف طريقة للتعبير والتكوين لغرضه، ما لم يساعده أحد على صناعة المفاهيم والأفكار والصفات الحسنة والسيئة لما يرغبه أو لما يكرهه. وهذه التسمية والأوصاف والشعارات والشروح والتعريفات إنجاز عظيم في طريق بناء الموقف المجتمعي من الحق والباطل والخير والشر للمجتمع.

فمهما امتلك المجتمع من وسائل التعبير فهي مثل حديث العوام المعتاد بخيره وضعفه، ولكن المثقف يضع لها مسارًا وتفسيرًا وهدفًا، ويسهل معه وبعده على المجتمع أن يدرك مراداته. وفي لحظات الحسم المجتمعي للمواقف والهياج لتحقيقها يتقدم العامة والكثرة على مواقف المثقفين أحيانًا، ويصبح المثقف في المؤخرة يتساءل: ماذا حدث؟ وماذا أصاب الناس من هياج؟ ولماذا؟ وقد يتهمهم ويخوّنهم لأنهم تجاوزوا فكرته وثقافته وموقفه، وكان يريد أن يبقى هاديًا للجموع فإذا هم يفكرون وينفذون ويتجاوزون ما كان يؤمن به هو ويفكر فيه، وقد كان يرى نفسه هو الطليعي الفهام الهمام، فإذا هو أقرب إلى موقف متأخر بائس هو موقف من كان يعيّرهم بالرجعية.

أما الوسائل التي توفرت وحققت إنجازًا لعامة البشر فلم تغير كثيرًا من طبائعهم، فهم يحتاجون اليوم وغدًا إلى من يوجههم ومن يقودهم إلى طريق دون آخر. ونزعة الاقتداء عامل فطري لا يمكن نزعه، بل إن الوسائل المعاصرة وسعت وعززت دَور الاقتداء والتشبه. إن هذه العقدة أو الحسنة (حالة الاقتداء) لم تغب ولم تضعف، بل وجدت طرائق أجدّ وأبلغ لممارسة دورها وتمكين أثرها. وليست صحيحةً قصةُ نهاية دور النخبة وصعود نجم العامة، بل امتلك الجميع وسائل أحدث وأخطر للتبادل المعرفي ولنشر الرأي، وهذا يضاعف دور الجميع مع أو ضد الجميع. إن الوسائل كوّنت مصادر قوة لكل بحسب ما يملك وما يستخدم، وليس ذلك إنهاءً لجماعة على حساب أخرى؛ لأننا حين نقول ذلك نفترض تماثلًا غير موجود.

الآن من كان يمكنه أن يقتدي به ألف أو مليون تضاعف هذا الإعجاب عبر الوسائل، وحتى شعارات زماننا وألفاظها فيها كلمتا «معجَب» على فيسبوك، أو «متابع» على تويتر، وهي مصطلحات الوسائل الحديثة التي يتبادلها العالم اليوم. وربما نجد لاحقًا كلمات «جمهور» و«مشجع» و«مؤيد» في برامج أخرى. وحتى إن تغيرت الألفاظ فإن المهم هو: ماذا تعني وكيف تصنع المواقف وتتبع المشاهير، وهؤلاء المشاهير غالبًا ليسوا هم المثقفين بنمطهم الذي يعرّفون به أنفسهم، بل بحسب اختيار الجمهور لمثقفيه الذين يقدمون له زادًا ثقافيًا أو روحيًا أو عمليًا من نوع يناسب رغبات الجماهير.

«يا رجال المعمورة الذين هلكوا عبر العصور،

لم تعيشوا فقط لتخصبوا الأرض برمادكم حتى تُجبر ذريتكم في نهاية الزمن على أن تكون سعيدة بالثقافة الأوروبية. م

جرد فكرة ثقافة أوروبية متفوقة هي إهانة سمجة لعظمة الطبيعة»[247]

هردر

خاتمة

لعلي أفهم من قوله صلى الله عليه وسلّم: «أنتم شهداء الله في أرضه»[248]، أنه يشير إلى أهمية أن تعبّر عن رأيك، فأنت شاهد على الزمان وقضاياه، شاهد على حق تؤديه وتنصره وعلى باطل تمنعه وتدحضه، شاهد على حق غائب أو مغيَّب بقصد، غيّبته منافع مفسدين وطغاة، وعجز الآخرون عن الشهادة أو خافوا أو جبنوا، أو هم هناك ينتظرون عونًا من ضميرٍ شهمٍ ومن إنسان مقتدر على أن يقول الحق ويضحي في سبيله.

ومطلوب أن تعرف، وأن تقول ما تؤمن به مما يُصلح المجتمع، فالصامت عن الحق شيطان أخرس، وإن احتاج مجتمعك إلى بيانك أو شهادتك وموقفك الصادق ثم سكتّ فهذا خذلان للنفس ولقدْرها، قبل أن يكون خذلانًا لمجتمعها ولأمانتها ولدورها ومسؤوليتها. وهذا لا يعني أن نسخر من ثقافة وموقف مجتمع، بل علينا أن نقدّر ما توصل إليه المجتمع الحر الذي لم يخضع لعمليات إفساد أخلاقي ولا تدمير لضميره، فالضمير الحر شاهد صادق على قومه وزمنه، وفي النص تقدير للموقف العام الحر من الأشخاص والقضايا القائمة، وتقدير للرأي العام في المجتمع.

إن كان المثقف في المجتمعات التي حققت حقوقها وتطورت حرياتها قد خبا نجمه وضعف دوره فذلك يليق بتلك المجتمعات. أما مجتمعاتنا فهي أحوج ما تكون إلى المثقف الحر ليقوم بدوره لأنه لم ينجز إلى الآن. والمثقف عندنا أحيانًا لم يزل يتلمس أو يحاول وضع خُطاه الأولى، ولم يقم جمع كبير منهم بواجبهم، ولا يجوز لعاقل أن يقارن دور مثقف لم ينجَز بدور مثقف في مجتمعات أخرى؛ فالمقارنة السلبية خداع، فنحن على العتبات الأولى وينتظرنا دور وأمانة ورسالة لم تُنجَز وفراغ رسالي عظيم، في أمة ينهبها الجهل والخوف والاستبداد والتبعية؛ لأن قادة الثقافة لم يقوموا بما يجب عليهم، وكانت العوائق أحيانًا أعظم من إمكان شق طريق أو كسر جدران الظلام والوحشية المحيطة.

ومن سوء ما يهدم الرؤية والرأي العام خضوع مجتمع لاستبداد طويل، ولإفساد أخلاقي عميق، ولا حل مع مجتمع التدمير الأخلاقي إلا بإضعاف مصادره، بل الابتعاد عن تلقي سموم الفساد، وتجنب مناطق إرسالها أيًّا كانت؛ لأن مواقف السوء لا تضمن الخلاص منه ولا من ثقافته وآثاره. وقد ذكر الجاحظ عن قول الله تعالى: «سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحْتِ» أن القرآن قرن [أو ساوى] بين الكذب والاستماع إليه، فكان الاستماع إلى الكذب جريمة لا تقل عنه أصلًا[249]. ولو لم تجد فكرةٌ مستمعًا إليها ولا مروجًا لها فإنها تموت، ونادرًا ما تحيا فكرة لمجرد وجودها في وسيلة حفظ كالكتب، ما لم يتصدر أحد لنشرها أو إعادة عرضها[250].

ثم إن لأفكارنا صلة جذرية بزمانها وقضاياها، وعندما نتوقع الخلود لموقف أو لفكرة فإنما نسير عكس قصة هذا الإنسان وسيرته، غير أن اللائق بنا أن نقوم بما يجب حين يجب في زماننا، ووفق نتيجة لجهد مخلص في تأمل مآسينا ومنافعنا ومضارنا.

وقد قرأت لنيقولاي بردياييف نصًّا في مذكراته العميقة يتحدث فيه عن الضباط الشيوعيين الذين كثيرًا ما قتل بعضُهم الناسَ ليكونوا ملحدين أو شيوعيين، وأنهم كانوا يخالفون ليلًا وسرًّا إلى القسيس للاعتراف بالذنوب ويرجون الغفران. وحدثني أحد الأطباء النفسيين الكبار أن الضباط الذين كانوا يعذبون المعتقلين في السجون ويضربونهم في التحقيق أو أثناء الاعتقال، كثيرًا ما كانوا

يراوحون الوقت بين جرائمهم وعيادات الأطباء النفسيين لما يعانونه. ولا أقول إن هذا فقط يحدث لمن لديه ضمير حي أو بقية منه، ولكنه الإنسان يعي ويصحو في ذواتهم. وهناك نماذج دائمة من ضحايا الاستبداد الذين يمارسون الإرهاب الحكومي ضد الضحايا ثم يصبحون هم ضحايا ومنكسرين نفسيًّا، ويشعرون بوضاعة أمام مجتمعهم الذي تضرر بهم.

فكم بين الموعظة والتحليل، وكم بين العلم والخيال، أو بين الرسالية والمعرفية! إن المسافة بينها ستجدها أحيانًا أقرب مما تتخيل. فلنسع لما يفيد هذا الإنسان الذي عرفناه، وليسع غيرنا لنفع الإنسان الذي يعرفه، ولنعلم أن منطقة بينهما نافعة للجميع. أما الذين يهربون من ماضٍ عاشوه وتوقعوه رساليًّا ثم تغيروا فكرهوه، فقد يندفعون عكسه، وأحيانًا يروّجون للسلبية أو لباطل أشنع يرونه حقًّا قادمًا، مع أنه لا قيمة له في أغوار النفوس، وما الدافع إلا انتقام موقف حاضر أو قناعة موجودة الآن من موقف بريء سابق. وأوضح الأمثلة على ذلك موقف المتدين الذي يلحد فإنه يصبح مبشِّرًا ذا هوس بالإلحاد، لا لقناعة به ولكنه يرى في التبشير به بحثًا عن قناعة بطريقه الجديد ومبررًا لما حدث له، وكذا من آمن بعد إلحاد فإنه يتحمس أكثر للتوثق والطمأنينة عبر الدعوة إلى ما جدّ له من يقين.

ومهما يكن من قبول أو رد لما يقال ويكتب فإنه رصيد قناعة وتراكم لمواقف تؤسس ما بعدها، وحتى لا يشعر الحق بأنه يتيم في زمن وبلا تجذير وتأسيس أو بأنه غريب وشاذ، فإن إغناء اللاحقين بمواقف وآراء سابقة لا تقل خطرًا عن مواقف تتخذ في زمانهم. وكم رأينا أجيال زماننا مكبلين بمواقف مثقفين من الماضي البعيد أو الأمس القريب، يجدون في تلك المواقف عوائق عقلية ونفسية ودينية عن أن يفكروا في الخير فضلًا عن أن يفعلوه.

ورأيناهم يتطرفون في مواقف وآراء لا لأنها حق أو باطل، ولكن لأن مثقفًا أعجبهم في الماضي البعيد أو الأمس القريب فعلها. ولا يخطرنّ ببالك أن هذه الطرق وسموم الفكر حالة بأمتنا واقعة في زماننا وبلاد المسلمين، لا؛ فقد رأينا أشنع ما يفكر فيه الناس ويمارسونه في أكثر بلاد العالم قوة وتعليمًا وحرية، حيث يقعون تحت سخافات قديمة ثقافية وتاريخية ودينية وحتى قانونية، تجردت من العقل والعلم والإنسانية ونفذت تطرفها المريع، ووجدت في رصيد الثقافة زادًا لمواقف تصنع الشر، وكان من رجالها ومن الصادقين البارّين بمصالحها من ينبه ويحذر من تلك الضلالات. وهذا ما يجب فعله مهما يكن السواد مندفعًا لموقف أو لانتقام، أو لدعوى تأصيل أو تبرير قديم لما كان فيه أو لما يريد أن يكون عليه.

وبما أن من أهم الأدوار ذات الأولية والأهمية القصوى للمثقف أن يقف ضد طغيان المؤسسات في مجتمعه، فهو ناقد ومراقب، ويستمد مشروعيته ودوره الأهم من رقابته على هذه المؤسسات التي تغتال حريات الشعوب، سواء كانت هذه المؤسسات مؤسسات الحكم المباشر أو المساندة لها مباشرة أو صامتة عن رفع الظلم والضيم عن الناس. وبئس مجتمع لا يقوى على نقد الظلم ورفع الفساد المغتال للمجتمع، والذي يضع من قدر الناس وحياتهم وحرياتهم، أو يسكت عن تفريط المؤسسات في حقوق الناس وكرامتهم.

المثقف يأخذ مسافة يبتعد بها عن عاطفته وطائفته، وعن هيجة مجتمعه، ومسافة عن تهييج حكومته التي قد يكون موقفها حقًّا أو إثمًا عظيمًا. إنه يراقب بنزاهة ويناصر بثقة بالحق، وحين يبتعد فإنه يفعل ذلك ليتأكد ويعرف، وليستخدم وسائله بصدق ووعي في تقييم الموقف، ولكنه ليس جبانًا، فهو لا يتفرج بل ينغمس في بيان ما يراه حقًّا. إنه لا يمتص العفن الثقافي والعاطفي في

مجتمعه ولا العفن القادم من مجتمع آخر، بل ينظف ويتخلص ويخلص الناس من سموم الثقافات والاندفاعات والولاءات العمياء.

المثقف الحق فيه بذرة عصيان، بل له سلاح صارم من العصيان والجفاء للتبعيات والانحيازات والهزائم المجتمعية. إنه يعصي ليبني ولا يعصي ليشتهر، يعصي لا ليخالف ولكن لأن لديه نورًا يراه بعلم وصدق وحدس ويُصرُّ على أن يدل عليه. إنه يدرك أن العصيان هو فضيلته حين يكون موقنًا بأنه على حق، وهو رذيلته حين تستولي عليه الأنانية والفردية الفجة، فهو يصدق في العصيان حين تنساق الجموع لتبعية وجماعية غافلة، ولرذيلة وتعصب وجور، والعصيان رذيلة في حقه حين يكابر في معروف وخير، ومصلحة عامة لاحت عندما يتبين الحق.

وهو يشارك بكل وسائل التوعية والتعريف، إنه ركن في الخطابة ضد الباطل، وركن في البيانات السياسية والفكرية التي لا تترفع عن جزئيات الحق في الموقف. إنه ليس عالمًا يركن إلى البحث عن الحق في مسألة قد يودِّع عالَمنا ولم يقل فيها شيئًا، أو لم يفهم ولم يعرف، أو اكتشف وسيرسل مقالًا أو كتابًا إلى المطبعة أو إلى مجلة علمية أو تخصصية تشيد بدوره وينال عليها شهرة أو درجة علمية، وليس فيلسوفًا يعتصر عقلًا باردًا على صفحات تخرج وتحقق على عشرات السنين لو عثر عليها أحد.

المثقف ليس كذلك، إنه حياة الفرد والمجتمع والفكرة، ونور في مدلهمات الأفكار واضطراب المصالح، يشتعل دائمًا ويُشعل الحق في ضميره وضمائر الآخرين. إنه يصلى الناس ويحترق ويسجن ويهاجر ويهرب ويخسر ويربح ويعز ويهان. إنه يمارس المسؤولية الإنسانية في ذروة اللحظة، ولا ينتظر مستقبلًا يبرق ولا ظلامًا يحلّ، بل يتفاعل بثقة وأمانة وصدق مع اللحظة وفق ما تساعده به أخرى وسائل عصره الموصلة للتأثير إلى آفاق العالم.

إنه ذلك الذي يسخرون منه لأنه لم ينجح، ولكنه لا ينتظر انبلاج الموقف بل يصنع هو الانبلاج. إنه لا ينتظر على الأعراف سنين يراقب تميُّز الحق عن الباطل ويخفي جبنه تحت شعار التبين، بل يعمل بجد ليتبين والحق لا يحتاج منه عمرًا، ولا يقف لأنه يتبين الغنيمة الذاتية فينتصر لها، بل هو ضمير وعقل وأمانة موقف ووعي تجعله يَشهد ويُشهِد، ويذهب إلى كل محاكم العدل والفكر لقول الحق، ونفع المُحِقّ، وقمع الجائر بكل وسيلة يطيقها.

هي النفس إن ألقت هواها تضاعفت قواها وأعطت فعلها كل ذرة

ابن الفارض

ملحق

رؤية في العلاقة بين المثقفين والسلطة[251]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هذا ما تيسر إيجازه في موضوع كتابة رؤية في علاقة المثقف بالحكومة، بناء على طلبكم، آملًا أن يكون ملمًّا بجذور بعض الإشكالات وصريحًا في معالجتها، فما أردت له أن يكون خطبة تزلف، ولا كلامًا منمَّقًا يكون ستارًا يحول بين الحق ومن يجب أن يسمعه، وقد اضطررت إلى التضحية باللباقة لمصلحة الحقيقة.

كتبت هذه الرؤية قاصدًا ألا تكون مبنية على مجاملة طرف دون آخر، ولكوني ممن يحسب في المثقفين فقد تكون منحازة إلى صفّهم. غير أني حاولت قدر الإمكان أن أتخلص من شكليات الكتابة ومجاملاتها، والحديث بما أمكن من وضوح عن حقائق ودوافع تحيط بتصرفات سلطتين اجتماعيتين مؤثرتين.

كان العالم - قبل أن تؤثر الطباعة وما أنتجته في العالم الحديث- يوحّد قوته غالبًا تحت سلطة الحاكم ومؤسساته. والمؤسسة الدينية تتبع مرة وتشارك أو تحتج أخرى، ولكن منذ أكثر من ثلاثة قرون خرج المثقف كسلطة جديدة على المؤسسة الدينية وعلى مؤسسات الحكومة، وجاء من الصحافة والتعليم والمحاماة والإدارة ليؤسس سلطة جديدة تنمو بنموّ المعرفة والتعليم والإعلام، جمهوره عامة المجتمع القارئ ثم السامع ثم المشاهد، والآن يوجد كل هؤلاء إضافة إلى المشارك في الشبكات الاجتماعية.

ويقتطع المثقف من الحدود المجاورة للمؤسسات الدينية والحكومية والتجارية، ويزيد نمو قطاعه ودوره كل يوم، وتساهم الوسائل العلمية والشبكات الاجتماعية في دوره وارتقائه بالعقول. وكل تقدم علمي يرجح من كفته، ولا يمكن كسر تياره ولا كبته في المستقبل المنظور، بل تتزايد مؤسساته كل لحظة من خلال قوى للتقنية جديدة.

وسر التوتر الدائم بين المثقفين والسلطات في حكومات العالم، خاصة في الحكومات غير الديمقراطية، أنهما سلطتان متنافستان ومتنافرتان. وسبب التنافر تنازع دوائر النفوذ أو الرأي وأحيانًا المصالح؛ فالحكومة ترى أن معها القوة ويجب أن تستكملها في جميع الدوائر، والمثقف يرى أن معه المعرفة والفهم ويجب أن ينشر رأيه ومعرفته التي هي سلطة، أو على الأقل أن يكون لرأيه مكان في مجتمعه. غير أن حكومات الإنكار التام للمثقفين أو الاحتواء الشامل فشلت منذ ستالين، وفشلها يكبر مع مرور الأيام؛ لأن احتواء المثقفين وامتلاك عامة العقول لا يمكن تحقيقه إلا في مستوى كبتٍ غابت إمكاناته في عصرنا.

قطاع المثقفين يزيد من التوتر مع السلطات الشمولية، ويقوى على حسابها، وهو منافس ثقافي سياسي وليس شيخًا ولا شاعرًا، ممن تعرف السلطات القديمة سحنته ورغبته أو عرفت كيف تسلبه ذاته، بل هذا الكائن الجديد ينافسها في ميدانها الدنيوي والديني الثقافي والمعرفي الروحي

والخرافي، ويسبقها بمعرفة أدواتها. وفوق هذا، فهو خليط واسع غريب من متدين وملحد، أو موسيقار وممثل وصحافي، أو واعظ وشيخ يتحول مثقفًا، وله جاذبية من لقبه وأدواته وميادينه.

والسلطات الشمولية لم تدركه إلى الآن ولا تعرف كيف تتعامل معه؛ فأدواتها قديمة، وأدواته أحدث مما تملكه السلطة بحكم معرفته وشفافيته ومرونته. أما السلطة فلديها الغطرسة والقوة، فهي تلجأ إلى النكران والاستصغار أو القسوة للتعامل معه، وأصبحت الطبقة الحاكمة تتكون من طبقة المثقفين في الغرب والشرق خاصة الديمقراطيات.

وكانت للمنتجات العلمية منافع عظمى ومآسٍ على الفرد والجماعة، وكان لتخلف المخترعات قديمًا ما حفظ للبعيد وللفرد كرامته دون رقابة سلطة قريبة، فكانت للناس مساحة من الحرية، ولكن عند قدوم المخترعات إلى الحكومات القاسية سخّرتها للإضرار بالناس أولًا وحرمانهم من حرياتهم، قبل تسخيرها لمنفعتهم، فمثلًا عرف التسجيل لمكالمات الناس قبل أن يصل المسجل ليحمل المنافع لهم.

ولكن تطور التقنيات نفع حتى أصبحت قدرة الحكومات على قصرها على الإضرار بالسكان غير ممكنة. ومن هنا تمتع المثقف بشيء من منافع المخترعات لينفع بها المجتمع خلاف ما أضرت به الحكومات القاسية.

وإذا كانت السياسة في الأمم الحية انفتاحًا وتنويرًا ومشاركة، فهي في الأمم المتخلفة كهانة بين خاصة ودوائر مغلقة وتدبرًا في ظلام، ويحاول أهلها حيازة كل شيء وحرمان الشعب من كل شيء. ونتاج التدبير في الظلام منتَج يليق به فقط، يستحيي منه المثقف، ويعتذر لا من أخطائه بل من وجوده، فلم يعد بإمكان السياسي الحياة في تلك الظلمات، والتمتع بغنائمها وحده غير منقوصة بمشاركة. ولا يمكن استمرار تلقي السكان والمثقفين منتجات الظلمات، فلا بد من نور معرفي وحريات تنير المسالك السياسية والثقافية، وأصبح الثمن الذي لا بد من أن يدفعه الحاكم هو نسبة المشاركة.

أما المثقفون المتزايدون عددًا، المعلون لأصواتهم بحكم تقنياتهم الجديدة وتطور أفكارهم، فهم عند الحكومة مغرورون بما حصّلوا، واثقون بفهمهم، ينظرون -دون احترام- إلى من يقوم بالعمل ويملك السلطات، ويتوقعون أنهم يملكون الفهم العميق والتجربة، وكل خطأ فهو من السياسيين المتسلطين، ولو أنهم وصلوا لقلبوا بلدانهم إلى جنة الدنيا؛ لأن غيرهم سبب الشقاء، أما هم فبريئون ومثاليون ناقدون ومتوهمون يسهل عليهم القول ويصعب العمل.

ولم تغب حيلة السلطات في أي عصر عن المثقفين بتوظيفهم لمصلحتها أو توريطهم في مشكلاتها. وكانت تجد دائمًا من يقبل، بل من يتمنى، هذا الدور، وتجد من يربأ بنفسه أن يكون محللًا لسياسة لا يقبلها عقله ولا ضميره، وهؤلاء منارات الأرض وملحها، سواء كانوا مثقفين أو مشايخ أو علمانيين. ولولا الضمائر الحية لهؤلاء لشقي المجتمع، فرقابتهم المهابة تخفف من الجور والفساد، وقد ملكوا في زماننا أسلحة أخلاقية مهمة، ويزيد تسلحهم المعنوي بحقوق الإنسان والإعلام بشتى أنواعه.

مشكلة المثقف هنا أن الحكومات الناجحة هي القائمة على أفكار مقنعة وقابلة للتجديد، ومرونة تستوعب الأفكار والأشخاص وتحولات المجتمع، وما لم تملك هذه المرونة فإنها تصطدم بمن تراه منحرفًا. والحقيقة أنها تصطدم بيبسها وتصلب مفاصلها وجمود أفكارها، فتتهم الجيل الجديد

والمجتمع بما حل بها من داء؛ لأن المجتمعات متحولة وهي في هذا الزمان أسرع تحولًا مما تخيّله الناس.

وهذا البلد قامت لحمته أو شرعيته على فكرة دينية جامعة، ومصالح عالمية محيطة في ظروف مختلفة، ولكنه استقبل عام 1990 تحولًا كبيرًا فاتّجه سياسيًّا إلى خدمة إمبراطورية مستبدة، فيما التوجهات الدينية والقومية المنتشرة خالفت الاتجاه. ولم تتنبه السلطة لمعرفة الزمن ولا معرفة الأفكار، ولم تتحرك بذكاء في الهامش الذي تسمح به الإمبراطورية؛ فكان لتخلف معرفتها بمجتمعها، وخوفها الذي زاد هلعًا بعد أحداث 11 سبتمبر من الخارج، ثمنٌ أدّاه مثقفوها سجونًا ومطاردات مستمرة منذ أكثر من عقدين. والنتيجة انفصام بين الخطاب والعمل لا تغطي عليه أي محاولات شكلية ولا هِبَات مالية، وكذا انفصام مع التوجهات العروبية والإسلامية واندماج في تبعية ونهج حسني مبارك وزين العابدين بن علي وسادتهم، تجلت في الموقف من غزو لبنان (2006) ومذبحة غزة (2008-2009).

وهنا بقي بيد السلطة مال تشتري به الذمم، وسجن تقهر به المخالف، وإعلام تتقرب به إلى السذج في الداخل وتتقرب به إلى المحتل وبوق دعاية له، مع فقدان مكشوف للمشروعية. وستعاني الحكومة مستقبلًا صراعًا بين مشروعيتين: بقية مشروعية دينية غاربة، ومشروعية مدنية قادمة. وقد يكون من الخير للمجتمع أن يتحول إلى توجهات معتدلة تبدو محسومة. ولهذا فإن من الضروري جدًّا لمن له قلب وعقل وحرص على المصالح العامة أن يتم وفاق بين المثقفين والسلطة على مرحلة التحولات القادمة، ومن ملامحها:

1- تراجع -إن لم تكن نهاية- المشروعية الدينية، بسبب شكليتها وتبعيتها وعنصريتها الإقليمية، والضعف المعرفي لمن يمثلها، وتملق رموزها، وهذه أركان وهَنِها، وكلما قربتها الحكومة وأغدقت عليها زاد بغضها عند الناس.

2- تنامي خطاب متحرر بعضه متطرف في أفكاره وتصرفاته، وهو نتاج عمل حكومي لمشروع «تفريغ المجتمع من الثقافة السياسية ومن الدين». مع أن تجفيف منابع التدين سبق 11 سبتمبر وزاد بعده. وقد نجحت السياسة الرسمية في هذا، وهذا التطرف يوازي تقريبًا التطرف الديني الحكومي السابق، وهو خطاب التبس بخطاب المحتل، وسيكون قصير العمر بسبب البيئة الدينية، والتحرر العربي، واعتدال الخطاب الإسلامي.

3- وجود نهضة واسعة لخطاب وصوت إصلاحي معتدل متحرر من التبعية للدين الحكومي، ومتحرر من الخطاب المتطرف التابع للاحتلال، ومتحرر من التطرف باسم الدين، يؤمن بمصالح بلده وينادي بالحرية والعدالة وفصل السلطات، وإنهاء احتكار الحكومة للدنيا والآخرة ولعلاقة بالغرب صُممت لضرره، وعلاقات مشوّهة بعالم العرب والمسلمين.

4- النهضة الحقوقية والتحررية والإعلامية العامة في العالم العربي والإسلامي، مع شدة التقارب والتواصل جغرافيًّا وثقافيًّا، ولذلك كله تأييد عالمي، وتراجع نسبي أو ظاهري غربي عن تأييد الاستبداد والفساد.

خطوات في طريق مستقبل الوئام:

1- قرار صارم صادق ومسؤول بإنهاء حالة العداء بين المثقف والسلطة (أغلب مثقفي البلد البارزين من مختلف التوجهات مروا بالسجون)؛ فكأن البلد سوط ويد ورجل، أما عقل المجتمع

ففي السجن أو يهدَّد به كل لحظة؛ مما أفقد السلطة الرأي والحكمة، فساد الجهل والفساد مع النفاق لكل من تظاهر بالتسلط. فساسة العالم المخلصون وحكماء الأمم يرون المثقف قلب المجتمع النابض، وهو عين الحكومة الواعية وعقلها المفكر والمدبّر. وهنا يجب ألا يكون بين المثقف والقيادي خصومة، بل الخصومة مع أمراض وعلل الحكومة والمجتمع كالجهل والفقر والتبعية والكبر والأنانية. واليوم يجب سماع المثقفين، فهذا سيجنب المجتمع هزات عاصفة ومضرة بالجميع.

2- تحمّل السلطة التنازلات الضرورية للسكان ليحصلوا على حقوقهم وليرتقوا بمصالح الجميع، وتجاوز العُقد في هذا الشأن؛ لأن السمعة والواقع تتزايد سوءًا وتنفيرًا؛ مما يراكم القناعة بحلول جذرية ويمهد لمصادمات شمولية.

3- العزم على إنهاء حالة البداوة في الحكومة، فدائمًا هناك شخص في المؤسسة أو الحكم يملك أن يضرك أو ينفعك، ويدوس على كل قانون ويصنعه أو يفسره لأن مزاجه هو القانون. وهذا الحل لا يمكن وجوده بكتابة قوانين جديدة، بل باحترام كبار الحكومة للإنسان، ووجود قانون نافذ يتساوى أمامه الجميع لأنه لا وجود لهذا إلى اليوم عمليًّا، فإن كان مكتوبًا فهو غير مطبَّق، ويكفي أن ترى قياديًّا يستقبل الناس يوميًّا فيهب ويمنع وينهب ويحل ويحرم. ومع هذا يرى التطوير في أثاث المكتب وتجهيزاته فقط، بينما يحرّم على عقله التطوير، ويعيش في سجن تقديس تجارب ماضية لم تعُد ذات علاقة.

4- الأفكار التي قام عليها المجتمع وأوصلته إلى ما هو عليه اليوم ضعف دورها، ولن تنقله إلى المستقبل إلا أفكار جديدة وشُجاعة. ولن يجدي إغلاق المجتمع ولا قهره على أفكار ماضية، ففتح الطريق لمزيد من الحرية والعدالة لا يعني حرمان الحكام من كل ميزة ولا نشر البغضاء لهم، بل ستُرعى لهم حقوقهم واحترامهم كلما ارتقوا بأنفسهم ومجتمعهم إلى ما تتطلع له شعوب العالم من عدالة ومساواة ومحاسبة.

5- بقاء علاقة الحكومة بالمجتمع علاقة مراقبة لما يهمس به الشعب وتحسس مستمر هو تدمير منظَّم، وصناعة لمجتمع الشقاء؛ لأن ذلك يزرع الرعب والتوجس في الحاكم، ويُضعف قدرته على وعي حركة المجتمع والتاريخ من حوله، كما يُجبر الناس على التمرد بأي طريق. وقد كان السلطان العثماني عبد الحميد يعمل 14 ساعة يوميًّا أغلبها في قراءة تقارير الجواسيس؛ فأوهنوه وجعلوه شكاكًا خائفًا، وهَزم بخوفه نفسَه ومجتمعه، إذ حكومة الجواسيس حكومة الدود الناخر في عقل الحاكم وهيكل الدولة والمجتمع.

6- فتح المجال للأكفاء في البلاد، والتخلي عن شرط مرور كل موظف وقاض وقيادي على سجلات المباحث، فليست كل وظيفة وكل موظف ممن يجب أن يثبت حسن سيرته للجواسيس؛ لأنه ما من كفء إلا وله مقولة نقدية لمن فوقه أو من دونه بلا استثناء.

7- المثقف رافعة وطنية حقيقية يرتقي بالعقل والعلم والذوق، وشعوره بالخوف والضعف بسبب رأيه المخالف للسلطة يضع من قدر مجتمعه؛ لأن عقل المجتمع وقدوته مهان وذليل وخائف. ومجتمع بضاعته المتداولة هي تقارير جاسوسية وتهم وطبقية وإقليمية ومذهبية وأسرية هو مجتمع يتبادل الاحتقار، وهذا الانتقاص المتبادل قد يسر اللوذعة السياسية، ولكنه يُذل الجميع حاكمًا ومحكومًا، ويضع من قدر الجميع، ويجعلهم أتباعًا لغيرهم، فصاحب الرأي خائف، والمنافق المتعالم متصدر.

8- لا بد من تحرير قطاعات ثقافية مهمة من المجتمع، ومحاسبتها وتنقيتها من الفساد في الظلام، والبدء بالجامعات والإعلام، وإعادة الانتخابات في الجامعات لجميع مناصبها، وكذا تحرير الصحافة وإبعاد منتهجي النفاق، وفتح الطريق لذوي المعرفة والمروءة والجرأة، ولو لم يكونوا من المدّاحين.

9- الحكومة المخلصة تدرك دور المثقف لأن الثقافة رؤية ومعرفة. وأيما حكومة تعادي المعرفة والرؤية تقبع في الظلام وتخسر الماضي والمستقبل. والمثقف مثقَل بعيوبه، ولكنه يبدو في أعين المقهورين أنظف وأزكى كلما خالف السلطة، وإن لم يكن كذلك.

أشكر لكم قراءتكم واهتمامكم، وأرجو التوفيق والسداد للجميع والإخلاص في القول والعمل.

كتبه

محمد حامد الأحمري

20/10/1432هـ

18/9/2011م

شكر

منذ أن كان هذا النص مقالاً قصيرًا إلى أن أصبح كتابًا تعاقب عليه كثيرون ساهموا في قراءته ومراجعته وتصويبه وتحقيقه، منهم: رياض المسيبلي، ويوسف عبد الجليل، وعمرو الأحمري، ومحمد المختار أحمد، ومحمد المختار خليل، وأحمد فال ولد الدين، ورشيد بوطيب، ومجاب الإمام كانت مراجعته واقتراحاته الأخيرة مهمة، وأنجز الأستاذ محمد الدميري تصميم غلافه، فللجميع مني وافر الشكر والتقدير. أما أفكار الكتاب فكانت محل حوار، وللكاتب ما استبد به من خطأ أو سواه.

الـــدوحـــة

20/3/2018

---

[1] ابن حزم، **الرسائل**، تحقيق إحسان عباس، ط 2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987، 3/180. ثم ذكر ابن حزم البيت التالي:

اعمل بعلمي ولا تنظر إلى عملي   ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

[2] أحمد فؤاد الأهواني، **فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2009، ص 103.

[3] الآمدي، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، الرياض: دار الصميعي، 2003، ص 256.

[4] «إن من يأمل ويتطلع إلى المستقبل لا بد أن يتجاوز التخصص». انظر كتاب عبد السلام بن عبد العالي، **التاريخانية والتحديث: دراسات في أعمال لعبد الله العروي**، الدار البيضاء: دار توبقال، 2010، ص 26.

[5] هناك من يرى أن المثقف ظاهرة قديمة وليست حديثة، انظر: ريتشارد بوزنر، **المثقفون العامون: دراسة في الانحدار**؛ فهو يعيد بعض نماذجه في عصور روما القديمة، أمثال: شيشرون وسينكا. Richard Posner, *Public Intellectuals: A Study of Decline*, Cambridge Massachusetts: Harvard University Press, 2001, pp. 25-26.

[6] Ibid., pp. 18-19.

[7] كما سيأتي في كتاب تالٍ خاص بنماذج المثقفين والأدوار التي قاموا بها.

[8] ميخائيل نعيمة، **سبعون**، بيروت: مؤسسة نوفل، 1978، 2/68.

[9] انظر كتاب **افعل كما أقول وليس كما أفعل**، وهو كتاب طريف خفيف جمع تناقضات المثقفين الأمريكيين بين القول والعمل.

Peter Schweizer, *Do As I Say (Not As I Do): Profiles in Liberal Hypocrisy*.

[10] كذا فعل رشيد رضا، فقد تلقى معونة كبيرة من أحد الملوك لمجلته **المنار**. ولعل من أسباب لجوء أصحاب المشاريع إلى هؤلاء غياب الأوقاف الهادفة في مجتمعاتنا، وقلة الاعتماد على القارئ العام للأعمال سواء للكتب أو للمجلات، وكذا للمواقع الإلكترونية في زماننا، فمهما قدمت فإن حياتنا الثقافية لا تزال متأخرة عن أن تستقل أعمالها من مواردها. وللطغيان أثره في حرمان الثقافة من انطلاقها أو تحصيل حقوقها، فالطغاة يرهبون المعلن التاجر والمتبرع من أن يعين الثقافة ليبقى الناس عُميًا وجهلة.

[11] **محاورات ألفرد نورث وايتهد**، سجلها لوسيان برايس، ترجمة محمود محمود، القاهرة: دار المعرفة، 1961، ص 79.

[12] استفدت في هذه الصياغة من تعريف كلود ليفي شتراوس، وإن لم تكن هذه صياغته. انظر: دنيس كوش، **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، ترجمة منير السعيداني، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2004، ص 78.

[13] حافظت مجتمعات عربية على معنى قديم للكلمة يتصل بالموظف وكُتاب الدواوين (أو الموظفين الإداريين).

[14] وليمز، ص 172.

[15] انظر: **آخر المثقفين**، طبعة عام 2000، ولم يرد هذا القول في الطبعات السابقة للكتاب: ص XVI. Russell Jacoby, *The Last Intellectuals: American Culture in the Age of Academe*. New York: Basic Books, 2000, p. XVI.

[16] هسرل، **الفلسفة علمًا دقيقًا**، ترجمة محمود رجب، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، 2002، ص 23.

[17] عبد الوهاب المسيري، **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر**، القاهرة: دار الشروق، 2005، ص 332.

[18] ممن ناقش هذا جون ديوي، وذلك في إطار اهتمامه بموضوع وجود ما يسميه «فلسفة أمريكية»، مقارنة بالفلسفات التي سادت بعض أنواعها في الأمم بحسب ظروفها وتقاليدها، وكثيرًا ما وُصفت الذرائعية بأنها فلسفة أمريكية من صناعة الظروف التي أنتجت الأفكار المناسبة لها.

[19] وليمز، ص 235.

[20] ورد ذلك في **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، في حديث عائشة رضي الله عنها الطويل عن الهجرة.

[21] راجعه عند حديثه عن التحكيم في الفتنة، انظر: ابن العربي، **العواصم من القواصم**، تحقيق عمار الطالبي، الدوحة: مكتبة الثقافة؛ القاهرة: مكتبة دار التراث، ص 309. وبمناسبة الحديث عن هذا الكتاب، فإن من المهم القول إن نسخته التي نشرها محب الدين الخطيب نسخةٌ مختزلة وغير صالحة للبحث المعرفي وتضر بابن العربي ولا تليق به، فقد اقتطع الخطيب مقاطع مؤثرة أيديولوجيًّا ولكنها تسيء إلى النص الأصلي.

[22] أبو الفرج الأصفهاني، **الأغاني**، تحقيق إحسان وبكر عباس وإبراهيم السعافين، بيروت: دار صادر، 2004، 9/235. والمنآد هو ما انآد بمعنى انثنى أو اعوجّ أو انحنى، ونادَ يأتي أحيانًا بمعنى بَعُد في بعض الاستعمال الجاري في الجزيرة العربية الآن، فيقال ناد عن القطيع بمعنى انفصل عنه وابتعد. والثِّقاف (بكسر الثاء) هي خشبة في وسطها ثقب تقوّم بها الرماح إذا اعوجّت، قال سلامة بن جندل:

سوّى الثقافُ قناها فهي محكمة قليلة الزيغ من سَنٍّ وتركيب

زرقًا أسنّـتها حمرًا مثقَّـــفةً أطرافُهن مقيلٌ لليعاسيب

وقصيدة سلامة في **المفضليات** للمفضل الضبي، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون، ط 6، بيروت: [د.ن.]، ص 123. ويقال عن الرمح المقومة تقويمًا جيدًا مُثقّفة، قال الجميح:

في كفه لدنة مثقفة فيها سنان مُحرّب لحمُ

انظر **المفضليات**، ص 41.

[23] جعل واحد الرماح المعتنى به «مثقفًا»، والخطي نسبة إلى «الخط»، ويراد به قديمًا ساحل الخليج العربي الغربي ما بين عمان والبحرين، وإليه تنسب الرماح الخطية، واحدها خَطّيّ، وفي الحجاز شجر بهذا الاسم.

[24] صالح زيادنة، «تأملات في اللغة: حول مثقف وثقافة»، دار ناشري للنشر الإلكتروني، 4/11/2003، في:https://goo.gl/1REAhj

[25] المرجع السابق.

[26] مع أنه غلب معنى التهذيب والتقويم والمعرفة على المعنى المستنبط من الآية ولو كان فيه بعض البعد، أي أن تراهم وتعرفهم؛ لأن من المعنى الإمساك والقدرة عليهم، بخلاف اللمحة التي أشار إليها هادي العلوي هنا في كتابه **المرئي واللامرئي في الأدب والسياسة**، دمشق: دار المدى، 2003، ص 17.

[27] لمزيد من التعريفات والاستخدامات القديمة للكلمة ومنها مثاقفة، انظر الكلمة في **لسان العرب** لابن منظور، و**شواهد القرآن** لأبي تراب الظاهري، ج1، جدة: نادي جدة الأدبي، 1404هـ 1983م، ص 299-302.

[28] أحمد رضا، **رد العامي إلى الفصيح**، صيدا: العرفان (نسخة مصورة)، 1952، ص 53.

[29] انظر مادة «هدن» في **لسان العرب**.

[30] انظر مقدمة محمد بدوي في كتاب **تأويل الثقافة**، تأليف كليفورد غيرتز، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009، ص 8-9.

[31] محمود شاكر، **جمهرة مقالات محمود شاكر**، جمعها وقرأها وقدم لها عادل سليمان، القاهرة: مكتبة الخانجي، 2003، 2/1071. وانظر: وجدان العلي، **ظل النديم: أوراق وأسمار شيخ العربية**، القاهرة: عالم الأدب، 2016، ص186.

[32] وليمز، ص 94.

[33] المرجع نفسه، ص 96.

[34] المرجع نفسه، ص 94-99.

[35] رسل جاكوبي، **نهاية اليوتوبيا: السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة**، ترجمة فاروق عبد القادر، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 2001، ص 51.

[36] **جمهرة مقالات محمود شاكر**، 2/1081. ومن المعروف أن شاكر وإليوت كليهما ناقد موسوعي بارع في ثقافته وعميق المشاعر الدينية.

[37] تيري إيجلتون، **فكرة الثقافة**، ترجمة ثائر ديب، اللاذقية: دار الحوار، 2007، ص 223.

[38] وبعد هذا يقول: «ولن نتلهى بإضاعة الوقت في إيجاد تعريف لمفهوم الثقافة». **مشكلة الثقافة**، بيروت: دار الفكر، 1985، ص 134-135.

[39] المرجع نفسه، ص 134. ذكره الجابري ونسبه إلى إدوارد هيريو (E. herriot): «هي ما يبقى عندما يتم نسيان كل شيء». انظر محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009، ص 38 و55.

[40] جارد دايموند، **أسلحة، جراثيم وفولاذ**، ترجمة مازن حماد، عمّان: الأهلية للنشر، 2007، ص 351.

[41] أبو حيان التوحيدي، **المقابسات**، تحقيق حسن السندوبي، الكويت: دار سعاد الصباح، 1992، ص 261.

[42] حول هذا تحدث كتاب **فلسفة العزلة أو الوحدة**، لارس سفندسن. Lars Svendsen, *A Philosophy of Loneliness*, London: Reaktion Books, 2017.

[43] في حديث الصحيحين أن «الفخر والخيلاء في الفدادين أهل الوبر».

[44] مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، ص 50.

[45] مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دمشق: دار الفكر، 1988، ص 42.

[46] سلمان العودة، **زنزانة: عادة مدى الحياة**، الرياض: مؤسسة الإسلام اليوم، 2014، ص 130.

[47] *Cultural Forces in World Politics*, London and Portsmouth, N.H: James Currey and Heinemann, 1990, pp. 7-8.

ونشر مترجمًا إلى العربية تحت عنوان: **القوى الثقافية في السياسة العالمية**، ترجمة أحمد المعيني، الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2017.

[48] يذكرني هذا بموقف طريف من عودة المعيار الثقافي الراسخ للظهور رغم محاولة تغطيته. ففي عام 1991 كان الجيش المصري على الجبهة ضد العراق، ولكن حين أطلق صدام صواريخه على تل أبيب تعالت الصيحات بالتكبير والتأييد لفعله بين الجنود المصريين. وأذكر أن أحد المثقفين الأمريكان أسلم، وكان مما قاله لي إنه قرأ في ديانات العالم كثيرًا قبل أن يقرأ عن الإسلام، فقلت له: لماذا كان الإسلام آخر ما قرأته؟ فقال لي ما محصله إن موقف الثقافة الغربية بعيد عن تقبل الإسلام وثقافته.

[49] فمثلًا، تعلُّم الهنود اللغة الإنكليزية وترسيخها استعماريًّا وجعلها بعد الاستعمار لغة الإدارة جعل الهند الوريث المتحيز والمدافع عن بريطانيا والغرب في آسيا، وتنحاز بحسب مواقفهم مستقبلًا رغم تاريخ الإخضاع الطويل، فالولاء والتفاهم والتقارب بسبب اللغة، وهكذا تجد المشرق العربي قريبًا ومتأثرًا ومواليًا أحيانًا للأنجلوسكسون، وتجد

بعض دول المغرب الكبير (من تونس إلى موريتانيا) أقرب إلى الفرنسيين بسبب اللغة التي أبقت ولاء وتفاهمًا وفهمًا مشتركًا، لا يستبعد تطوره إلى أعمق من هذا دائمًا.

[50] هناك شواهد عديدة تكاد تكون ظاهرة في مجتمعات العالم أجمع، فما الذي يغني مهاجرًا ألمانيًّا أو عربيًّا في أمريكا لغته الأولى ليست الإنكليزية رغم وصف مجتمعها بأنه مجتمع مهاجرين؟ فلو كان ثقافيًّا عالي المكانة في تواصله اللغوي لكان لهذا معنى في رفعته المجتمعية، فمثلًا الذي كان يجيد التركية في المجتمع العربي يرتفع فوق الذين لا يعرفون إلا العربية آنذاك، وكذا كانت طبقة الإنتلجنسيا الروسية مرتبطة باللغة الفرنسية منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين، وفي مناطق من الشام وشمال إفريقيا، وكذا الطبقة القيادية في مجتمعات كالهند وباكستان وشمال إفريقيا والمشرق العربي، إذ يرتبط ذلك غالبًا بالوضع اللغوي للفرد، ومرتبط أيضًا بالموجة الثقافية. فمثلًا انتشار التوجه النسوي في المجتمعات الغربية جعل كتب نوال السعداوي الإنكليزية أكثر من انتشار كتب نجيب محفوظ، وهذا يجعل كُتاب العرب يفكرون في السوق الغربية لكتبهم، فيكتبون أفكارًا تؤيد آراء الغرب في كثير من القضايا التي لا يؤمنون بها هم أنفسهم، ويصنعون ثقافة غربية في المجتمع العربي لأن السوق الغربي يطلبها، فالسوق الغربي يروج قيمًا في خارجه لأسباب اقتصادية وثقافية متبادلة وسياسية من باب أولى.

[51] في كتاب ريتشارد هوفشتاتر -الذي نحاول ترجمة عنوانه إلى **معاداة الفكر في الحياة الأمريكية**- نقاش طريف في تعريف المثقف، وبعضه ساخر من المثقف يكشف مواقف المجتمع المضطربة دائمًا تجاه من يدعي أنه يمثل توجهاته وقناعاته، انظر:

Richard Hofstadter, *Anti Intellectualism in American Life* ,New York: Vintage, 1963, p. 9-10.

[52] انتشر استخدام كلمة «تجسيد» في الثقافة العربية المعاصرة بكثرة بسبب الترجمة من لغات غربية متأثرة بالمصطلح المسيحي للتجسيد وتجسُّد المسيح، والأولى استعمال تمثل أو تحويل أو ما قارب ذلك.

[53] ملخص عن: إدوارد سعيد، **المثقف والسلطة**، ترجمة محمد عناني، القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2006، ص 76-77. والقول في أصله نقله عن إدوارد شيلز في **المثقفون والسلطات**.

[54] عن جيرار ليكلرك، **سوسيولوجيا المثقفين**، ترجمة جورج كتورة، بيروت: الكتاب الجديد، 2008، ص 18.

[55] انظر كتابه **أفيون المثقفين** (*The Opium of the Intellectuals*).

[56] ليكلرك، ص 18.

[57] ليكلرك، ص 15.

[58] بعض هذه النقول من كتاب إدوارد سعيد، **خيانة المثقفين: إدوارد سعيد**، ترجمة أسعد الحسين، دمشق: نينوى، 2011، ص 36-38. وانظر أيضًا مقال عفراء ميهوب، «خيانة المثقفين: إدوارد سعيد مجربًا وحكيمًا»، صحيفة **تشرين**السورية، 13/9/2012، في:https://goo.gl/wGhA6i

[59] سعيد، **المثقف والسلطة**، ص 40.

[60] المرجع نفسه، ص 43.

[61] Posner, p. 35.

[62] قائل هذا النص هو الروائي تشيكوف، وقد أورده آرثر ميلر في مقابلته، انظر: **هكذا نحن**، ص 194.

[63] ت. بوتومور، **النخبة والمجتمع**، ترجمة جورج جحا، ط 2، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988، ص 72.

[64] نشرت فصولًا قليلة من كتاب كنت قد ألفته عام 2000 عن **أزمة العلماء**، وأرجو أن يتيسر نشره.

[65] تشومسكي، «نصوص مختارة»، وهو نص مقال اهتم الكاتب فيه بمسؤولية المثقف تجاه ما كان يحدث من المآسي الإنسانية لضحايا الحرب الأمريكية في فيتنام.

[66] من كتبه مجلد كبير عن **العصور الحديثة**، وله كتاب عن **نابليون**، وعن **البعث** أو عصر النهضة في إيطاليا، وله **تاريخ اليهود**، وله مذكرات عن صباه.

[67] الطريف أن أورويل -الذي شنع على المثقفين كثيرًا- شُنّع عليه أيضًا، ليس فقط من قبل جونسون، وإنما من قبل كثيرين ولأسباب سياسية، وفي كتاب **من دفع ثمن الزمار** نموذج لذلك. ويجب أن يضع اللاحقون السابقين في سياقهم التاريخي، وإلا لتوسعت الإدانات بلا نهاية.

[68] توماس سويل، **المثقفون والمجتمع**، ترجمة عثمان الجبالي المثلوثي، الرياض: المجلة العربية، 2011، ص 19.

[69] Eric Hoffer, *The Ordeal of Change*, Titusville, NJ: Hopewell Publications, 2006, p. 39.

[70] هوفشتاتر، ص 38.

[71] ذكر ريجيس دوبريه هذا القطع بالزمن التاريخي للكلمة في الفرنسية، وأنها لم تنزل قاموس لاروس إلا بعد ذلك، فلم توجد في طبعة عام 1878، وانظر كُتيّبه: **المفكر في مواجهة القبائل**، بيروت: الفارابي، 2015، ص 13-14.

[72] نشره في ثمانينيات القرن العشرين. وهو كتاب يركز على عيوب المثقفين وفضائحهم وخاصة المتحررين منهم كجان جاك روسو، واليساريين من ماركس وسارتر وأورويل وغيرهم.

[73] إدوارد سعيد، **الأنسنية والنقد الديمقراطي**، ترجمة فواز طرابلسي، بيروت: دار الآداب، 2005، ص 140.

[74] الكلمة الفرنسية (Clairvoyant).

[75] Russell Jacoby, *The Last Intellectuals,* p. 107.

[76] رسل جاكوبي، **نهاية اليوتوبيا**، ص 124.

[77] نشرت صحيفة **الغارديان** يوم 11 أغسطس 2017 مادة عن تحولات بلير الرئيس السابق للحكومة البريطانية ولحزب العمال، وقالت إن سيرة تروتسكي الزعيم والناشط الثوري الماركسي زميل لينين وعدو ستالين -التي نشرها إسحاق دويتشر في ثلاثة مجلدات- كانت ذات أثر بالغ على بلير حين قرأها في شبابه، ودفعته إلى عضوية حزب العمال. ونعلم أن كتبًا ومواقف محافظة وآراء كنسية وغيرها حولته يمينًا محافظًا جديدًا.

[78] مؤرخ وأديب سوري، تولى وزارة الثقافة السورية وقتًا قصيرًا في شبابه، ثم ذهب إلى الكويت حيث تفرغ للتاريخ، وكتب كثيرًا من الكتب عالية القيمة في التاريخ، إلى جانب نصوص سريعة وخفيفة في الأدب والتاريخ قدمها للإعلام.

[79] Posner, p. 147.

[80] **الاستقامة**،تحقيق محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، 1991، (2/255).

[81] كثيرًا ما تجد إطلاق وصف «المفكر العام» على النوابغ الذين يأتون من تخصصات دقيقة ويعالجون في الوقت ذاته الشؤون العامة، منهم كروغمان عالم الاقتصاد الشهير وبرتراند رسل. وعند العرب شخصية متمكنة في الفلسفة وفي معالجة الشؤون العامة مثل زكي نجيب محمود.

[82] انظر مقال جون مكغوان، «مسؤوليات المثقف».

John McGowan, "The Intellectual's Responsibilities," *The Hedgehog Review*, .Spring 2007, p. 47

[83] كنت ألقيت بعض أفكار هذا الكتاب في محاضرة، وبعد المحاضرة ناقشني أحد العلماء الأفاضل وانتقد الدعوة إلى استخدام الجدل ومدحه، وساق الجوانب المشيرة إلى ذم الجدل. وللأسف فقد استخدم الكلمة لمعنى غير ما أراد هو، بل أقرب إلى مفهوم «وجادلهم بالتي أحسن» (النحل، 125)، أو الآية الأخرى «وجادلوا بالباطل» (غافر، 5)، ومفهوم هذه أن هناك مجادلة بالحق، وكان الشيخ يستخدم الكلمة بمعنى ما ورد في الأثر من ذم الجدل الذي يصدّ عن العمل ويكون بديلًا له.

[84] رواه البخاري، باب ما جاء في العلم وقوله تعالى: «وقل رب زدني علمًا» (طه، 114).

[85] في كتاب **مذكرات قارئ** خصصت صفحات لأهمية ذلك عبر نماذج ذكرتها.

[86] من أشهر هؤلاء زبيغنيو بريجنسكي الذي شيّد نظريات ونفذ خططًا لإسقاط الاتحاد السوفياتي والشيوعية في شرق أوروبا، وجورج لوكاس وجورج سوروس، وآخرون كثيرون.

[87] برهان الإسلام الزرنوجي، **تعليم المتعلّم طريق التعلّم**، تحقيق مروان قبّاني، بيروت: المكتب الإسلامي، 1981، ص 93**.**

[88] محمد الأرناؤوط، **من التاريخ الثقافي للقهوة**، بيروت: جداول للنشر والتوزيع، 2012، ص 58.

[89] انظر: أحلام صبيحات، «تأثير المقاهي العربية على نشأة الصالونات الأدبية والتحريض على الثورة الفرنسية»، مجلة **دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية**، الأردن، المجلد 37، العدد 3، 2010، ص 492-502.

[90] انظر **الاعترافات**، ترجمة خليل رامز سركيس، بيروت: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، 1982، ص 273.

[91] .Lewis Coser, *Men of Ideas: A Sociologist's View*, p. 19

[92] Norvell B. De Atkine, "Why Arabs lose wars?" *Middle East Quarterly* .((December 1999

[93] السابق.

[94] انظر: لورانس رايت، **البروج المشيدة: القاعدة والطريق إلى 11 سبتمبر**، ترجمة هبة نجيب مغربي، ط 3، القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، 2011، فقد أفرد لنقاش هذا الموضوع قسمًا كبيرًا من الكتاب.

[95] ول ديورانت، **قصة الحضارة**، ترجمة محمد علي أبو درة، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1981، ج 36، ص 82.

[96] إسحاق دويتشر، **اليهودي اللايهودي**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986، ص 66.

[97] بوتومور، **النخبة والمجتمع**، ص 73.

[98] Posner, p. 4-5.

[99] الغلاف الذي يغلف الغرب به عنصريته لا يمكن ستره دائمًا، وفي كتاب مانديلا الرائع **مشي طويل نحو الحرية** شرحٌ لبعض هذه المواقف العنصرية الوحشية، وإشادة بالأحرار وذوي السمو والكرامة من البيض الذين ساهموا في رفع البؤس عن السود.

[100] Lewis Coser, p. 280.

[101] حسن البنا، **مذكرات الدعوة والداعية**، الكويت: مكتبة آفاق للنشر والتوزيع، 2011، ص 130.

[102] تحدث رضوان السيد في كتاب قديم له باسم **الإسلام المعاصر** عن هذه الظاهرة التي شاهدها بنفسه ومن أساتذته أيام دراسته في الأزهر بالقاهرة.

[103] يعدّ جوزيف مكارثي مثالًا للهوس الذي سيطر على مجموعة اليمينيين بسبب تخوفهم من اليساريين والشيوعيين، وربطهم المحتجين على السياسة والقانون والممارسات المعارضة بالشيوعيين؛ فاستغل الخوف من روسيا في الخارج ليمارس إرهابًا ضد مخالفيه في الداخل، ووظف شعارات الوطنية في تجريد المواطنين من حقوقهم ومطاردتهم.

[104] سبق أن نشرت ترجمة عن قصة التجسس في روسيا بعنوان «ثم يهدمها الجواسيس»، وترجمت مقال **نيويورك تايمس** الطريف عن هذا الألماني المهووس. أما مكارثي والمكارثية فقد أصبح تاريخها عالمًا واسعًا من السخرية والاستهزاء والمآسي. انظر طرفًا من هذا في أهم كتاب ألفه ستيفن أوتيس، **النفير**،
مصدر سابق.

[105] **المعجم الكبير**للطبراني (19/311)، رقم الحديث: 702.

[106] **سنن أبي داود**(4/272) رقم الحديث: 4888، وحكم الألباني بصحته، وكذا جاء في**سنن أبي داود**: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم» (4/272)، رقم الحديث: 4889، وحكم الألباني بأنه صحيح لغيره.

[107] المؤرخ الأمريكي واسع الشهرة ماكلف، مثالًا.

[108] آدم سميث، **ثروة الأمم**، نقلًا عن جيمس بوكان، **آدم سميث: حياته وأفكاره**، ترجمة سمية ممدوح، القاهرة: كلمات عربية، 2008، ص 114.

[109] **محاورات وايتهد**، ص 154-155.

[110] كان ذاك هو الصديق الطبيب المرحوم سلطان باهبري.

[111] **رأيت رام الله**، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2003، ص 32. «في المنفى تختل المكانة المعهودة للشخص... في المنفى لا تنتهي الغصة إنها تستأنف»، ص 181- 182.

[112] إدوارد سعيد، **صور المثقف**، ترجمة غسان غصن، بيروت: دار النهار، 1996، ص 70-72 باختصار.

[113] كتب علماء عديدون محتجين على مخالفاته أعراف العلماء وتقاليدهم في زمانه، وما التزموا به من وقار يعظم قدره العالم ابن البيئة المجتمعية الذي لم يغترب ولم يجرب أن يكون هامشيًّا، فمثلًا انتقدوا عليه أنه كان يخرج للفرجة والتفسح مع جارية له على ضفاف النيل، مما لم يكن لائقًا بوقار العلماء. وكذا دخوله على تيمورلنك مخالفًا أعراف علماء زمنه. ولكنا نعلم أن مغامرته الفكرية أشد غربة عنهم وتمردًا من سلوكه. وكذا أبو حامد الغزالي عاش غريبًا، خاصة حين يكابد الموقف السياسي إيجابًا أو سلبًا وغالب موقفه سلبي، مع أن مجتمعهم آنذاك كان واحدًا ولا يعتبرون الدولة الوطنية المعاصرة لأنهم كانوا يعيشون مجتمع الأمة. ومع ذلك فإن قلة التواصل آنذاك صنعت غربة يعوضها العقل الإسلامي المتحد، والعواطف التي لم تدمرها مجتمعات الغرب المعاصرة ببدعها ومنتجاتها المقاطِعة للتواصل بين البشر، قبل صناعة البدائل الحديثة جدًّا.

[114] عبد السلام بن عبد العالي، **التاريخانية والتحديث**، ص 28. وغالب النص من أقوال العروي.

[115] ناقش مفكرون غربيون كثيرًا كون المدارس الفكرية وجهود المفكرين ردودًا على أحوال اجتماعية عاشها المثقفون أو عاشوها في مغترَبهم، وردوا بها على مجتمعهم الجديد. ونعلم من تاريخنا الفقهي أثر المجتمعات في الفقه واختلاف مذاهبه باختلاف المكان والزمان.

[116] محمد بن يوسف العبدري الغرناطي المشهور بالمواق (توفي 897هـ) في كتابه **سنن المهتدين في مقامات الدين**، الدار البيضاء: مركز التراث الثقافي المغربي؛ بيروت: دار ابن حزم، 1431هـ 2010م، ص 366.

[117] للكاتب كتيب بعنوان **سفيان الثوري: الإمام الثائر**.

[118] ليس القول هنا بحثًا عن إغراب لفظي؛ لأن الكلمتين مستعملتان ومتداولتان، وفي **لسان العرب**: نثا الحديث والخبر نَثْوًا: حَدَّث به وأَشاعَه وأَظْهَره، وهما أقرب إلى التوصيف، فالنث الإثارة لقصة متذكرة أو يبحث من ينثها عن بعثها، وهي بخلاف النسّ فهو التفريغ والتهدئة، أو لمن تجد صعوبة في معرفة رأيه فتحتاج أن تنسّسَه. وفي اللسان: «تَنَسَّسْتُ منه خَبَرًا: أي تَنَسَّمْتُه. والتركيب يدل على نَوعٍ مِنَ السَّوْق، وعلى قِلَّةٍ في الشَّيْءِ».

[119] *The Essential Chomsky,* Edited by Anthony Arnove, London: Bodley Head, 2008, p. 52.

[120] لإدوارد هيرمان وتشومسكي كتاب مهم عن **صناعة الإجماع: الاقتصاد السياسي والإعلام**.

Edwards Herman & Noam Chomsky, *Manufacturing Consent: the Political Economy of the Mass Media*, New York: Pantheon Books, 2000.

[121] *The Essential Chomsky,* p. 62.

[122] ibid., p. 52.

[123] رينيه ويلك، **مفاهيم نقدية**، ترجمة محمد عصفور، الكويت: عالم المعرفة 110، 1987، ص 391.

[124] إدوارد سعيد، **خيانة المثقفين: النصوص الأخيرة**، ترجمة أسعد الحسين، دمشق: نينوى، 2011، ص 37-38. والنص أورده المترجم في المقدمة.

[125] يشدد علي شريعتي في كتابه **مسؤولية المثقف** على دور التوعية وليس القيادة للمثقف. ولعل في هذا تجاوزًا لقدرات الأفراد، فمواهب الزعامة ورغباتها كثيرًا ما ساعدت المخلصين في إنجاز دور في التوعية. علي شريعتي،

مسؤولية المثقف، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، بيروت: دار الأمير، 2005، ص 170.

[126] قال ذلك عام 2011 في محاضرته المنشورة على اليوتيوب بعنوان «مسؤولية المثقف». وفيها أشار إلى أصل العنوان وأنه سبقه به في الإنكليزية آخرون بعد الحرب العالمية الثانية. وهذا عن العنوان نفسه، وأما الموضوع فهو مطروق من زوايا عديدة عبر العصور.

[127] وقد وُجد بين أوراقه ما يدل على أنه فكر في اعتناق الإسلام، وخشيت عائلته من ذلك. انظر: باتريك سور، «عائلة ونستون تشرشل خشيت اعتناقه الإسلام»، **صحيفة تلغراف**، 28 ديسمبر 2014.

Patrick Sawer, “Sir Winston Churchill's family feared he might convert to Islam.” *The Telegraph*, December, 28, 2014.

[128] إدوارد سعيد، **الأنسنية**، ص 158.

[129] المرجع نفسه، ص 159-160.

[130] يشير هنا إلى السلطة الخفية على الإعلام والثقافة في أمريكا، وهي سلطة يصعب أن تكون مكشوفة وجلية في الداخل بحكم قوانين كثيرة تمنع امتلاك الحكومات للإعلام والتوجيه، ولكن السلطة على الإعلام في المستعمرات الأمريكية وهوامشها جلية ووقحة في محاربة الآراء الأخرى، ومعاملة الشعوب وقضاياها بدونية وحرب علنية أو شبه علنية. ففي المستعمرات لا يخفون سلطاتهم ولا امتلاكهم للإعلام والثقافة والحكام في الأقاليم، ولكنهم حفاظًا على أنفسهم وتمييزًا لإنسانهم في بلادهم يعرفون خطورة تدمير العقل الحاكم للعالم، إن استبد ولم يستمع في الداخل إلى مواقف وآراء متعارضة، وتطبق الديمقراطية والحرية في الخطاب، أما في الخارج فالجندي والموظف الإمبريالي يتعامل بشخصيتين وعقليتين؛ إحداهما تؤمن بالحرية والمساواة مع الإنسان في بلده، وفي الخارج تعمل وتؤمن بدونية سكان المستعمرات وحكامها وعقولها وشعوبها، وضرورة تدبير أمورهم بالقمع والإرهاب والقوة والتحكم المباشر فيما يسمعون ويرون.

[131] إدوارد سعيد، **الأنسنية**، ص 153.

[132] مرتضى مطهري، **الملحمة الحسينية**، قم: المركز العالمي للدراسات الإسلامية، 1992، ج1 ص 15-16.

[133] إدوارد سعيد، **الأنسنية**، ص 146.

[134] وقد كان تطور هذه المصانع الفكرية للأفكار والمواقف والحشد إبان الحرب الباردة بين روسيا وأمريكا.

[135] **محاورات وايتهد**، ص 195.

[136] العلوي، **المرئي واللامرئي**، ص 91-92.

[137] مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**، بيروت: دار الفكر، 1985، ص 97. وفي قوله هذا اختزال لعمل المؤرخ.

[138] السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، القاهرة: البابي الحلبي، 1964، ج 2، ص 159.

[139] البخاري، **الصحيح**، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

[140] أحمد بن يحيى بن المرتضى، **طبقات المعتزلة**، تحقيق سوسنة ديڤلد-ڤلزر، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1961، ص 50-51.

[141] تعرضت ترجمات الكتاب لتشويه وحذف كبير، لأسباب أغلبها سياسية ومذهبية، خاصة النصوص التي قيّم فيها بعض الشخصيات التي قابلها وتعامل معها، وأجمل الترجمات ترجمة البعلبكي عن دار العلم للملايين وفيها حذف وتحوير قليل، والطبعات التالية لهذه الترجمة تعرضت لتشويه أكبر، وهناك ترجمات أخرى ربما كانت أوفى من حيث النص ولكنها أقل مستوى أدبيًّا.

[142] قدم محاضرة في بيت ديك تشيني (نائب الرئيس الأمريكي)، بيّن له فيها كيف يقابل ويعامل الحكام العرب في أول زيارة لنائب الرئيس بعد 11 سبتمبر 2001 ليجندهم في حرب أمريكا القادمة، وكانت تعليمات مليئة بالتكتيك والحيل والتحليل الذي مارسه من قبله ضباط المحتل البريطاني وواصفو العقل العربي من متعصبي الصهيونية، وهو دور قام بأقلّ منه مراقبون أو مندوبون من دول أخرى.

[143] عباس محمود العقاد، **الفصول**، بيروت: دار الكتاب العربي، 1967، ص 94.

[144] **مبادئ الفلسفة**، ترجمة عثمان أمين، القاهرة: دار الثقافة، 1975، ص 32.

[145] كما يشير تشومسكي في كتابه **صناعة الإجماع**.

[146] حزام الإنجيل تسمية أطلِقت على عدد من الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة، ظهر فيها نشاط ديني ونزعة محافظة في بداية الثمانينيات من القرن العشرين واستمرت بعد ذلك، وأصبح لهذ التوجه دور كبير في البلاد وسياستها الداخلية والخارجية، وبينهم استشرت التوجهات الصهيونية المسيحية، وهم ممن روج لبدعة تعريف الحضارة الغربية بأنها يهودية مسيحية.

[147] مفكر بريطاني هاجر إلى أمريكا (توفي عام 2008). وهو من أهم المحافظين الذين أثروْا هذا التوجه بالكتابة والحديث. أنشأ مجلة **ناشونال ريفيو**، وكانت له برامج تلفزيونية عديدة، وهو من أهم الشخصيات التي أثرت في مسيرة الرئيس ريغان، وقد نشر له ابنه كتابًا بعد وفاته خصه بعلاقاته الشخصية والفكرية ومراسلاته مع ريغان، ويصلح مثالًا لأثر المثقف في توجيه مجتمعه الحر المفتوح؛ فقد كان من أهم رواد تيار توجيه أمريكا إلى اليمين المسيحي الذي انتهى بتطرف ديني عرف المسلمون آثارَه السيئة عليهم، وربما رصد شرورَه المفتوحة كثيرون خاصة من اليسار الأمريكي والأوروبي.

[148] خرجت دراسات كثيرة جدًّا عن هذه الظاهرة وترجم بعضها إلى العربية.

[149] وردت بعض هذه الآراء فيما نقله فرانز روزنتال في كتاب **مفهوم الحرية في الإسلام**، ترجمة معن زيادة ورضوان السيد، بيروت: معهد الإنماء العربي، 1978، ص 76.

[150] التلميذ الذي حصلت معه الحادثة كان فيتغنشتاين، وكان مهتمًّا بالرياضيات، ومتواضعًا ومتخليًا عن الدنيا من أجل الحكمة والمعرفة. ولقراءة ترجمة سلسة ومختصرة له، انظر:

A.J. Ayer, *Philosophy in the Twentieth Century*, New York: Vintage Books, 1984 , pp. 108-121.

[151] وقد قرأت للعقاد سخرية لاذعة من رسل على موقفه هذا، والعقاد كثيرًا ما يميل إلى موقف الحكومة البريطانية بسبب ثقافته الإنكليزية.

[152] **قراصنة أمريكا الجنوبية: أبطال يتحدّوْن الهيمنة الأمريكية**، ترجمة أنطوان باسيل، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2006، ص 132.

[153] أبو العلاء المعري، **اللزوميات**، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي، القاهرة: مكتبة الخانجي؛ بيروت: دار الهلال، 2/23.

[154] هذا عجُز بيت من قصيدة لعمر بن أبي ربيعة المخزومي يتغزل فيها بهند بنت الحارث المرية.

[155] وأيضًا في مناقشات الليلة الثانية من ليالي كتابه **الإمتاع والمؤانسة**، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص 29-41.

[156] موجودة ضمن **رسائل الجاحظ**، الجزء الثاني، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، [د.ت.]، ص 183-209.

[157] المرجع نفسه، ص 191.

[158] هذا ملخص من رسالته المذكورة، 190-201.

[159] إسحاق دويتشر، **النبي المسلح**، ص 90.

[160] بيير بورديو، **قواعد الفن**، ترجمة إبراهيم فتحي، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1998، ص 283.

[161] وقد تعرفت إلى صديق ليبي في غاية الأدب واللطف، وكنا مرة في مقهى الجامعة، ولما أدبر عنا قال زميله في الجامعة: لو رأيت هذا الرجل اللطيف في يوم ضرب أساتذة الجامعة وهو يكسر سيارة أحدهم بقطعة حديد بيده!

[162] **الأعمال الكاملة للشاعر عبد الرحيم محمود**، تحقيق وتقديم عز الدين المناصرة، دمشق: دار الجليل، 1988، ص 61.

[163] تحدث بهذا في محاضرة شهيرة، بعد قدوم القوات الأمريكية لإخراج صدام من الكويت عام 1990، وخرجت مزيدة على شكل كتاب لاحقًا، طبع عدة مرات بعناوين مختلفة لم يعنونها هو، منها: **كشف الغمة**، ومرة أخرى بعنوان **وعد كيسنجر**.

[164] النص لأمجد طرابلسي، نقلًا عن مقال لمحمد الرميحي في مجلة **العربي**، العدد 306، مايو 1984، ص 10.

[165] مقدمة هادي العلوي لكتاب **أخبار الحلاج**، من تصنيف علي بن أنجب الساعي البغدادي، تحقيق موفق فوزي الجبر، دمشق: دار الطليعة الجديدة، 1997، ص 9.

[166] مقال في **نيويورك ريفيو أوف بوكس**.

Fintan O'Toole "Samuel Beckett: The Private Voice," *The New York Review of Books,* v. 62:5 (March, 2015).

[167] Eric Hoffer, p. 38.

[168] نشرت وثائق ويكيليكس هذه المعلومات، وقد مكن لهذا الوزير أكثر وكوفئ بمناصب أخطر، ليكون له دور إسلامي عام.

[169] يان فرنر مولر، **الشعبوية**، ترجمة رشيد بو طيب، الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2017، ص 47.

[170] المرجع نفسه، ص 18 هامش، نقلًا عن بول تاغرت.

[171] المرجع نفسه، ص 17.

[172] Posner, p. 147.

[173] Ibid., pp. 147-148.

[174] سورة الأنعام، 9.

[175] **مسؤولية المثقف**، ص 125-126.

[176] كتلك الكتب التي تخرج دائمًا عن الآباء المؤسسين، وقادة الحروب والإصلاحيين والمخترعين وغيرهم.

[177] العلوي، **المرئي واللامرئي**، ص 23.

[178] تيموثي كارتون آش، «توني يوت 1948-2010»، مجلة **نيويورك ريفيو أوف بوكس**، 20/8/2010، وينطق اسمه بالياء في أصله الألماني، و«يوت» تعني: يهودي. انظر:https://goo.gl/65FKtY

[179] رغم صراحة المحاضرة وقوتها، فإنه يُحسب لصاحب المجلس أنه كان من الشجاعة والثقة بنفسه بحيث يقبل موضوعًا صريحًا مخالفًا لمصلحة طبقته، وما زلت أقدِّر له تلك الشجاعة.

[180] Norvell B. De Atkine.

[181] رغم كونها ظاهرة في العصر العباسي، فإن فيها الكثير من الشبه مع حركة الحداثة والعلمنة في الأدب العربي الحديث.

[182] **صور المثقف**، ص 76.

[183] نقلًا عن كارل بوبر، **أسطورة الإطار**، تحرير مارك نوترنو، ترجمة يُمنى الخولي، الكويت: عالم المعرفة، 2003، ص 217.

[184] قال هذا البيت شاعر لم يعرف أنه سيسير يومًا في الركاب، ويحمل عصا السلطان يهش بها على التابعين، ويدعو بالويل والثبور على من لم يسر في الركاب!

[185] هنري براندون، **هكذا نحن: أحاديث مع 17 من الكتاب والفنانين والعلماء والسياسيين الأمريكيين**، ترجمة عبد الفتاح المنياوي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، [د.ت.]، ص 182. ولميلر كلمة أخرى طريفة: «إن فن البيع هو فن تجنب المقاومة» (ص 184).

[186] برع في الثقافات الثلاث، وترجم من العربية والفرنسية إلى لغته.

[187] من هؤلاء رؤوس كبار في الكنيسة الغربية، مثل بعض الباباوات المثقفين السياسيين الذين وقفوا في وجه الشيوعية، مثل جون بول الثاني، ومن أمريكا القسيس المفكر البارز رينولد نيبور (Reinhold Niebuhr).

[188] من تأليف جمال الدين الأفغاني، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1955.

[189] لأن حركة الإصلاح الديني البروتستانتي خلّصت أتباعها من استعباد البابا والقساوسة إلى حد بعيد.

[190] كانت هناك مناقشات عربية في أصل المصطلح «علماني»، وإلحاح بعضهم على استعمال كلمة «عالماني» التي تدل على العالم بدلًا من علماني المرتبطة بالعِلْم. ولعله يتضح بهذا صحة استخدام التسميتين بسبب أنهما استعملتا في مرحلتين مختلفتين وبمعنيين متباعدين، وهما متقاربتان لفظًا، وفي العربية ظهر تقارب عالم وعلمي عالماني وعلماني.

[191] على رأس هؤلاء أصحاب المذاهب الأربعة المتبوعة، والخمسة الآخرون الذين اندثرت مذاهبهم، والإباضية كانت معارضة غالبًا، والمعتزلة كانت صلتهم بالسلطة مثار محنة لهم ولمنهجهم ولتخلي الناس عنهم. أما علماء الشيعة فكانوا معارضة أيضًا قبل أن يصلوا إلى الحكم أخيرًا ويدخلوا في أزمة التميز عن الأمة، وهذا ما سوف يسبب لطبقتهم الدينية المتحكمة حسابًا شعبيًّا لا يبدو أنه في صالح وجود طبقة دينية حاكمة.

[192] ستيفن أوتيس، **النفير: حياة ونضال مارتن لوثر كينغ الابن**، ترجمة سهيل أيوب، دمشق: دار دمشق، 1990، ص 277-279.

[193] أخرج المذيع ديفيد بارسيمان كتابًا عن إقبال توثيقًا لحياته ولمحادثاته معه قبل وفاته، وفيه ذكر لقاء محققي «أف بي آي» معه لما زاروه إثر قيادته الاحتجاجات الأولى ضد الحرب في فيتنام. Eqbal Ahmad, *Confronting Empire: Interviews With David Barsamian*. Cambridge, Mass: South End Press, 2000.

[194] في كتب التفسير وعلوم القرآن وفي معاجم اللغة العربية نقاش طويل حول أصول كلمات وردت في القرآن، مثل: إستبرق وعدن ومشكاة وبستان وسجيل وقسطاس وقسط (جست- جستس)، وحتى أسماء الأنبياء وعروبتها من عدم ذلك، وعلاقة هذا بالنص على أن القرآن «بلسان عربي مبين»؛ فهي لا تؤثر في عروبة النص ولا على اللسان من حيث الجملة، إذ كانت قد تعربت بكثرة الاستعمال قبل الوحي، ثم إنها -في سياق قولنا- شاهد على مكانة التفاعل اللغوي في الثقافات فضلًا عن الأفكار، وقد تكون عزلة اللغة عجزًا وقصورًا لا صفاء، خاصة في أزمنة التفجر المعرفي والثقافي مع التواصل الذي أنتجته موجة العولمة المعاصرة.

[195] **خواطر الصباح: حجرة في العنق (يوميات 1982-1999)**، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2005.

[196] سعيد، **المثقف والسلطة**، ص 77.

[197] سعيد، **الأنسنية**، ص 73.

[198] وإن كان بعض العلمانيين قد عادوا ليمارسوا استغلال القسيس مع لباس عنصري من العلمانية، كما فعل نيكولا ساركوزي (الرئيس الفرنسي الأسبق) وأمثاله. أما توني بلير (رئيس وزراء بريطانيا الأسبق) فقد كشف عن شخصية دينية متعصبة، واعترف بأنه كان لا بد له من التظاهر بالعلمانية عندما كان يحشد للحرب على العراق، قال ذلك في يناير 2011 أمام لجنة التحقيقات في هذه الحرب.

[199] ترجمة كريم عزقول، وقد خرجت منه عدة طبعات عن دار النهار، بيروت.

[200] كتب مرتضى مطهري رسالة أصلها محاضرة عن الحركة الإسلامية، شرح فيها هذا الجانب من أفكار الأفغاني ورأيه في التعامل مع المجتمعيْن. وهذا تعليل من المؤلف قد لا يكون مقصودًا، فقد كان الأفغاني من الدهاء بحيث لا يحده تصنيف مذهبي أو سياسي عن هدف علاقاته.

[201] شريعتي، **مسؤولية المثقف**، ص 73-74.

[202] يردد كثيرون كلامًا يلقونه على عواهنه عن الإصلاح الديني الأوروبي وعن جون كالفن وزميله الأشهر في الإصلاح الديني في ألمانيا مارتن لوثر، ويغفلون عن ظاهرة التشدد المعقد والمهدد للمجتمعات الذي جاؤوا به، فالقيود التي فرضها كالفن في جنيف في غاية التشدد، وقيودها الفكرية والسلوكية لم تصل لها أي حركة إسلامية متشددة باستثناء بعض «الخوارج». أما الإرهاب الفكري فكان كالفن يحتال على القانون ويقتل باسمه خصومه في فهم العقيدة، راجع كتاب ستيفان زفايغ المترجم من الألمانية **عنف الدكتاتورية**، ترجمة فارس يواكيم، بيروت: الفرات للنشر والتوزيع، 2013؛ وكتاب أبي الحسن الندوي **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية**، وفيه نقول عن وضع المسيحيين الديني الاجتماعي.

[203] له كتاب **المثقفون**، وهو كتاب هجومي، ويُعدّ الأكثر احتقارًا للعلمانيين المتطرفين ولليساريين، وسعة اطلاعه وبراعته الكتابية كثيرًا ما كانت تخفي أو تلغي طرف النقاش الآخر، وتجعل العلمانية واليسار سببًا في الشرور التي أصابت البشرية في العصر الحديث، وقدّم تعريفًا للمثقفين والمفكرين والفلاسفة العلمانيين واليساريين شديد الاحتقار والاختيار في عرض الجوانب المظلمة من شخصياتهم وممارساتهم.

[204] John McGowan, p. 48.

[205] رواه البيهقي في **السنن الكبرى**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، 6/596.

[206] وممن عالج مشكلة الجمع بين التعصب المسيحي وتعصب المتدينين اليهود الصهيوني إيليوت إبرامز، الذي عمل في إدارات أمريكية منها إدارة بوش الابن، وقد نشر قبل وصوله البيت الأبيض كتابًا عن مستقبل بقاء اليهود في أمريكا المسيحية، ملأه الخوف من مستقبل اليهود وطالب بتفاهم روابط المجتمع اليهودي وتقاربها وبقائها متماسكة في أمريكا. وكان ينوح في الكتاب على نهاية تجمع المثقفين وتأثيرهم كما كان في نيويورك وانسياحهم في المجتمع، وما يعقب ذلك من نهاية دينهم وخصوصياتهم في مجتمع يزيد تمسحه. انظر كتابه: *Faith or Fear: How Jews Can Survive in a Christian America*. New York: The Free Press, 1997.

[207] هوفشتاتر، ص 38. ولعل ليهوديته علاقة ببعض الاستخدام لألفاظ غريبة في وصف خصوم الثقافة ونقدهم. فحين كنت أقرأ في كتابه لفتت انتباهي كلمة توحي بالنقد، وهي أنه كان يسمي خصوم المثقفين بـ«الفلسطينية» (philistinism)، وفي القاموس تجد أنها المناطق الجنوبية من فلسطين، ولكن المقصود -كما في قاموس ميريام

ويبستر- أن الفلسطيني (philistines) تعني الشخص الذي لا يفهم ولا يعتني بالفن والثقافة. انظر: *Merriam-Webster's Advanced Learner's Dictionary*.

[208] آلان راين، «من اليسار إلى اليمين»: Alan Ryan, "From Left to Right," *New York Times*, December 14, 1997.

[209] رسل جاكوبي، **آخر المثقفين** (The Last Intellectuals)، ص 78. ولعل قصة راديكاليتهم تبينت بعد تحول كثير منهم إلى محافظين جدد، عكس كل تلك الدعاوى القديمة على يساريتهم، وبعضهم كان قناصًا رديئًا للفرص، ولا يحمل مبادئ ذات قيمة عنده بمقدار ما يهمه العداء العرقي، خاصة لما ظهرت مؤسسات إسرائيلية في أمريكا؛ فقد أصبح همهم تسخير أمريكا لنفوذ اليهود، دون أهمية لقصة يسار ولا ماركسية. وأكثر ما عرّى هذه المجموعات سقوطُ روسيا، فقد انحازت بقيتهم إلى التحالف المسيحي فشاركوا في صنع المسيحية الصهيونية. ومن العدل أيضًا ألا يضعهم دارس في سياق واحد؛ فقد كانت بين بداياتهم ونهاياتهم فروق كثيرة، وهزتهم المكارثية هزًّا شديدًا فجعلت قلة منهم قادرة على البقاء والنفوذ والتأثير.

[210] **موت الغرب**، ترجمة محمد محمود التوبة، الرياض: مكتبة العبيكان، 2005، ص 159.

[211] المرجع نفسه.

[212] جاكوبي، **آخر المثقفين**، ص 106.

[213] **المثقفون العامّون**، ص 215. وانظر إلى مجمل الجداول في الصفحات ما بين 194-220، فهي إحصاءات مهمة عن جوانب مختلفة من الثقافة الأمريكية والمؤثرين فيها.

[214] للمزيد عن أثر اليهود في السينما الأمريكية انظر كتابي نيل جابلر (Neal Gabler): *Life: the Movie: How Entertainment Conquered Reality*. Vintage, 2011. *An Empire of Their Own: How the Jews Invented Hollywood*. New York: Random House, 1998.

[215] Michael Wolff, *Fire and Fury: Inside the Trump White House*, New York: Henry Holt and Company, 2018, p. 145.

[216] زار هرتزل السلطان عبد الحميد الثاني، كما زار فلسطين والقدس في إطار التفكير في مكان تقوم عليه الدولة اليهودية كما تخيلها.

[217] عنوان كتاب له.

[218] علمًا بأن الفن اعتبره أرسطو حرفة، وكذا أفلاطون في محاورته مع «أيون».

[219] **اللزوميات**، 1/56.

[220] قيل لأنه كانت له مستعمَرات في أمريكا.

[221] أحمد شاكر، **تصحيح الكتب وصنع الفهارس المعجمة وكيفية ضبط الكتاب وسبق المسلمين الإفرنج في ذلك**، حققه عبد الفتاح أبو غدة، ط 2، القاهرة: مكتبة السنة، 1415-1995، ص 13-14. ومن طريف الانزعاج من المستشرقين ما حدث به الشيخ عبد العزيز قارئ، أنه كان مرة في مجلس الشيخ محمود شاكر (الأخ الأصغر لأحمد شاكر) ودار حديث عن المستشرقين فمدحهم أحد الجالسين، فأمر الشيخ بإخراجه من المجلس، وما كان يُخرج أحدًا من مجلسه.

[222] **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2008، ص 69.
[223] كتابه **من نحن** ترجمه إلى العربية أحمد مختار الجمال، وصدر في القاهرة عن المركز القومي للترجمة عام 2009.

[224] لم يستطع المستشرق برنارد لويس رغم تعصبه أن ينكر أن بلاد الإسلام كانت ملجأ وجنة لليهود مقارنة بمعاناتهم البشعة في المجتمعات المسيحية، فقد طردتهم بريطانيا من أرضها، وكانت النازية والمحرقة آخر النماذج الأوروبية للتحيز ضدهم. وهناك من يرى دعم إخراجهم من أوروبا إلى فلسطين وجهًا من تطهير أوروبا منهم وتعصبهم ضدهم، ولكن بوجه أكثر لطافة في ظاهره ومشابه لما سبقه في غايته. وقد كانوا من قبل يجعلونهم في ما عرف بـ«الغيتو»، وهي حارات تغلق عليهم ليلًا ثم تفتح صباحًا أو في أوقات محددة لدخولهم وخروجهم. وكان الناس -في بعض مناطق أوروبا- يعتقدون أنهم يحملون مرض الطاعون المعدي للناس، وغير هذا من التحيزات غير الإنسانية، في الوقت الذي تولوا فيه الوزارات في بلاد المسلمين وكذلك الطب والتجارة. ولا يمكن تبرئة أي مجتمع إسلامي أو غيره من التحيزات، والسياق السابق سياق مقارنة، ولا يعني القبول بما حدث في الماضي أو ما يمكن أن يحدث من تحيزات. ومن المعروف أن الأقليات أو الأديان والطوائف المخالفة للأغلبية في مجتمعاتنا تعرضت للمضايقات في زماننا أكثر من عصور سابقة، وذلك بسبب سيطرة الخوف على المجتمع من الخارج، أو خوف الأغلبية من استغلال المختلف عنها في الداخل، وهذا يفسر بعض المظالم وموجات الهجرة المسيحية التي أدّت فيها الكنائس والأديان دورًا كبيرًا، وأعطت الكنائس والحكومات الغربية أولوية لهجرة المسيحيين من الفاقة والخوف والحصار، ولذا فتلاشي المسيحية تحت الحصار ثم ما تلاه من الاحتلال الأمريكي في العراق حقيقة ظاهرة، وكذا هجرة مسيحيي القدس، فقد كان للاحتلال والقتل والتهجير اليهودي دور رئيسي فيما حدث ولا يزال يحدث.

[225] **الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام** لعبد العزيز سيد الأهل، ص 149، و**فتوح البلدان** للبلاذري، ص 162-163.
[226] **مجموع الفتاوى**، 28/617-618.
[227] من الملاحظات المهمة على المثقفين أثناء فترة ما بين الحربين العالميتين ما أسماه جوليان بندا «خيانة المثقفين». وقد انساق المثقفون وراء الحكومات بحجة حفظ النظام العام أو الأمن، ومناصرة القوة، وسكتوا عن المعتقدات القومية المتطرفة التي أسست ما سماه هتلر الحل النهائي بالخلاص من المرضى والعجزة وكبار السن، ثم انتقل إلى الأقليات من أعراق أخرى فيما بعد. انظر: كارل بوبر، **خلاصة القرن**، ترجمة الزواوي بغورة، ولخضر مذبوح، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2002، ص 94-95.

[228] انظر كتاب نورمان فينكلشتاين، **صناعة الهولوكوست**، ترجمة سماح إدريس، بيروت: دار الآداب، 2001.
[229] مايكل جيرسون، «حين لا تتسم واقعية السياسة الخارجية بالواقعية»، انظر ترجمة المقال عن صحيفة **واشنطن بوست** في جريدة **الشروق**المصرية، عدد 695، 27/12/2010.
[230] نُشر في نفس اليوم في الجريدة المذكورة (**الشروق**).
[231] نُشر عدد من الكتب التي ناقشت هذه الظاهرة، منها كتاب جهاد الخازن، **المحافظون الجدد والمسيحيون الصهيونيون**، بيروت: دار الساقي، 2006.

[232] لم يعد هناك معنى لتأكيد جهود الأيديولوجية الأمريكية متعددة الوجوه، والتي تغلف الحقائق البشعة بألفاظ وأسماء براقة، فكل احتلال لبلاد أخرى يسمونه تحريرًا، وكل دكتاتورية تؤيدهم يسمونها ليبرالية، وكل استعباد للآخرين يُدعى تحريرًا لهم، وكل من يستتبعونه يسمونه معتدلًا، أو مستقلًا ذا سيادة، أو جزءًا من العالم الحر. راجع الكتاب المهم الذي نشر بالعربية مترجمًا مرتين بعنوانين، أحدهما بعنوان **من دفع ثمن الزمار: الحرب الباردة الثقافية**، ترجمة طلعت الشايب، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2009.

[233] انظر مقدمته لكتاب فرانز فانون، **معذبو الأرض**، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، 2015، ص 19-37.

[234] من قول لكلود ليفي شتراوس، نقله جارد دايموند في **أسلحة وجراثيم وفولاذ**، ص 330.

[235] مقدمة هادي العلوي لكتاب **أخبار الحلاج**، ص 10.

[236] المرجع نفسه، ص 13.

[237] ويمثل العلوي بشاعرين مختلفين عن السياق هما بشار في القديم وأدونيس في العصر الحديث، انظر: **مدارات صوفية**، بيروت: دار المدى، 1997، ص 51.

[238] العلوي، **المرئي واللامرئي**، ص 19.

[239] **مدارات صوفية**، ص 23.

[240] كانت أبشع صور المثقف اليساري المنتكس جماعة المحافظين الجدد الأمريكيين، فقد كانوا من اليهود التروتسكيين في غالبهم، ثم انقلبوا بتأثير قيادات تأثرت أو تتلمذت على الصهيوني ليفي شتراوس في جامعة شيكاغو، وامتدت العصابة سياسيًّا إلى الشاطئ الشرقي في جامعة جون هوبكنز مع بول وولفوتز، الذي سيطرت عصابته على وزارة الدفاع الأمريكية أيام رئاسة بوش الابن الأولى خاصة، وأنشأت بعض أجهزة التجسس الجديدة ضد الأجهزة القديمة مستغلة أحداث 11 سبتمبر. وكانت رغم أصولها الشيوعية داعمة لتشيني نائب بوش، وهذا كان مدعومًا بحكم تدينه من الكنائس الصهيونية، في خلطة غربية بلغت ذروة تحالفها في الحرب على الإرهاب التي تحولت إلى حرب على الإسلام في الغرب وفي العالم الإسلامي، ثم إلى حرب على استقلال شعوب المنطقة وحكوماتها، فمن لم يخضع فهو إرهابي أو متهم بالإرهاب أو بولاء له أو علاقة به تُصطنع بأساليب موغلة في الهمجية الصليبية. واستطاعت عصابة وولفوتز أن تنشر أتباعها في المجتمع العربي بإرغام الحكومات العربية في أيام الرعب، وابتزتها بمواقف والتزامات متطرفة، فوضعت أولياءها في مقام هيمنة على توجهات سياسية وإعلامية عربية، لتجعل الإعلام والحكومات المرعوبة لسانًا لاحتلالها. وكثيرًا ما يغلط المتحدثون العرب الناقدون لتوجه هذا الإعلام بوصفه بأنه «ليبرالي»، مع أن الليبرالية بريئة منه، فهو إعلام حربي دعائي يقاتل لصالح المحتلين اليهود والأمريكيين بشراسة، وكفيل تطرفه بأن يُنتج ضده في المجتمع العربي والإسلامي.

[241] في سيرة سفيان الثوري عند الذهبي في **سير أعلام النبلاء** تاريخٌ لعالم فذ عزيز النفس، ترفع أخباره من همة من يقرأها، فيترفع على ثقافة الاستعباد والدونية التي غمرت حياة مشايخ ومثقفين سوّدوا بسلوكهم عالمهم، وشوّهوا كل أمل في متعلم، فمسخوا النفوس والأرواح بتردي سلوكهم وهوانهم على الطغاة والمحتلين، وكانوا أبواق هزيمة.

[242] في كتابه **المرئي واللامرئي**، ص 93.

[243] راجع الكتاب المهم الذي كتبه راجيف شاندر، مدير التحرير المساعد لجريدة **واشنطن بوست**، بعنوان: **حياة إمبراطورية في مدينة الزمرد: داخل المنطقة الخضراء**، ترجمة أيهم الصباغ، الرياض: العبيكان، 1431هـ 2010م.

[244] هناك أبحاث لمؤرخين اهتموا بموضوع الصلة بين العنصرية واستخدام السلاح النووي ما بين مؤيدين ونُفاة، وأحدها هذا البحث الذي نُشر في مجلة **التاريخ** الصادرة عن جامعة ميتشغن:Jung Oh, "Hiroshima and Nagasaki: The Decision to Drop the Bomb," (winter 2002). https://goo.gl/1Kf626

[245] كان استخدام الحيوانات في الحروب من أهم ما حققه الإنسان القديم من اختراعات في وسائله الحربية، وانتصر بسببها في العصور القديمة، كالأفيال والخيول. وكانت مشاركة فيل واحد في حصار الأحباش مكة حدثًا كبيرًا، فأرخوا بهذه الوسيلة الغربية «عام الفيل»، وبعد قرون سقطت أمريكا الجنوبية أمام الإسبان، ومن أهم أسباب ذلك حيوان غريب أدخله الغزاة وهو الحصان، وكان الهنود في بعض مصادماتهم يتوقعون أن الفارس ملتصق بالفرس وأنهما كائن واحد!

[246] حيث أشار إلى أن مواقع التواصل الاجتماعي أعطت حشود الحمقى حق الكلام بعد أن كانوا يتحدثون فقط في الحانات بعد كأس من الخمر دون أن يضروا بالمجتمع.

[247] ريموند وليمز، **الكلمات المفاتيح**، ترجمة نعيمان عثمان، بيروت/ الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2007، ص 96.

[248] رواه البخاري ومسلم.

[249] **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1975م، ج 1، ص 271.

[250] لم تعد الكُتب والكتابة وسيلة وحيدة لتسجيل الأفكار والمواقف والآراء والمخترعات ونقلها إلى المعاصرين، فضلًا عن تخيل ذلك للأجيال القادمة، فقد جعل تطور الوسائل المعرفية من يكتب عنها يتحفظ في وسم وسيلة المعرفة بالكتابة والمحفوظ بالمكتوب، إذ لم تعد الوحيدة في زماننا ولا نستطيع تأكيد بقائها في العصور القادمة كوسيلة معرفة أو واسطة للنقل إليها.

[251] كتبت هذه الرسالة إلى زعيم طلب كتابة رؤية عن الموضوع، وكانت في ظروف مهمة وعاصفة. وقد فضلت إلحاقها بالكتاب لمساسها بموضوعه من جوانب كثيرة.